

# مونتلات رأفة بالنساء







المن كمالاً

## للمؤلف في سلسلة ماريان

- الصبايا
- رافة بالنساء
- شيطان الخير
- المجذومات
- الملكة الميتة

### قيد الاعداد

- سيد سانتياغو
- بور رويال

حقوق لوحة الغلاف الأصلية محفوظة  
لنشرارات هويدات بموجب عقد مع دار غاليمار

# ما جاء

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العتبة

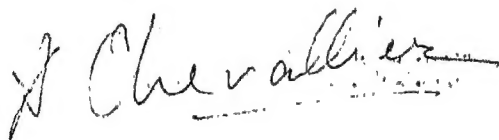
# Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin  
75341 Paris Cedex 07  
Téléphone 544-39-19  
Télex GALLIM 204121 F  
Adresse télégraphique:  
ENEREFENE Paris 044  
Société anonyme au capital  
de 8 737 300 F  
572206753 B R.C. Paris

## LES EDITIONS GALLIMARD

ont cédé par contrat en date du  
4 Novembre 1982 aux EDITIONS OUEIDAT  
à Beyrouth, pour la collection "Marianne"  
les droits exclusifs de traduction,  
publication et diffusion en langue arabe  
dans le monde entier de l'ouvrage

Henry de Montherlant : Pitié pour les Femmes  
deuxième volume d'une série de quatre  
intitulée LES JEUNES FILLES.



© منشورات عويدات - بيروت

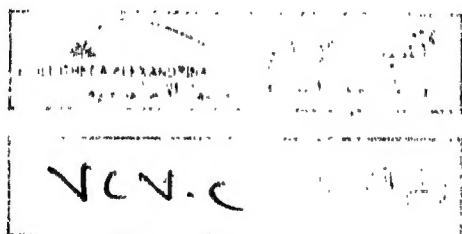
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية  
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب  
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard - باريس .

الطبعة الأولى ١٩٨٧

مُونْتَرَلَاتْ

# رَافَةْ بِالنِّسَاءْ

تَرْجَمَةْ وَتَعْلِيْقْ  
جُوْرَجْ مَصْرُوْعَةْ



عَوِيْدَاتْ

هذا الكتاب هو الحلقة الثانية من سلسلة عنوانها «الصبايا» . ويجب  
ان تُقرأ هذه السلسلة حسب التدرج التالي :

١- الصبايا

٢- رافة بالنساء

٣- شيطان الخير

٤- المجذومات



## تقديمه

يذكر المؤلف قراءته بما اشار اليه في مقدمة الحلقة الاولى :  
« الصبايا » ، من انه اراد عمداً ان يكون بطله « كوستال » شخصية  
مريرة تبعث القلق في النفس ، وكرهية تثير الاشمأزاز ، وليس من الانصاف  
ان نعزى آراء هذه الشخصية واعمالها الى المؤلف الذي خلقها .

جعل المؤلف من الملزم الاول « اوليني » بطل رواية « وردة  
الرمال » ، فكان هذا البطل متحلياً بارفع المزايا الخلقية : الوطنية ،  
الاحسان ، كره العنف ، التفاني في سبيل العدالة ، التألم حيال الظلم ( حتى  
انه كان يمرض من شدة الألم ) ، رفاقة الشعور ، التمسك بالفضيلة حتى  
المبالغة ، روح التضامن الانساني ، الرغبة في خدمة الناس حتى الامعان  
في ارهاق النفس ، الخ ...

وقد مثل هذا البطل ، في كتاب يزيد على ثمانمائة صفحة ، دوراً لا  
يقل اهمية عن دور كوستال في هذه السلسلة . وفي رواية « وردة الرمال »  
تفاصيل تدعو الى الظن ان مؤلفها يروي قصة حياته تحت ستار بطل  
روايته كما هي الحال بالنسبة الى كوستال ، أفيجوز للقراء ان يعزوا الى  
المؤلف فضائل « اوليني » لدى اطلاعهم على « وردة الرمال » ، ثم  
مثالب كوستال حين يقرأون هذا الكتاب ؟

خلق الله الرجل ليكون سعيداً .

لا وجود للخطيئة .

ترقد البهيمة في مقاصبنا كما ترقد في مقاصب التتر؛ انها تختار  
وجرها حيث يكون مقامها؛ وتأخذ ما يرسله الله اليها .

تولستوي

في كتابه « القوزاق »

( ورد هذا القول على لسان فلأح من قبيلة « تشيتشين » التي كانت

في حالة حرب مع التتر . )

كانت في بلدة ن ... ، عام ١٩١٨ ، فتاة في الثانية عشرة من العمر ، أطلق عليها ذوها لقب : « الصغيرة الهادئة » . لم تكن لها صديقات ، فكانت تلعب وحدها في البيت وهي صامتة طوال ساعات متوالية . وكانت تجلس الى المائدة فلا تفوه بكلمة في اثناء تناول الطعام . قيل فيها انها « صبي » لانها كانت تقوم بنزهات طويلة وحدها ، جرياً على القدمين ، او على دراجة هوائية ، ولا تبدي اقل رغبة في ما تحبه الفتيات اللواتي في مثل سنها ، ناهيك بانها كانت شجاعة ، تجلس وحدها في زورق ، او في الظلام ، او في بيت منفرد ، دون ان يساورها اقل خوف . ولكنها كانت شديدة الحجل ، فاذا نسيت الخادمة ان تقدم لها لونا من الطعام على المائدة ، لظمت الصمت ، وامتنعت عن المطالبة ، وصبرت على جوعها . وكانت في المدرسة تلميذة لا بأس بها ، اي انها كانت متأخرة صفّاً واحداً بالنسبة لسنها . وبين الثانية عشرة والرابعة عشرة من سنّها حاول ذوها تعليمها العزف على البيانو ، فما افلحوا . ومن الرابعة عشرة الى السادسة عشرة بذلوا جهوداً كبيرة لتلقينها العزف على الكمان ، فبامت جهودهم بالاشفاق . وبعد اربع سنوات من العناء المتواصل ومن بذل اللف والفرنكات ، ادركوا ان ابنة السكوت هذه لم تخلق لتحدث ضجيجاً . ثم اضطروا الى الاستغناء عن الراديو لأنه يضايقها حتى الاثارة . واخيراً ، اراد ابوها ان يعلمها الرسم ، وكان من الهواة الموهوبين في هذا الفن ، ولكنه اضطر الى اللقاء سلاحه والاعتراف بالهزيمة بعد محاولات عديدة . والحق يقال انه لم يكن فيها ميل الى شيء ، او رغبة في شيء .

فبدأ القلق يساور اباه السيد دنديتو . ولكي يساعد ابنته على « تكوين شخصيتها » تكويناً مرموقاً ، راح يفرض عليها كتابة رسائل تارةً الى احد اعمامها ، وطوراً الى عرائسها ، مشروطاً عليها ان تكون رسائلها « مبتكرة الاسلوب » ، فكانت تكتب مسخرةً والدم يغلي في صدرها ويصبغ وجنتيها بلون الارجوان .

كان السيد دنديتو يطالب ابنته برسائل مبتكرة ، وكان نموذجاً « مبتكراً » بين الرجال . كان ابوه مدعيًا عاماً ، فدرس هو الحقوق عملاً بتقاليد العيلة . ولكنه ترك المحاماة بعد أن مارسها سنة واحدة ، وترك معها كل متاعب الاهتمام بكسب المال ، مع ان ثروته لم تكن تتجاوز امكانيات الرجل الميسور . وما إن عرفت ألعاب القوى في فرنسا ، عام ١٨٨٧ ، حتى انصرف اليها انصرافاً كاد يكون كلياً ، وكان في الحادية والعشرين من العمر ، وأنشأ في ن ... نادياً رياضياً . وكانت السباحة ، بنوع خاص ، تثير حبه حتى اصبح رسولها المبشر بفوائدها . ولما بلغ سن النضج ، ولم يكن يفتقر الى شيء من الذكاء والثقافة ، هجر الرياضة بمفهومها الدارج ، وانصرف الى التربية البدنية . واستقال من رئاسة ناديه التي غدت في نظره ضرباً من المهرطقة ، ونذر نفسه روحاً وجسداً لـ « الطريقة الطبيعية » في الرياضة البدنية التي ظهرت آنذاك في فرنسا . وقد نشرت مجلة الـ « إكسپريس » عام ١٩١٠ ، صورة أخذت في « معهد الابطال الرياضيين » بمدينة « ريلس » ، ظهر فيها السيد دنديتو في ثياب راعٍ يوناني ، مزدان الوجه بشاربين جميلين حسب الزي الرائج في ذلك الزمان .

قاطع الحياة الاجتماعية الدارجة مقاطعةً رسمية ، وباع حتى طقمه الـ « فراك » : رمز الدنس الباسيلي<sup>١</sup> ، ولم يعد يهتم إلا بالهواء الطلق ،

١ - اشارة الى ما جاء في التوراة على ألسنة بعض الانبياء من اتهام مدينة بابل بالبدخ والفسوق والانفاس في الملقات الدنيا .

والشمس ، وتقنين غذائه ، وقياسات جسمه ، ووزنه ، فغرق في الجداول والارقام الدالة على ما يجب ان يعمل الانسان ، وما لا يجوز له عمله ليظل « طبيعياً » . ولا نغالي اذا سمينا هذه الجهود : الاشغال الشاقة المؤدية الى الحياة « الطبيعية » . ولكن دندنيو لم يكن طبيعياً في سعيه وراء الطبيعة ، فراح يتوسل اليها بالحيلة ، وبالاساليب المضحكة التي تشوش حياة كل رجل متزن ، سليم الحواس ، حتى ولو استطاعت التسلق بين النزعة الطبيعية والحياة الاجتماعية المعقولة ، وهذا ما يتعذر تحقيقه عملياً .

وأمعن دندنيو في التزام « الطهارة » . ولما بلغ الخمسين من سنه استلهم « تولستوي »<sup>١</sup> ووضع لنفسه مبادئ واضحة ، منها : ان الرجل لا يصبح طبيعياً إلا اذا كان طاهر الجسد وأحب اخاه الانسان . وهذا المبدأ تكرر البغض القديم الذي كان دندنيو يضره لابه - وكان بغضاً بنوياً بسيطاً - لأن المدعي العام كان قد تسبب في اعدام بعض المجرمين . إلا ان هذا التظاهر بالطيبة كان مبطناً برواسب كثيفة من الدماء ، والنفاق ، والعناد ، والسذاجة ، كأن نفس دندنيو مبقعة كجلد الفهد ، فيها بقع من الذكاء الساطع ، وبقع سوداء من السخافة والغباء . وعلى الرغم من كونه رب عيلة ، كان يعيش عيشة اعزب متبتل ، ويحمل كل ما في العزوبة من صفات ونزوات . وكان اخيراً من ابعد الناس عن الابتكار والخلق ، حتى انه لم يستطع ان ينجز طوال حياته - وكان قد بلغ الستين - كتباً في « الحياة الطبيعية » فكر به قبل الحرب العالمية الاولى ، وهو كتابة عن تكديس معلومات منقولة من هنا وهناك عن افواه اساتذة الرياضة . نكتفي الآن بهذا القدر في وصف السيد دندنيو ، لانه سيصف نفسه

---

١ - كاتب روسي كبير ، ولد عام ١٨٢٨ ، وتوفي سنة ١٩١٠ . من اشهر مؤلفاته : « الحرب والسلام » ، و « آنا كارينين » ، و « البعث » . عقل خلّاق ، وخيال واسع . اشتهر بحب الطبيعة ، ووصفها وصفاً حببها الى القلوب .

في الحصول الآتية من هذا الكتاب .

سنة ١٩٢٣ ، توفي شقيق سولانج البكر في جزيرة مدغشقر حيث  
انشأ مشروعاً زراعياً ، فاستقرت اسرة دنديتو في باريس ، وأرسلت  
سولانج الى معهد خاص بتلقين الفنون المنزلية .

وأصبحت سولانج مكتملة الاثرية لما بلغت خمس عشرة سنة وثلاثة  
اشهر من العمر ، بعد ان اجتازت مرحلة المراهقة دون اقل اضطراب  
جنسي . لم يساورها شيء من الشعور بالذنب الجسدي ، ولا من الكتابة ،  
والاستياء ، والتهرب ، والظلمات الخفية القلقة الموجهة الى ابها وامها ،  
ولا من الرغبة في الابتعاد عنها حين يكونان معاً ... ولم تخلف مرة  
واحدة بالابتعاد عن الحب « الى الابد » كما تفعل الفتيات الطاهرات ،  
المهفات الاحساس ، عندما يعلنن هذه السن . ولما استولحت امها عن  
كيفية الحجاب الاولاد ، طرحت سؤالها للتسلية دون اقل فضول او رغبة  
في المعرفة ، فالمسألة لم تكن تمها قتل .

كان شعرها ، في ما مضى ، ذهبي اللون ، فاصبح اليوم اسود ، وتفتشت  
عينها قليلاً ، واتخذت لوناً مائلاً الى الزرقة ، يبدو من وراء اهدابها كما  
يبدو لون البحر المتوسط من وراء غابسة السنوبر . وتألق جمالها حتى  
صارت تسمع كل يوم تقريباً كلمات الاعجاب يوجهها اليها الرجال الذين  
تمر بهم او يلتقيهم على رصيف الشارع ، ففي مدينة طولون ، التقاها يوماً  
اثنان من العمال ، فدار بينهما الحوار التالي :

انظر !

.. ماذا ؟

.. ألا ترى ما اروع هذا الجمال ؟

وكثيراً ما كان العمال الجنوبيون يتوقفون عن العمل ، واحداً بعد  
الآخر ، لينظروا اليها ، حين كانت تمر بهم على التوالي ، وكان تأثير  
جمالها كبيراً في الجنوب ، لانها بسيطة طبيعية ، والبساريسون لا يحبون

إلا النساء المبالغيات في التصنع ، والتبرّج ، ومظاهر الاغواء .  
ولكن سولانج لم تكن مغرورة ، ولا متغطّسة . فكانت لا تجلس في الكنيسة إلا في الصف الأخير ، ولا تقف ، في الحفلات العلية ، إلا في المؤخرة . وكثيراً ما كانت تخرج في الصباح الباكر متدثرة بثوب قديم خالٍ من الظرف والناقة . لم تشتتر في حياتها بحلة ازياء نسائية ؛ وإذا وقعت صدفة بين يديها إحدى هذه المجلات طالعتها متظاهرة بالاهتمام ، لا لأنها لا تحب ان تعجب الناس ، بل لأنها تعتبر هذه المسألة غير جديرة ببذل أقل الجهد . اما اذا شأته ان تتبرج فكانت تكتفي بتنسيق حاجبها بالحصى مبالغة ، ويتلصص شفيتها بلسانها . وكان هذا ، بنظرها ، منتهى الاتقان في ابراز محاسنها . لم تكن تذهب قط الى مزيتي الرأس ، ولا تتحلى بالمجوهرات ، ولا تطيب بالعطور ، ولا تجمّر شفيتها ووجنتها . إلا انها كانت تستعمل البودرة ، ولا تحسن استعمالها . ولم يكن تصرفها هذا تصنعاً ناجماً عن العجرفة ، او عن العناد المقصود ، لأنها كانت أحياناً تزين بحليها ، وترسم بالحمره فماً مستعاراً على شفيتها ، وتضي نصف نهارها في تقليم أظفارها وتلوينها ، وفي تدليك يديها . وبعد الفراغ من هذه العملية كانت تغسل الدهان عن أظفارها وتشوّه يديها بتقليب المسناديق القديمة والأخشاب المكسدة في عليّة بيتها للحصول على أشياء مهمة تخطر في بالها ، فتبادر الى البحث عنها . وكانت ترتدي دائماً ثوباً أزرق ، ولا ترضى بغير هذا اللون ، فيثني الجميع على سلامة ذوقها . ولكنها احبت يوماً اللون الحجري واصرّت عليه بعناد .

وكانت مدرسة ن... شديدة النظام ، فسدس طالبات الصف الاول فقط كن يتعاطين الغرام الكامل مع عشاقهن . ولم تكن هناك عادات سرية فردية . فبلغت سولانج الحادية والعشرين من العمر دون ان تعلم ما هي هذه العادات . اما العلاقات بين الفتيات فكانت قليلة ، لا تتجاوز اثنتين او ثلاثاً ، وقد جاءت صاحباتها - بدون استثناء - من المدارس التي

تتولى ادارتها راهبات .

ولما بلغت سولانج الخامسة عشرة من العمر ، سمحت مرة لاحدى اترابها بان تعانقها وتقبلها بحرارة ، فسمعت هذه الفتاة تهمس في اذنها : « اوه ! هذه العملية بين الفتيات لا تخاف من المتعة ! » وكانت هذه الكلمات على جانب كبير من السذاجة . ولكن سولانج فهمت مغزاها ، فدفعت بمدبقتها عنها . إلا انها أصبحت بيت اسرار لجميع رفيقاتها ، فكانت تخفف احتدامهن ببرودها وهدوء اعصابها ، وتستمع الى اعترافاتهن دون ان تقول كلمة عن نفسها . والحق يقال انه لم يكن لديها ما تقوله .

اما الرجال فلم تكن تعيرهم اقل اهتمام . فساذا ضايقها منهم ثثار بمجاملاته التافهة وغزله السخيف ، صرفته عنها بدون مراعاة ، وحيانا بكلمة جارحة . وكانت تحب الرقص ، ولكنها لم تكن تعتبر الرجال الذين يراقصونها إلا أدوات بين يديها تساعد على اغتنام فترة من المرح ، وسواء عندها أرقصت وحدها ام راقصها رجل ، فالهم في نظرها ان ترقص تلبية لرغبة في نفسها . وكانت تدون في دفتر زهري الغلاف اسماء اليمال التي تدعوها الى الحفلات الراقصة ، ولا تهتم باسماء الراقصين من الرجال ، حتى في رقصة الـ « كويتون »<sup>١</sup> ، بل كانت تكتفي دائما بتدوين اسماء الفتيات والشبان الذين تتعرف اليهم في الحفلات دون اقل تفریق . ولما طرأ عليها مرشد اعترافها في باريس سؤالا لم يعجبها ( لان كهنه الارياض كانوا دائما متحفظين مهذبين ) انقلبت عن الاعتراف بخطاياها ، فاصبحت عقيدتها الدينية كمقيدة القسم الاكبر من الكاثوليكين تقتصر على حضور القداس يوم الاحد .

لم تكن مؤمنة ، ولم تجعل من الديانة ذريسا لتصرفاتها ، ومع ذلك كانت تتضايق اذا فاتها حضور القداس يوم الاحد ، فتعوض عن تقاعسها

١ - رقصة تراقها العاب يشترك فيها الرجال والنساء ، وقد راجت رابعا كبيرا في اوائل القرن العشرين ، وكانت من وسائل التسلية في حفلات العلبات الميسرة .



بزيارة احدى الكنائس . وأكسبها امتناعها عن الاعتراف قوة جديدة ساعدتها على الاحتفاظ لنفسها بما في حياتها الداخلية ، وعلى التفكير بما تعمل . وبدلاً من ان تلقيها في حجرة الاعتراف كأنها تطرحه في هوة سوداء عميقة القرار ، جعلت تكبح جماحه وتطويه في نفسها . وبذلك أصبحت ألمع ذكاة وارفف وجدانا . واغرب ما في الأمر انها ادركت هذه الحقيقة .

'كان أبوها وامها يحبانها حباً كله عطف وحنان ولا يخاور من الذكاء . اما هي فكانت تمسحها على طريقتهما الخاصة ، وقد عانيا بعض التعب ، في بادئ الامر ، ليألفا هذه الطريقة . لم يلقيا منها اقل اندفاع اليها ، ولم يسمعا منها كلمة لطيفة ، ولم يراها تقوم بعمل واحد يدل على العناية بها ، ناهيك بانها كانت تبدي استياءها من العناية التي يحيطانها بها . وكانت تقول بلا مواربة : « لا تمعجني العناية ولا تفرحني » . واذا مدت امها اليها يدها لتداعب شعرها ، غضضت جفونها وقطبت حاجبيها . وغدا قولها : « لا » في مختلف المناسبات ، شهيراً كسكوتها . فكانت تستيقظ ليلاً وهي تصيح : « لا لا لا لا لا » لتتخلص من احلامها . ولما سكنت طفلة ، كانت تصرخ : « لا لا » ، اذا رأت احداً ينظر اليها بشيء من الامعان دون ان ينفوه بكلمة . واذا أقبلت على الشارع الذي تقم فيه جدتها ، بدأت بالسباح قبل الوصول الى البيت ، لان المعجوز كانت تداعبها مداعبة غير لائقة .

ولم يكن مستطاعاً ادخالها الى المدرسة الداخلية ، لان هذه التجربة اثبتت انها تذبذب وتفقده حيويتها في البعد عن اهلها . ومع ذلك ، كانت تلزم الهدوء ، فلا تطالب ، ولا تشكو . واذا جاءت امها الى المدرسة لتزورها ، جلست الى جانبها بدون ان تفوه بكلمة . تلك كانت طريقتهما في التعبير عن محبتهم . وقد اطلق عليها ابوها اسم : « الآنسة سكوت » او « سكوت » باختصار . وسألته امها مرة : « لماذا كنت تلزمين الصمت

عندما ازورك في المدرسة ، فلا تقولين لي كلمة لطيفة ؟ » فاجابت : « لم اكن افكر بهذا الامر » .

وذات يوم عذّب اخوها مرة بحضورها ، فقبض على عنق الهرة ، وظل يضغط عليه حتى تلاشت ونفقت . وكانت سولانج تنظر اليه بعينين جاحظتين من شدة الاسدياء ، ولكنها لم تقم باقل محاولة لانقاذ الهرة . ولما قالت لها امها : « انك تحبين هرتنا المسكينة » ، فلماذا لم تصرخي ليأتي احد منا عندما كان اخوك يقتلها ؟ » فاجابت : « لم يخطر هذا الامر في بالي » . وهذه هي الحقيقة ، فالامر « لم يخطر في بالها » . ولكن متى اعتاد المرء برودتها ، فانه لا يعود يحذ فيها ما يدعو الى الشكوى . وكانت امها تقول : « انها باردة » ، ولكنها ناعمة ، عذبة ، ولم اجد قط في تربيتها اقل صعوبة » .

لا يمكن اتهامها بانها لم تكن تحب اهلها ، لانها كانت تحبهم حباً عميقاً صادقاً . ولكن الخجل كان يستولي عليها ويجعلها في ما يشبه الوجوم الى جانب الذين تحبهم ، ولا تنطلق وتفرح إلا مع الذين لا تبالي بهم . ولما كان ابوها يعاقبها ، كانت تقف على سدة مهزلة ، متجمعة ، تتحرّق شوقاً لتركنس اليه ، وتمانقه ، ولكنها كانت اعجز من ان تسير سجيته ومن ان تليي رغبته .

وظلت بالفعل « الصغيرة الهادئة » حتى جاء يوم صفعها فيه اخوها ، فعلت بها نوبة عصبية حقيقية . وكانت يومئذ في الرابعة عشرة من العمر . ولكنها لم تذرف دموعاً واحدة بالرغم من تلك النوبة .

قال لها الطبيب :

— لو يكيت لأسفك البكاء ، ولوجدت فيه بعض الراحة .

فاجابت : لا استطيع البكاء !

— لا تستطيعين البكاء حين ينظر الناس اليك ، ام انك لا تستطيعين

البكاء مطلقاً ؟

- لا استطيع البكاء مطلقاً .

ولما أجزري لها فحص عام ، بعد ان بلغت اعصابها هذا الحد من التوتر بدون ان ينتبه اليها احد ، تبين ان دقائق قلبها غير منتظمة من حيث عددها وقوتها .

وبعد ثلاث سنوات ، اراد الطبيب تصوير قلبها على الاشعة ، فما كاد يطفىء الكهرباء في المختبر حتى اصابتها نوبة عصبية جديدة . فتغيرت نظرة اهلها اليها ، ولم يعودوا يقولون انها « صغيرة هادئة » ، بل اطلقوا عليها اسم : « العصبية المكبوتة » . وكانت هذه التسمية موفقة ، لان كل ما كان يصدر عنها ، كان يصل خففت الحدة ، كصوت غنوق تحت طبقة من الفلين او القطن .

يسر الناس على الاعتقاد ان الطباع تظل على حالها ، وتسير في الحياة كأنها كتلة متماسكة الاجزاء ، وثيقة العرى ، مع ان التجارب تعطيه كل يوم غير برهان عن خطأ هذا الاعتقاد . اجل ، لا وجود لوحدة الطباع وديمومتها على حالها إلا في الخلوقات الاصطناعية . وكل ما هو طبيعي يقوم على متناقضات تمتلج في صميمه . وكان أبرز ما في الأنسة دنديو انها طبيعية .

ودمش ذووها ، يوماً ، اذ طلب يدها كهل مقتنع بمظاهر الشباب ، فبدت راضية مسرورة ، وقد كانوا يتوقعون ان قصره بدون مراعاة . ولكنها ما لبثت ان صرفته بعد ان قابلته مرتين . ثم رفضت بعده اثنين ، لانها لم تكن تريد الزواج إلا برجل يعجبها . كانت هذه حقيقة في نفسها اكتشفتها وحدها ، ومن سوء حظ الذين طلبوا يدها انهم لم يعجبوها . ولم يشأ ذووها اكرامها على الزواج . وحسناً فعلوا . انما كان عليهم ان يبرزوها في الحياة الاجتماعية ، ولكنهم لم يكونوا يحبون هذه الحياة ، ولم تكن هي تخرج من نطاقها الضيق إلا في ما ندر . وهكذا قام الأب ، والام ، والبنت ، ينتظرون ان يهبط العريس عليهم من السماء .

وعلى الرغم من ان الفتاة رفضت بصراحة وعنف ثلاثة رجال ارادوا الاقتران بها ، فان نظرة ابويها اليها لم تتغير ، فبقيت في اعتبارها « خالية من الارادة » . وأخوها ايضاً لم يكن « واقعياً علياً » في نظر ابويه ، على الرغم من الثروة الدخمة التي كان يجنيها في مدغشقر... فقد كان ، قبل سفره ، لا يعرف كيف يصلح الصهرباء عندما يخترق فيها « رصاص الأمان » . واذاً ، فهو « غير واقعي وغير عملي » . ولم يكن ثمة شيء في العالم يثير هذه النظرة التي ينظرها ابواه اليه .

وكانت الأنسة دنديو تبهن احياناً عن قوة ارادتها ، ثم تبدو في احيان اخرى مستسلمة لمشيئة القدر . ومن المؤسف ان الناس كانوا يتناسون « احيان القوة » . ولكثرة ما سمعت سولانج انها ضعيفة الارادة ، سارت تعتقد انها بالفعل ضعيفة الارادة . واذا كانت لا تعبر عن قوة ارادتها إلا نادراً ، فلأنها لم تكن تشتبي إلا اشياء قليلة وفي فترات متباعدة .

وفي هذا الجو ، كانت قد بلغت الحادية والعشرين من العمر لما تسلمت الى هذه الرواية .

وكانت « سيدة بيت » مكتملة الصفات ، دائمة الاهتمام بالنظافة وترتيب الاثاث . اذا جاء المسجسد لاسلاح الفرش اكرهته على العمل بنشاط واتقان ؛ واذا جاء عامل الكهرباء لاسلاح الاسلاك جعلته يبذل كل ما لديه من الخبرة ليكون عمله متقناً ؛ فاهيك بسلامة ذوقها في انتقاء الطعام الشهى الخفيف . وبقدر ما كانت مقتصدة في النفقات المنزلية ، كانت مبذرة في نفقاتها الخاصة . لم تكن تحصل من ابويها إلا على القليل من النقود ، فتنفقها بلا حساب على حماقات لا تكسبها شيئاً من السرور . وكثيراً ما كان يثق لها ان تجدد نفسها في الطرف الآخر من باريس ، وليس في جيبها درهم لتعود به الى البيت . وكثيراً ما كانت تتصرف كالاطفال: تتشاجر مع اخيها ، تتسلق الاشجار ، تنزل على السلم قافزة فوق

الدرجات . لم تكن تحب الكلاب لانها كثيرة الحركات تبالغ في التودّد ، ولا العصافير لانها تحدث بتغريدها ضجيجاً . إلا انها كانت تحب القطط - وفي طبعها ما يشبه طباع القطط ، وتحب خصوصاً الاسماك الحية في الحوض المنزلي ، لانها سكينة ، باردة ، مثلها ، تقوم في اثناء دورانها بحركات عصبية كأنها تعاني نوبة . وكانت هذه الاسماك تتجدد من حين الى آخر ، وكل ثمانية ايام تقريباً ، لان سولانج كانت تلتسّى ان تطعمها ، فتعوم رافعة بطونها الخاوية الى السماء .

ولم تكن الانسة دنديو تقرأ إلّا قليلاً . فمكتبتها تتألف من حوالى اربعين كتاباً ، وليس بينها سوى ثلاث روايات احتوتها صدفة . اما الشعر فلا مجال للتحدث عنه ، لأنّ سولانج كانت تمقته بقدر ما تمقت الموسيقى . وعلى الرغم من صغر مكتبتها لم تقرأ كل ما فيها من الكتب ، ولكنها فتحت صفحات بعضها تمهيداً لتصفحها ، وغلفتها تغليفاً انيقاً بورق شفاف . وكانت تحضر حفلة راقصة واحدة في الشهر . إلا انها لم تكن ترتدي ثيابها الفاخرة إلا ليحيد جيبها كأنها تقوم بسخرة مزعجة . فتتودّد حتى اللحظة الاخيرة وهي تفكر بالاعتذار عن تلبية الدعوة الموجهة اليها لحضور الحفلة . واذا تغلبت على نفسها وذهبت الى الحفلة فانها ترح وتلمو بسرور ، فلا تفوتها رقصة ، ولا تغادر المكان إلا بعد ان يغادره جميع المدعوين ، مما كان يضايق امها الى أقصى حد . وفي الايام الخالية من الحفلات ، كانت تنام في الساعة التاسعة والنصف . وكان الناس يتهمونها بالعجرفة ، لانها تسير دائماً عالية الرأس . والواقع ان شعرها الملفوف في مؤخرة رأسها كان ثقيلاً فيضطرها الى رفع ذقنها قليلاً والقاء رأسها الى وراء . ما كاد اخوها يبلغ الخامسة عشرة من العمر حتى تخلّى عن كل ما يذكره بايام الطفولة والفتوة واللعب والطيش ، وراح يفكر بمستقبله . اما هي فلم تمر هذا المستقبل اقل اهتمام ، ولم تفكر به قط ، بل كانت تلتظره وهي متجهة الى الماضي . وكانت تحتفظ بدفاترها المدرسية وبما نالت

من الجوائز أيام الدراسة ، وبالكتب التي كانت تقرأها وهي طفلة ، وبجميع ما كان لديها من الدمي والألعاب ، فُلَّت بها غرفتها كأنها تريد الاحتفاظ بطفولتها كاملة . ولكن أباه رأى غرفتها تضيق بهذه الأشياء القديمة ، فنقل منها بعض الارانب الصوفية<sup>١</sup> ، وبعض تماثيل يسوع المسيح والقديسين الى العلية . ولا ريب في ان هذه الناحية من حياة سولانج كانت تدعو الى الارتياح والسرور ، لأن المرأة دون طابع الطفولة وما فيه من رونق وفسفاء ، تصبح مسخاً لا يطاق . ومما يثير العجب ان سولانج لم تكن تجيد التحدث الى الاطفال كما تجيده الفتيات في مثل سنّها ، ولا تجيد في معايشرة الاولاد سوى الضجر والشنك ، على الرغم من بقاءها روحاً وفكراً في جو الطفولة . وفي عزلتها العاطفية ، كانت تجد الهدوء ، والراحة ، ونوعاً من السعادة . وكانت تعلم ان هذه الحال لن تدوم ، لانها لم تكن تطبّق في حياتها مبادئ معينة ، فكانت برودتها عفوية خالية من التفكير . إلا انها لم تكن تشتهي تبدّل هذه الحال ، ولا تتصوّر كيف يكون التبدّل المنتظر . وكانت تقول : « لا يجوز لي ان انظّم حياتي لان التنظيم نذير شؤم » . وشعورها الوحيد لدى تفكيرها بالمستقبل كان الخوف ، الخوف من ان لا تكون سعيدة كما هي سعيدة الآن . وكانت « تخشى ان تمتدّ بالحيّة » على حد تعبيرها الباقي فيها من رواسب الطفولة .

هكذا كانت الآنسة دنديو تعيش عيشة هادئة ، باردة ، حاولتسا الاقتداء بها في حديثنا عنها لنظّل في جوها ومناخها . وقد فاتنا ان نذكر ان الآنسة دنديو كانت تعرف كيف تُسابن

---

١ - لما اخذ السيد دنديو الارنب المفضل لدى سولانج قال لها : « انك تحبين هذا الارنب ، ولكنك لا تخاطبينه مطلقاً » فاجابت : « اني اخاطبه في اعماق نفسي » . - المؤلف .

الدولة وهي في السادسة عشرة من العمر ، فتكون قد سبقت الرجل بعشرين عاماً ، لان الرجل لا ينضج ، ولا يدرك شيئاً من مبادئ سياسة الدولة إلا عندما يبلغ السادسة والثلاثين . ولما كانت مقترة الى الذكاء الكافي لاعتناق جميع العقائد السياسية معاً ، فقد اكتفت منها بواحدة ، فكانت يمينية بلا هوادة . حتى انها انضمت الى منظمة في أقصى اليمين ، وفكرت يوماً بالعمل في مشغلها ، ولكنها لم تفعل ذلك سوى مرتين . فلم يسر الاجتهاد من شيم اليمينيين المتطرفين امثالها . ولا نذكر اسم الحزب الذي انضمت الالسة دنديو اليه ، لانها استسلمت لرجل من اعضائه .



من  
الندريه هاكبو  
سان ليونار  
الى  
بيار كوستال  
باريس

٧ حزيران ١٩٢٧

عزيزي كوستال !

الاضاع الراهنة لم تبدل . الطقس حارّ ، ولا اجد في نفسي الشجاعة الكافية لأتحمل العذاب ، بل العذاب الشديد . اني شقية ، ولا ريب . ولكني افضل ان اشقى بسببك على ان ابذل جهدي لاغضب عليك . ليس شقائي من النوع الذي يمزق ، فهو خامد ، راكد ، لا يتغير ؛ انه حالة نفسية كالتي يعانها المبتلي بعد عملية جراحية ... انه نقاهة لا يبالي صاحبها بشيء ، كأنه أليعازر جديد خارج من هوة العدم ... وانه اخيراً نوع من عدم الاكثاثر والطبقة اللامتناهية نحو الجميع ، ولسان حال من يعانیه يقول : « ليفعل الناس ما يطيب لهم ، فكل شيء قد انتهى بالنسبة اليّ » . ولكن لا تحسب هذه الطيبة جودة او فضيلة ، لاني لم أعد احب الصراحة ، ولا اريد عمل الخير . فبفضلك ، انت ، غدوت شبيهة بك .

ما أغرب هذه الحال ! ولكن هذا هو الواقع ، ولا مناص من الاعتراف به . فقد يرضى المرء بالاختناق احياناً لانه يعطيه شعوراً بالراحة



لا يختلف كثيراً عن شعور من نجح ونال مأربه . لقد خطوت الخطوة الصعبة ، وقفزت من فوق العقبة ، وكنت 'شجاعة باسلة' .

لم انجح ، لانك رفضت اعطائي الشيء الوحيد الذي كنت اشتبه في العالم . فلا بأس ، فهناك شيء احرزته على الرغم من الاخفاق . والآن ، كل شيء يتقلص ويضمحل ... وبعد ، فما الفرق بين جسد تمتع ، وجسد لم يتمتع ؟

ما اروع التغلّي ! وما اعظم هدوء المرأة التي تخلّت ! ليتك تعلم سهولة باوغ هذه الحال على امرأة ظلت تتغلّي طيلة حياتها . انها تألف هذا الواقع الذي يستقر في اعماقها . كانت حيي لك منطقياً دائماً على التغلّي ، مبدئياً ؛ وكانت غلطتي الوحيدة اني حسبت هذا الحب المستحيل حباً بمكناً ، وحسبت العطف كافياً لخلق الشهوة في نفس الرجل ، واعتقدت انه يمكن بعث الحب في الانسان كما يمكن الحصول على الماء بفتح الحنفية . لقد كانت تضحيقي دائماً مبدولة مسبقاً . والألم الذي يفرضه المرء على نفسه يتكاد يكون متعة بالنسبة الى الألم الذي يفرضه عليه الآخرون . ثم اني استوليت على اشياء كثيرة منك ساعدتني على الاستمرار في التغلّي ، وان لم تكن قد تركت لي ذكريات تملأ نفسي . ولم تركتني مفتقرة الى هذه الذكريات !

اما الشهران من الحب الكامل ، الممتلئ ، الشهران اللذان طلبتهما اليك ، واللذان اشتبهتهما بخرارة ، فاه عرضتهما عليّ اليوم لساورني الخوف . لقد فضلت بكل حمية هيامي بك ان اخسرك « بعد » ، على ان اخسرك « قبل »<sup>١</sup> . وما انا اليوم خائفة . كنت احتاج الى حماستك واندفاعك ؛ اما الآن فلان ارضى بان يتحقق ما كنت اريد اذا اقدمت عليه وكأنك مسخر له .

صارحتني مرةً بقولك : « ان اعظم هبة يقدمها حبك لي هي ان لا

١ - تعني : بعد الوصال وقبله .

يعطيني ما لا أحب ولا اشتبه . ولكنني افكر احياناً بان ما يجذبني اليك هو شهوة جامعة مبعثها الهوس ، لا الحب العاطفي . كنت اعتبرك اداة لمتعتي ولسعادي . على ان الحب الحقيقي يقضي بان اسعى الى ما يسعدك انت ، لا الى ما يسعدني انا . فهو يقضي ، اذاً ، بان انخلي مختارة وبطيفة خاطر عما كنت اريد . لا شك في اني اسأت التصرف في حيي ، لاني لم اذعن راضية بالتضحية . ومن المحتمل ان يكون حبك لي افضل من حيي لك ، لاني ما احببتك في اعماقي حياً منزهاً . ولعل ما اقدمه لك الآن افضل ما اعطيك من نفسي . ولكنك لا تبالي بي ، ولا تحسب لي حساباً ...

وللمرة الاولى اقول لك : لا فائدة من الاجابة عن هذه الرسالة . فاذا احبت فستجرحني بعبقريتك في صياغة العبارات الساذية . اما في سكوتك فاستطيع ان اخلقك لنفسك من جديد ، وان اجدك كما احببتك ... كما احببت ان تكون . لك :

١ . هـ

اود ان اطرح عليك سؤالاً صعباً ، دقيقاً ، حساساً ، هو : ألم يخطر في بالك ، مرةً واحدةً ، انك تستطيع تخليد حيي بادخال بعض خطوطه ومزاياه في احد مؤلفاتك ؟ لا شيء من الغرور في هذه الرغبة . كل ما فيها الي أشعر بان عذابي لم يذهب سدىً اذا كانت هذه الفكرة قد مرت بذهنك .

( بقيت هذه الرسالة بلا جواب )

---

١ - لسبة الى المركز دي ساد ( ١٧٤٠ - ١٨١٤ ) مؤلف روايات ابطالها خالمر العذار يحدوث لنهم في تعذيب الاربام ، ومن اقواله : « امقت الطبيعة لاني اعرفها . ولما اطلعت على اسرارها الغظيمة بدأت اجد متعة خاصة في اقتباس فسادها ! » وكثيراً ما تستعمل هذه الكلمة للدلالة على الاضطراب الجنسي او على الشذوذه .

عندما كانت الآنسة دنديتو تأتي مساء الى مخدع كوستال ، في شارع « هنري مرتان » ، كانت تبادر فوراً الى اطفاء الكهرباء ، حتى أصبحت هذه البادرة عادة مألوفة في حياتها الجديدة . وكان كوستال يمرّ بها من ثيابها تدريجياً ، وعلى مهل ، وهي واقفة امامه كأنها طفلة صاغرة ، منحنية الجبين قليلاً ، تنظر اليه ، دون اقل خجل مصطنع ، بعينين زرقاوين مائلتين الى السواد ، في ظلام الغرفة ، كأنها شربت من حلقة الليل . لذلك غدت تلك الليلة صافية مشرقة فوق العالم .

وكان يراها بين يديه نصف عارية فيكشف فيها فتاة جديدة ، ويقول لها :

— يا ابنتي الصغيرة ، أهذه انت ؟

وأحياناً كانت تجيب : « نعم » ، كأن سؤاله من الاسئلة التي تتطلب جواباً معيناً . وكانت تقول هذه الـ « نعم » بصوتها الليلي ، صوت المداعبة والوصال ، ذلك الصوت المتغير تغيراً عجيباً مذهلاً في ليل الحب والعطاء ، فاذا به عميق ، رقيق ، كصوت المحتضرين . انه صوتها وهي طفلة ، وصوتها وهي امرأة خلقت من جديد ، وصوتها وهي امرأة تموت .

والآن ، ها هو يدور حولها مرتمشاً كأنه يريد ان يطوّقها ، وهي جامدة في مكانها ، لا تفوه بكلمة ، انما تدير رأسها قليلاً لترافقه بعينها المفتوحتين على مدى اتساعهما ، بدون ان يطرف لهما جفن ، كالأفعى الهندية المنتصبّة امام ساحرها ، تلاحق وجهه بنظرها كيفما تحرك .

وكان يتحرك في جو من الرحابة والارتياح كأن سلطانه المطلق على الفتاة جعل الهواء حوله طرياً قابل الاتساع . وراح يقبلها هنا ، ويقبلها هناك ، عملاً بفكرة تخطر في باله ، او دون فكرة . ثم ينظر الى هنا ، وينظر الى هناك ، وهي كالسحورة تكشف عن المكان الذي يشير اليه بعينيها .

وها هي عارية تماماً ، وطاهرة كأنها ولدت من ابتسامة . وها هو ما يزال يطوقها بدورانه حولها . ساقاها دافئتان ، لها رائحة الحلوى الخارجة من الفرن ، رسم زناورها على خصرها خطاً احمر ، حتى ليخيل الى الناظر انها جُلدت .

انزع من رأسها دبرسين دقيقين ، وهما الوحيدان اللذان استطاع ان يقع عليهما لأنه ابله . فانزعجت هي الدبابيس الاخرى ، وقدمتها له واحداً بعد الآخر . ولم يتغير عددها في مختلف الزيارات التي قامت بها الى مخدع . كوستال .

وانحدر شعرها على كتفيها ، وعلى نهديها ، بتموجاته الشبيهة بكثبان الرمل على الشاطئ ، فاذا بها تعود الى طفولتها اكثر منها في اي وقت آخر . وفي بعض الاحيان كانت تصل الى المخدع وشعرها ما يزال ندياً كالغابة بعد المطر ، لانها كانت في المسيح منذ قليل . فيأخذه كوستال بين يديه ، ويلثم اطرافه ، فيحس انها في هذه الحصل من الشعر ، ولكنها ليست كلها فيها كأن شعرها هذا شيء غريب عنها ، كنه لا يعرف ، في نهاية مجراه ، يلبوعه الجبلي البعيد .

وكان يصعد من اطراف شعرها حتى يصل اليها ، والى رائحة الطفولة في رأسها الدافئ . ثم يعود الى وجهها ، فيجد فيه صديقاً قديماً ، ويتفتش رائحة البودرة التي كان قد نسيها ، فيلف الشعر حول عنقها ، ويرسله على فمها ، ثم يبحث بشفتيه ، من خلال الحصل ، عن شفتيها . ويعمد الى اللهو ، فيجعل من شعرها شاربين ، ثم لحية ، فتبدو كأنها تلميذة في « سان سير »

تمثل دور احشوريش ' . ها هي عارية تماماً بالقرب من النافذة ، وتكاد تكون على الشرفة . نهبا ، فما حفلت ، ولا تحركت ، كأنها دخلت حلقة مسحورة اذ اجتازت عتبة مخدعه .

ولما تمددت على السرير ، لم تبدُ مختلفة عما كانت عليه في المرة الاولى .  
فها هي كلها : بريئة ، هادئة ، شبيبة في بساطتها بعزة صغيرة في قطيع .  
وكانت في اغلب الاحيان تغمض عينيها . اما اذا فتحتها ، واطل اشراقها بما فيه من الانعكاسات الخالكة السواد ، فانها تبعث ليلاً ونهاراً متعاقبين ومتداخلين . وفي هذه الاثناء كانت تنظر اليه بدهشة ووجهها يناد يلتصق بوجهه ، فتبدو عيناها وكأن فيها حوّل ، ثم قبله قبلة قصيرة سريعة ، كأنها تختلس منه متعتها اختلاساً . وكانت قبلتها تتوالى ثلاثاً ، او اربعاً ، او خمساً ، كأنها مجموعات من النجوم تستقل كل منها عن اخواتها ... ثم تأتي القبلة المفاجئة ، العنيفة ، ككرة القدم تصيب المرمى ، او كالصاعقة عندما تنقضّ .

لا تتكلم الا بكلمات قصيرة ، متقطعة ، وإلا اذا كان هو البادئ في غفلة ليلتها . وفي سكون تام لا يسمع فيه سوى دقات الساعة ، او انزلاق منشفة تقع في المغسل ، سألتها :

هم تفكرين ؟

... باني على ما يرام !

١ في القرن السابع عشر انشيء معهد « سان سير » على مقربة من باريس . لثلاثة القديسات الأروستقراطيات بإدارة السيدة دي برينون ورعاية السيدة دي مانتنون محظية الملك لويس الرابع عشر ثم زوجته السريسة . وكانت مدام دي برينون تدعى الشعر ، فراحات مؤلف المسرحيات لتلميذاتها . ولكن السيدة مانتنون لمست ما في هذه المسرحيات من ثقافة وسخف ، فطلبت الى الشاعر الكبير جان راسين ان يضع لتلميذات المعهد تمثيليتين . فوضع « استير » و « عتليا » ، ومثلت اللقيطات ادوار الرجال فيها ، ومنها دور احشوريش في « استير » ، وهذا ما لزمه به المؤلف في هذا التشبيه .

— ما اكتر ما تحبين السكوت !

— عندما اكون مفتبطة ، لا أتكلم .

يا لها من طفلة !

« عندما اكون مفتبطة » ... ماذا ؟ ان اندريه كتبت اليه هذه العبارة فلم يمرها انتباهاً ، ولم يسجلها بين حسناتها ، لانه لا يحبها .

وعاد الى سولانج يداعبها ، فقال :

— اريد ان اندير الكهرباء .

فاطلقت صيحتها المألوفة : « لا لا لا » بقوة لم يمهدها فيها من قبل .  
فقال :

— ولم « لا » ؟ أنكون تحت رحمة الحياء ؟

لم تعجبه هذه الحال ، وخیل اليه ان من يداعب امرأة في الظلام كن يدخن في الظلام ، فالوداع ايها الذوق !

وبعد قليل سألها من جديد :

— ما رأيك في اثاره الكهرباء ؟

فاجابت :

— لا شيء ...

يا لها من طفلة !

وكانت تتكلم بصوتها الليلي ، وفيه جميع نبرات الطفولة ، كأنه خارج من قبر عميق ، ناهيك بذلك الصوت الآخر الذي ترتديه كلماتها عندما تكون في وضع « افقي » كالدمى التي تخفض جفونها آلياً اذ تلقى على ظهرها .

وفي احدى تلك الامسيات ، نظم لها كوستال الابيات التالية :

با انك تحبينني ، وبما اني احبك ،

ربما اننا هكذا على ما يرام ،

وبما اني انت حين اكون بقريك ،

وبما ان كليتنا مكتنف بهذا الغرام ،  
فاتركي على قلبي ، يا ابنتي الحبيبة ،  
- اذا كنت لا تحشين آثار الرؤوس الماضية -  
هذا الشعر الخالي من الرائحة ،  
وهاتين العينين الطويلتين ،  
كأنهما عينا بهيمة ،  
وهما ارحب اتساعاً ، واحلك سواداً ،  
لأنها شربت من الليل ا

واستمرت الحال هكذا طويلاً ، ولكننا نكتفي بهذه الابيات ونصرف  
ال نظر عن سواها ، لأنها لا تساوي حبات ارنب .  
وكان كوستال يتعمد الامعان في الملاطفة بتعابير ، فينتقي الألفاظ  
ال رقيقة ليتوَّج محبته بهالة من الرونق والرواء ، ويقول لسولانج احياناً :  
« يا حبيبي الصغيرة » ، في حالات لا تستوجب التظاهر بهذا الهيام ، ولا  
ينطلق فيها الكلام العاطفي عفواً صافياً . وفي احيان اخرى كان يضمها  
الى صدره بقوة تفوق رغبته الحقيقية واندفاعه الطبيعي ، لعله بان النساء  
يعتقدن ان الرجل يبدأ يعرض عنهن اذا لم يحبهن اكثر فاكثر . وبما  
ان الرجل مغلوقة فقير بالحب ، فقد حرص كوستال على التظاهر باكثر  
مما فيه من الهيام كي لا تصاب عشيقاته بخيبة .  
وكان يتوق حيناً بحرارة وقوة الى ان يكون هو الرجل الذي  
يكشف لسولانج عن حقيقة نفسها ، وحيناً آخر كان هذا التوق يخمد  
كلياً في نفسه ، فيفضل ان يتركها على حالها .

ولم يكن قد امتلكها ، بعد ، إلا جزئياً ، لأنه اراد ان يترك أمامه  
شيئاً مجحولاً ليتخيل ما سيكون ، كراكب السفينة ينظر دائماً الى افق  
البحر حيث يأمل ان تطل عليه الارض الجديدة . وكان يتوقف بمداعبته  
في النقطة الحساسة التي يعلم انه اذا تجاوزها اوجع الفتاة ، ككلب

يلعب رفيقه ، فيعصفه برفق ، ويحرص على ان لا يتهادى في المهارشة .  
ولكن قبلاتها كانت ضارية لا تعرف هودة حتى جرح طرف لسانه ،  
فاضطر الى الامتناع عن التدخين .

وكان يراها عارية كلياً ، فيخشى ان تبرد ، ويود لو يضغط بجانب  
من متمته لكي تتدثر ببعض ثيابها . ولكنه لا يكاد يعرب لها عن  
تخوفه ، حتى تجيبه بشيء من العتب واللام :  
... انك تعاملني كأني طفلة .

فيقول لها :

... المرأة طفلة دائماً في نظر من يحبها .

وفي اغلب الاحيان كان ينهبها الى الساعة لتعلم انه لا يجوز لها  
التأخر خارج البيت ، فتتظاهر بانها لم تسمعه ، فيقيمان جنباً الى جنب  
حتى يبلغ الليل ساعة نزول القطط الى الشارع ، وانصرافها الى لحس  
قوائمها وغسل وجوها على قارعة الطريق الخالية من المارة .

وكانت الساعة الكبيرة تدق وتجاوب دقاتها تجاوب صياح الديكة ،  
فيبرد الى ذهنه انه ان لم يقل لها : « يا صغيرتي ، ازفت ساعة انصرافك » ،  
تبقى الى جانبه طيلة الليل ، كأن اباهاً وامها قد زالا من الوجود . ومنذ  
عرفها وتوثقت علاقته بها ، لم تحاول ان تأخذ المبادرة مرة واحدة .  
فكان يتدح فيها هذه المزية ، ويقول لها : « اني امقت النساء حين  
تكون هن ارادة شخصية » ، وارى انك خلقت منذ الازل لتكوني لي » .  
ولكنه لو أخذ بعين الاعتبار ما ذهب اليه « شوينهاور »<sup>١</sup> من ان  
هناك علاقة وثيقة بين الارادة والميل الجنسي ، لاعتقد انه ليس من  
الحيف ان تريد سولانج اكثر مما كانت تريد ...

وها هي الآن تذهب تلقائياً الى المغسل كهرة صغيرة روضها اصحابها

---

١ - فيلسوف الماني ( ١٧٨٨ - ١٨٦٠ ) اشتهر بالشاوم ، واسس فلسفته على التناقض  
الغائم بين الارادة والصور .



ولقنوها عادات حسنة ، بينما انصرف هو الى تنظيف كنف سترته بالفرشاة مما علق فيها من البودرة التي كانت على وجه سولانج ، فانتقلت لترسم على كتفه خطاً مبيضاً شبيهاً بخط المجرّة في الليالي الحالكة السواد . وبعد قليل ، كانت الى جانبه في الشارع ، تضرب الارض بقدميها وتسير بخطى قصيرة كخطوات البغال .

ما الذي جرى ؟ هل جرى شيء يستحق الذكر ؟ ها هي كما كانت تماماً لما جاءت منذ حين . ولكنها اصبحت امرأة ، امرأة بكل معنى الكلمة وبكل ما في الانوثة من قوة ، وهي التي كانت طفلة وتلميذة مدرسة منذ قليل . اجل ، كانت تبدو نقية ملء العين ، فلم تمد نقية ... وكانت تبدو ايضاً كأنها فتاة مهيبة حسنة التربية .

وكان يعلم انها لا تصارع اباه وامها بسبب غيابها ليلاً عن البيت ، فيسره التفكير بانها تلجأ الى الكذب ، ويقول في نفسه : « هكذا يظل الجهال مفتوحاً للظنون والتكهنات » . ويرى ان كذبها يساعدها على الانسجام والحياة الاجتماعية .

وكانا يسيران احساناً وكل منهما ممسك بيد الآخر ، كولين ارسلمها ذروهما ليلعبا في الحديقة بكل تهذيب ، او كاثنين من رجال الدرك التولسين .

وفي ذلك الحين ، كان قد صدر احد كتبه ، فانها لت عليه الرسائل ومقالات التقريظ ، فاتخذ كلمة غوينو « شعاعاً له بعد ان حوّرهما ، وراح يقول : « الحب اولاً ، ثم العمل ، ثم لا شيء » . ولكن العمل هو الانتاج الادبي بحد ذاته ، وليس هو علاقة هذا الانتاج بمهاير القراء .

---

١ - كالب رديبولماسي فرلسي ( ١٨١٦ - ١٨٨٢ ) وضع لنفسه شعاراً هو : « العمل اولاً ، ثم الحب ، ثم لا شيء » . ام مؤلفاته : « معارلة في درس التفات بين مختلف السلالات والاعراق البشرية » ، وقد كانت هذه الدراسة من ام المستندات التي اوتكرزت عليها عقيدة النازيين المنصرية .

كان كوستال قليل الاكذات بهذه العلاقة ، يقرأ بسرعة الرسائل التي يتلقاها ، والمقالات التي تكتب فيه دون ان يعلق عليها اقل امية . فالتقريط في نظره كالوسيقى التي تصحب عرض الافلام السينائية الصامتة . كان يفكر بأنه لا بد من ان تكون هناك قطع موسيقية جيدة وسائغة ، ولكنه لم يكن يسمعها .



قال لها :

ألا تعتقدين انه يجب ان ترني الاشياء كما هي ؟ زعم ميشليه<sup>١</sup> ان الحبيب الذي يحافظ على رباطة جأشه ليميز الصدق من الكذب في الاقوال الممسولة التي يقولها له من يحبه ، يشعر بالصغارة والذل .

هذه حماقة لا يستغرب صدورها عن ابناء القرن التاسع عشر الأرعن . ليس من الذل ان يحافظ المرء على رباطة جأشه . ومن المجد العظيم ان يرى الانسان الاشياء كما هي بكل حقيقتها . والحقيقة ، في ما يتعلق بنا ، هي افي غير مغرم بك . لك في نفسي عطف يمازجه حنان وتقدير واحترام من جهة ، ورغبة شوانية من جهة اخرى . ولكن هذا كله ليس حباً غرامياً ، والحمد لله . اما هو شيء اسميه طريقي في الحياة ، الطريقة التي اكون فيها كما « انا » بكل حقيقتي ، وهي شيء في منتهى الجودة . وهذا وحده يكفي لاقتناعك بان ما لك في نفسي ليس غراماً . فالرجل يحب المرأة حب صداقة « لأن ... » ، ولكنه يحبها حباً غرامياً « على الرغم من ان ... »<sup>٢</sup> ، والفرق بين الحبين واضح . وقد جعلتني

١ - اديب ومؤرخ فرنسي ( ١٧٩٨ - ١٨٧٤ ) اشتهر بالتلنراب في آرائه التحررية . من مؤلفاته : « تاريخ فرنسا » ، و « تاريخ الثورة الفرنسية » . ملحمي النفس في كتاباته ، حتى انه شغل احبانا عن التقيد بالحقائق التاريخية . ومن مؤلفاته الادبية « الجبل » و « الطير » ، وهي غنية بالاسماء والألوان والنغم ، وقد اصبحت منبلاً لبعض الشعراء الرومنطيين .

٢ - يعني ان حب الصداقة ينجم عن مغربات مشجعة . بينما الحب الغرامي يستمر على الرغم من العقبات والمزعجات ، لانه اقوى ، وارسخ جديراً في النفس .

التجارب اعتقد ان طريقي تعجب النساء ، لانهن - على ما رأيت - اشد حاجة الى العطف والحنان منهن الى الغرام . وانت ايضا لست مغرمة بي . أفليست هذه هي الحقيقة ؟

فحرّكت رأسها يميناً ويساراً وهي ترفع كتفها قليلاً ، وعلى وجهها ابتسامة تعبّر عن اللهو والعبث ، فكانت حركاتها مفعمة بالرونق والفتنة ، كحركات القسم الاكبر من فتيات المجتمع اليسور ، ثم قالت :

... لا ، لا اعتقد ان هذه هي الحقيقة بكل دقة ... اعني اني لا احبك حباً عارظياً .

قال بلهجة الواثق بنفسه :

... هناك دليل كبير على انك غير مغرمة بي ، وهو انك لا تسألين مطلقاً عن حياتي الخاصة ، ولا يحمّر وجهك عندما يتحدثك ذؤوك عني ، ولم تبغضي قط عن اسمي في لوائح الشخصيات الباريسية ، ولم تأتِ الى شارع « هنري سرتان » في الايام الاولى من حبنا لتعرفي اين يقع منزلي ، ولم يخطر في بالك مرة ان تكتبي اسمي على ورقة عفوية ودون تفكير . وكان يسرد هذه الأدلة بصيغة السؤال ، فحرّكت رأسها سلباً للموافقة على ما يقول ، وعلى وجهها تلك الابتسامة اللاهية العابثة . لقد نامت مرةً وأحدت مؤلفات كوستال في يدها ، تحت اللحاف . وكان ذلك بعد ان قبلها للمرة الاولى . ولكن هذه الحماسة كانت في البداية ، لأن طبيعة سولانج فوجئت فاحترفت قليلاً عن مجراها العادي ، اما الآن فليس من المحتمل ان تعود الى مثل هذا التصرف الصياني .

واستأنف كوستال حديثه المحشو بالاسئلة ، قال :

... أصبح ان الفضول لم يدفعك الى البحث عن موقع بيتي قبل ان ادلك عليه ، وقبل ان آتي بك اليه ؟

ولما حرّكت رأسها سلباً ، استنتج قائلاً :

... اذاً ، فالامر واضح : ما كنت قط مغرمة بي . وحسناً فعلت ، فهكذا

اريدك : فتاة 'محبة' ، لا مغرمة . لا اريد ان يكون حبك لي هياماً مهووساً ، لأن مثل هذا الهيام يورثك آلاماً ، فنقع في حال مؤسفة هي عكس ما اودّ ، لاني لا اريد لك إلا الخير . يجب علينا ، يا عزيزتي ، ان نعالج هذه الحال . واستطيع القول اني خبير حاذق في هذا المجال ، ولكن يجب ان تجدي في طريقي بعض المتعة على الأقل . فالعذاب شيء سخيّف دائماً ، ولا يرضى به سوى الأبله . ان الزعماء الذين اوهوا جماهير الشعب بان العذاب عملٌ بطولي عظيم ليخدموا سياستهم ، والكتّاب الذين اقتنعوا بهذا الوهم وعظموه لانهم اغبياء ، انما ارتكبوا جريمة قضيعة لا تفتقر . في نهاية رسالتك الاولى ، الحبيبة قليلاً ، اعربت لي عن « مودّتك الرقيقة » . ولا ادري هل وردت هذه العبارة في رسالتك دون تفكير كالعبارات التقليدية التي لا تعني ، في الرسائل ، سوى الجمالة ، ام قمّنت فيها وادركت مدلولها ؟ فاذا كنت كتبتها للتعبير عن حقيقة شعورك نحوّي ، فهذا شيء خطير ، لانها تعبر كذلك عن شعوري نحوك وعن الشعور الذي انتظره منك نحوّي .

اجابت :

. كتبتُ هذه العبارة لاني رأيت انها تعبر عن شعوري .  
.. اذاً ، فكل شيء على ما يرام يا عزيزتي . واعتقد اننا سنفهم تفاهماً تاماً .

وعلى الرغم من هذا التفاؤل ، سألها بعد قليل :  
.. ألا تودين ان تذهبي قليلاً الى بيتي هذا المساء ؟

فاجابت :

— ليس هذا المساء ... افضل ، اذا سمحت ، ان نباعد قليلاً بين مواعيدنا ...

وبعد سكوت قصير استطردت قائلة :

.. عندما اجيء الى بيتك ، احسن انك ابعد عني بعد لقائنا منك

قبله ...

لم يرد على هذه الوخزة برغم خيبته . وكنا يجتازان ساحة « الكونكورده » ، فراح ييدي ملاحظات على لون السماء في تلك الفترة من الغسق . إلا ان الغيظ كان يعتلج في اعماقه ويزداد احتداماً ، ليس لأن غرور الذكر اصيب فيه بصدمة قاسية ، بل لانه رأى ان سولانج أغلقت باب المستقبل ، فكيف يستطيع مداعبتها بعد اليوم ؟

وساد بينها الصمت هنيهة ، ثم سألها :

— أتريدان ان اعود بك الى منزلك ، ام تفضلين ان نذهب الى مكان ما لتمضية بعض الوقت ؟

وكان هذا السؤال قاسياً رهيباً ... فقد سئالف عاداته واقترح عليها ، للمرة الاولى ، ان يفرقا بأكراً ، لانه اعتبر امتناعها عن المجيء الى مخدعه تطاولاً على حقوقه .

أجل ، كان سؤالاً رهيباً بالنسبة الى فتاة أنوف كالالسة دنديو ، ورهيباً ايضاً بالنسبة الى كوستال . وكان يتوقع ان تجيبه : « اعدني الى منزلي » . أتراها لم تدرك انها افسدت جو ذلك المساء ، وجعلت رفقتها فيه لا تطاق ؟ ولكنه 'دهش عندما اجابت : « لنذهب الى مكان ما » . وتبادر الى ذهنه انها غير مرهفة الاحساس ، وتحتاج الى مزيد من الذوق .

والسينما هي الملجأ الاخير في مثل هذه الحال لابناء القرن العشرين . فاذا كانت هناك نيات سافلة بين رجل وامرأة ، فان مطافها ينتهي دائماً الى احدى القاعات المظلمة .

ودخلا احدى قاعات حي « الانفاليد » ، فراححت سولانج تبذل جهودها لتقطع الصمت الثقيل الخيم عليها . الا انها تحدثت عن اشياء تافهة ، بينما لزم كوستال الصمت التام ، كأن اعصاب لسانه تقطعت فاصبح عاجزاً عن التفوه بكلمة . وكان مقتنعاً بانها لن يلتقيا بعد ذلك اليوم ابداً . لا ، لم تجرؤ امرأة قط على مخاطبة خليلها بتثل الكلام المذل الذي

وجهته اليه سولانج... كان يعتقد ان مداعباته لها تزيدهما تقارباً ، وثوّقت عرى علاقتها ، فاذا بالفتاة تصارحه بان هذه المداعبات تبعدها عنه . وغلى الدم في عروقه حتى اصبح يودّ لو يجرحها ، فقال في نفسه : « يجب ان تعلم كيف اضرب وأوجع اذا مسّ شعوري » .

واستغرق عرض الفيلم ساعتين ونصف الساعة ، فما فتح كوستال فده طيلة هذه المدة . وكان الحر شديداً فجعلت سولانج تمسح العرق المتسبب على جبينها وانفها بحرماتها الصغيرة الصغيرة كمحارم الاطفال . وقد تكون مسحت بها عينها ايضاً ، فخيّل الى كوستال انها تودّ لو تبكي . ولاحظ انها وضعت يدها على مسند مقدمها من ناحيته ، فظن انها تدعوه الى أخذ هذه اليد بين يديه ، ولكنه حرص على ان لا يفعل . ومرة او مرتين ، ادارت وجهها اليه دون ان تتكلم ، كأنها تطلب اليه ان يقبلها . ولكنه بقدر ما كانت يأس ما في موقفه من الحسارة ، والفلاطلة ، والمسكنة ، والسخافة ، كان يثبث بهذا الموقف ، ويأبى ان يبعد عنه . وفي فترات الاستراحة كان يقرأ على وجوه بعض النظارة رأيهم فيه ، فاحس انهم يقولون في نفوسهم : « يا لها من صغيرة فاتنة ! وتباً له من عليج يماندها ويُعرض عنها !... أليس من الغبن ان تكون هذه اللؤلؤة مع هذا الخنزير ؟ » وأشد ما آلمه في هذه الازمة انها شبيهة بالخلافات الزوجية .

واخيراً انتهت ذلك العذاب المرير ، فخرجوا من قاعة السينما وهما صامتان . فاقدت سولانج على بادرة لم تجرؤ على مثلها من قبل ، فتأبطت ذراع كوستال ، فتأثر ، فكان الفتاة قالت له بهذه البادرة وبكل ما فيها من سذاجة الطفولة وبرامتها : « عد اليّ ! ألا ترى اني غير نائمة عليك ؟ » ولكنه وجد في هذه البادرة وسيلة جديدة لتعذيب سولانج بالرغم من تأثره العميق ، اذ يكفي ان لا يبالي بها ولا يتجاوب معها ليجرحها ويوجعها .

ولما وصلا الى شارع « فيلياه » ومرا بالقرب من بيته : وثابتت سولانج سيرها دون ان تتوقف لحظة واحدة ، انفجر غيظه ، وقال لها بصوت يهتج الغضب :

— جرحتي جرحاً بليغاً ، قلت لي افطع ما تستطيع امرأة ان تقوله لرجل ، فعدوتُ عاجزاً عن ملاستك ، عن مد يدي اليك ، وسأظل اعتقد انك لم تتساهلي معي الا على سبيل المجاملة ، بينما انت تعانين القرف والسأم في اعماق نفسك .

... ما هذا القول ؟ ا انت تعلم جيداً ان ...

.. لعنة الشيطان على جميع الفتيات ا على الفرنسيات الصغيرات الناعمات الباردات اللواتي لا يكتشفن المتعة الا في السادسة والمشرين من العمر ، ما العمل لتكون الفتاة راضية ؟ لم يجد الانسان بعد غير هذه المداعبات ، فهي الوسيلة الوحيدة التي يعبر بها الرجل للمرأة عن محبته لها ورغبته فيها ، لا ، ان هذه الحال لا تطاق . لن استطيع مداعبتك بعد اليوم . واذا شئت ان نعيش كأخ . واخته ، فاقول لك بصراحة : لست بالرجل الصالح للقيام بهذه المهمة . سامنتي نفسك ، وها انت تستعدينها . ولكنك سامنتي نفسك ، وهذا ما لا يزول مذاقه من نفسي . فتحت امامي باب غرفة مليئة بالموسيقى ، ثم اغلقتها ...

وكانت تستمع اليه ، وها يسيران ، دون ان تقول كلمة ، فدارا ثلاث مرات حول كتلة الأبنية التي يقع فيها منزل كوستال . وبعد صمت قصير استطرد قائلاً :

— وبعد ، فكيف اجروا على مخاطبتك بعد اليوم ؟ اي امية يمكن ان تملقي على ما ا قوله لك ؟ قلت لك عشرين مرة : « كوفي صريحة معي قبل كل شيء » . ولما عمدت الى الصراحة حطمت كل شيء . لقد حلت بك العقوبة لانك كنت كما طلبت اليك ان تكوني . وها انا لا استطيع ان اعمل معك شيئاً ، ولا ان اخاطبك . لست مذنب في شيء . كل ما



في الامر ان هناك اختلافاً بين طبعك وطبعي . واني اردّ مؤكداً لك ان هذه الحال لا تطاق .

ووصلنا مرة اخرى الى قرب منزله . ولولم يتوقف هو واصلت هي السير ... فد اليها يده قائلاً :

— بما اننا سنلتقي غداً في حفلة « هوتسكور » فمن الحتم علينا ان نتحدث من جديد ، ولكني اصرحك بان كل شيء قد انتهى بيننا .

ورآها تنظر اليه بعينها الجليتين ، وقد ملأتهما الدهشة ، والكآبة ، والتوييح ، كعيني كلبه تنظر الى صاحبها الجلف الذي ضربها دون سبب . وممرت سيارة تكسي ، فاوقفها . وكان صوته مخنوقاً في صدره ، حتى انه اضطر الى ترديد عنوان منزله مرات عديدة ليفهمه السائق .

ووجد في غرفته سريره مرتباً ، والى جانبها اضمومة الازهار التي كان قد اعدّها لسولانج ، فانطرح على الفراش وهو يتألم في كل ذرة من روحه وجسده ؛ يتألم بالألم الذي يسببه لها وهو يحبها ؛ يتألم لانه يؤلمها انتقاماً من صراحتها ؛ يتألم لحرمان نفسه ايها جسدياً ؛ يتألم بألمه من حرمان نفسه جنسياً ، مع انها لم تكن تعطيه جسدياً الا متعة ضئيلة ؛ يتألم لان ألمه ناشب في اغلظ نواحي رجولته ، في كبريائه الجنسية ؛ يتألم لان هذا الألم فيه ألم الذكورة السخيف ؛ واخيراً ، يتألم من شدة الحرارة التي كانت في غرفته ٢٧ درجة مئوية . ومن حين الى آخر ، كانت تسقط وريقة من تويج احدى الازهار كأنها دقة ساعة ، فيخيل اليه انه يشم رائحة سولانج ، هذه الرائحة الحميمة التي استقرت فيه كالسواس ، وراحت تزيد لوعته احتداماً ، وتطوف في جو الغرفة كذرات الغبار التي يحملها الهواء في فصل الصيف .

وخطر في باله ان يأكل ، فجاء بدجاجة مشوية من المطبخ ، والتمها . فهذا ألمه . ثم احس بشيء من السرور لانه تألم . من المفيد ان تكون لدى الانسان معلومات عن كل شيء .

وفي الليل ، رأى بالحلم مربيته الانكليزية عندما كان صبياً ، ولم يكن قد حلم بها قط في حياته ، فتعذر عليه ان يحذر لهذا الحلم تفسيراً . ففكر بهذه المرأة ، فجاءته ذكرى عجيبة : تذكر ما كان يستولي عليه من الرعب لما كان يستيقظ من نومه باكراً ويتصور من المحتمل ان تكون المربية قد ذهبت ، ولن تعود . فينهض من سريره ، ويسير حافياً حتى يصل الى غرفة المربية . فيرى ثيابها ومختلف اشياء مرتبة على احسن ما يرام ، ويعلم انها ذهبت الى الكنيسة ، على عادتها كل يوم ، لتحضر القداس . ولكن هذه الحقيقة الراهنة التي لا تقبل الجدل لم تكن كافية لطمأنته ، فكان يسير على رؤوس اصابع قدميه حتى يصل الى اعلى السلم ، ويجلس خافق القلب بانتظار صرير مفتاح المربية في قفل الباب الخارجي ، عندما تعود من القداس . فقد كان يعلم في قرارة نفسه انها في الكنيسة ، فلا يكاد يسمع صرير المفتاح ، حتى يسرع الى سريره ويستلقي متظاهراً بالنوم .

لو كان يضرر لمربيته المعجوز شيئاً من ذلك الحب الغريب الذي يكنه الاولاد عادة لمربياتهم - وكان آنذاك بين السادسة والسابعة من العمر لسهل تفسير قلقه وتخوفه من غيابها الى هذا الحد . ولكن وجه الغرابية في الامر انه لم يكن يحبها ، بل كانت يضررها العدا ، لانها كانت تضربه بالسطرة على اصابعه اذ يخطئ في عزف امثوله على البيانو ، وتدعه احياناً يبكي نصف ساعة امام مسألة حسابية يعجز عن حلها ، دون ان تقول له كلمة تساعد على حلها . وكانت تتنازع حبات الزبيب من كمكة عصرورنيته بحجة انها تؤذيه ، ولكن الحقيقة انها كانت تحب حبات الزبيب وتلتهمها بسرور . وكانت محبته لها زهيدة حتى انها لما تقاعدت عن العمل بقيت في باريس ، فما كلف نفسه مرة واحدة عشاء زيارتها . لقد بحث طويلاً في حنايا نفسه ، فما وجد فيها لهذه المربية سوى اللامبالاة وشيئاً من الثقمة ، ولكنه وجد فوق هذه اللامبالاة نقاطاً مبعثرة

من اندفاعه المجنون الذي تفوح منه رائحة الهيام ، ومن قلقه الشبيه بقلق العاشق الصغير الشارد اللب في البيت الكبير الراقء ، الساعة السادسة والنصف صباحاً ...

وساءل كوستال نفسه أيجب سولانج ؟

وفي اليوم التالي كانت الحفلة الراقصة عند « هوكور » . فبضعة اجساد نساء تكفي لتجّاح الحفلة . وما قيمة المجتمع دون هذه الاجساد ؟ لو خلا منها لتركناه يفوص في اللجة ويندثر .

وصل الى الحفلة بعدها بقليل ، فراح يراقبها بنظره دون ان يدعها تراه . وكان يود لو تبدي احتقارها ، بشيء من التحفظ الذي يفرضه التهذيب ، لجميع اولئك الناس الذين كانوا حولها . ولكنها كانت تبسو مسرورة ، مريحة مع الجميع . أفتكون من نوعهم ؟

رقصت ثلاث مرات مع شاب متأنق تافه ، فجعل كوستال يقول في نفسه : « اذا ذهبت معه وجلسا في مكان ما وراء المقصف ، او على احدى درجات السلم ، فسأشعر بان دمي قد غادر وجهي ، وغادر ساقي ، كأنه يجري تحت ارض القاعة » . واحس بالفعل ان دمه بدأ يغادر وجهه وساقيه ، فكان ما خشيته قد حدث .

مشى اليها وفي وجهه دمامة غير منتظرة ، دمامة زوج غيور ، فالتقته وقد تغير فيها كل شيء ، وبدا وجهها مشرقاً ، وعيناها متألفتين بالمطف والحنان ، كأن شيئاً لم يحدث امس . فكان لهذه الثقة فعل السحر في نفسه .

رقصا معاً ، وكوستال يخاطب نفسه قائلاً : « هل تُقدّر لي ان اكون الذكر القبيح الى النهاية ؟ كنت امس شريعاً ظالماً لأنني تأملت في كبريائي الجنسية ، وغدأ سأكون دنيئاً بعودتي الى مداعبتها مع علمي بانها تحتملني على سبيل المجاملة . هذا الجسد الذي اضمه الآن بين ذراعي امام مائتي نسمة قد ألقيت رأسي على بطنه العاري . فما اعذب هذا الشعور !

وبدنا كان نخدي على هذا البطن ، سمعت قرقرة الامعاء كصوت الجليد وهو يذوب ... وبعد ، فليعلم الجميع انها لي ! »  
وأراهم بالفعل انها له . ففي نهاية احدى الرقصات ، وقعت حادثة مذهلة ، اذ جلس دوستال الى جانب سولانج ، ووضع يده على فخذه من فوق الثياب كما يضع الأسد قائمته على قطعة من اللحم استولى عليها . لم يفعل ذلك وهو في احدى الزوايا وعلى حدة ، بل في وسط القاعة ، بين مائتي نسمة . ولم يقتصر هذا الاستيلاء على ثوان ، بل استمر طويلا ، حوالى نصف الدقيقة . ولم يكن ذلك في محيط مشبوه ، او على جانب زهيد من التقدم والرقى ، بل في مجتمع جميع افراده من الطبقة الارستقراطية الرصينة ... فما اقبح ان يدعو الناس الى حفلاتهم اناسا يعيشون في الخيال الشعري !  
وادرك كوستال ما في عمله من « العظمة » ، ولا شيء من الفجور . فهو عمل الزوج ، عمل السيد منذ أقدم المصور ، عمل القرد مع قردته . انه عبقرية « الزوج » المتآلف مع انثاه .  
وادرك ايضا ما في قبول سولانج بهذه الحركة من « العظمة » ، وهي الفتاة المتحفظة ، البسيطة ، الهادئة . لم يبد منها اقل ردة ، ولم تحاول الدفاع عن نفسها في وسط ذلك الجمهور ، كأنها لا تسالي باحد ... بل كأنها مسرورة بان « تدمنغ على هذه الطريقة المبتكرة المدهشة ، امسام الجميع ، ليعلم الناس من هي بالنسبة الى الرجل الذي اختارته .  
ولما رفع يده عنها ، كانت قد نشأت بينها علاقة جديدة . وبقيت يده موضوعة عليها دون ان يراها احد . وفي ذلك المساء جاءت الى مخدعه ، على عادتها ، في الوقت المعين .

من  
اندرينه هاجو  
سان ليونار  
الى  
بيار كوستال  
باريس

١٥ حزيران ١٩٢٧

الرجاء ان تقرأ هذه الرسالة بكاملها .  
عزيزي كوستال !  
اني بعيدة عنك ، عاجزة عن الدفاع ، ترهقني العزلة ، وتسحقني سماء  
حارة ، فتذكرني ببيت من الشعر لك ، هو :  
« جلست حرارة النهار على الارض كأنها انسان ! »  
هبت عاصفة هوجاء في هذا الليل ، فسررت بفرار النوم من عيني ،  
لاني اغتنمت فرصة يقظتي لأفكر بك . عن اي شيء حدثتك في رسالي  
السابقة ؟ اني لا اكتب مسودة لرسائي اليك ، واخشى ان تكون اشتملت على  
الكثير من المناقضات الفظيعة . اعتقد اني حدثتك عن نوع من الراحة ...  
أجل ، أردت ، بكل ما أوليت من حسن النية ، ان أنقذ صداقتنا من  
هذه الحوادث المريعة التي نجتازها ، على الرغم من اعتقادي ان الرجل  
لا يستطيع ان يحب صداقة المرأة التي يعجز عن حبها غرامياً . عندما  
رفضتني رحلت اخاطب نفسي قائلة : « انه يشتهي المرأة التي تهرب  
منه ، ويحتقر التي تقدم له نفسها ، فبا اسخف هذا التصرف الغريب ! »

ولكنني اعترف بان الحبيبة والرفض يضاعفان الف مرة رغبتنا في الحصول على الحبيب المعرض . وهذا ما اختبره الآن في ما اعاني من رفضك . ثم كيف انساك ؟ ان كونك رجلاً « عمومياً » يجعل النسيان مستحيلاً ( والرجل العمومي في نظري كالمرأة العمومية ) . فلكي ترقد في نفسي و تغيب عن بصيرتي ، يجب ان لا اقرأ جريدة ولا مجلة . وفي هذه المناسبة ، اودّ ان اعلم شيئاً ... فمجلة « الاخبار الادبية » نشرت قصيدتك الاخيرة ، وقد قرأتها - باللفظاعة ! - في الكنيسة الخالية من المصلين ، لأنها المكان الوحيد الذي اجد فيه قليلاً من البرودة . ومطلع قصيدتك هو :  
« بما انك تحبينني ، وبما اني احبك ... »

اما الشيء الذي اود ان اعرفه فهو هل فكرت بي قليلاً عندما نظمت هذه الايات ؟ اني اشك في ذلك ، ولكن ... ولكن ، لا ! لا شك في ان هذه الايات موجهة الى امرأة اخرى . ويخيل اليّ اني اسمعك تزجر لدى اطلاقك على هذا السؤال قائلاً : « ما أشدّ ساذجة هذه الفتاة ! » واذا كنت حقاً ساذجة ، فلا تلم إلا نفسك ، لأنك وحدك المسؤول عن سذاجتي . فقد كان يوسعك ان تجعلني امرأة غير ساذجة ، لكنك أبيت ان تفعل .

أما هذه النجاولى الغرامية التي تملأ بها المجلات الاسبوعية ، فانها تحرك النصل الغائض في جرحي ، وتفعم نفسي غيرة واشتهاء .

آه ! جميل جداً ان تكون قادراً على تمريسة نفسك وعلى عرضها للانظار باسم الادب والفن . ومن الواضح انك تثقت حيي مقتناً عميقاً . ولكن ما حيلتي في هذا الامر ؟ اني افكر بك من الصباح الى المساء . كدت اقول ان حبك يفوح من جسدي كالرائحة التي لا تحجب ، ولكن هذا القول لا يخلو من الادعاء ، فالحقيقة هي ان جسدي ينضح بحبك كما ينضح بالمرق . مررت قريباً جداً من حياقي ، فجرفني في مدارك كما تجرف الشمس نجمة صغيرة معزولة ، واحرقني بنورك المتوهج .

اصارحك صادقة" باني اود من صميم القلب ان يكون امرنا كذلك ، فتكون قد قتلتني سهواً ودون تعمد ، ولاشيتي . لست ذليلة ، ولا اعاني نزقاً مهلكاً ، ولكني في ذهول . جعلتني غير صالحة للحياة العادية المألوفة . غدوت' كذلك الاشياء القديمة التي يقول فيها خبراء الآثار : « انها جميلة ... انها غالية » ، ولكني ارفض شراءها منك ، لان ثمنها غير معروف الآن . ولكنها جيدة ، فلا تتخل عنها » . اعرف ان لي قيمة ، ولكني غير صالحة للاستعمال ، وقد انتهيت الى القرف فادمّر نفسي ، كما يقرف المرء من تحفة ثمينة فيدمرها لان خبراء الآثار يحدونها في منتهى الجمال ، إلا انهم يرفضون شراءها مما تساهل صاحبها في بيعها .

أجل ، اني غير صالحة للاستعمال . وبسببك ، انت ، حرمت جميع الرجال ان يحدوا بي ما كنت تستطيع ان اقدمه لاحدهم . فلو جاءني اليوم رجل "عجب ، مخلص ، وارادني نقية" ليكون لي ، وأكون له ، لما استطعت ان اعطيه إلا جثة فارغة ، كأني كنت خلية لاحدهم ، او متزوجة . فبكراتي المعنوية قد زالت من الوجود .

كيف لا تحس بان هذه الحال تفرض عليك واجب التعويض علي؟ واعني بالتعويض ان تمنحني الارتواء الجسدي الذي هو حق من حقوقي . ان زهدك بي هو نوع من التأفق الفاجر ، الشرير . قلت لي ، مرة ، 'بحرفاً شعاع جريئة « العمل الفرنسي » : « كل ما هو طبيعي هو لنا » . لا لست قريباً من الطليعة ، وقد يكون هذا الظن اكبر وهم بين اوهامك . فانت قريب من القداسة ، ولكنها قداسة معكوسة ... قداسة شيطانية . ولشدة اهتمامي الدائم بك ، اعرف كل يوم اشياء جديدة عنك على الرغم من سكوتك ، كما اعرف اشياء عن نفسي . بحث لي يوماً بما يسميه « فضولك لمعرفتي » . وتراني اعتقد اليوم ان هذا الشعور هو الوحيد الذي كان لي في نفسك ، وهو شعور مهني صرف . كان من المحتمل ان تستهيني لو لم أكتشف لك برائتي عن كل ما في نفسي ، وهذا هو الشقاء

الأكبر في حياتي ، وسببه عزلتي التي جعلت كل شيء بيننا يجري بالتراسل .  
ولكن ، أوافقك أنت بأنك تعرفني معرفة كاملة ؟ ألم يخطر في بالك ، حتى  
على الصعيد المهني ، أنك لو أردت أن تجعل علاقتنا حميمة أكثر لاكتشفت  
في أشياء جديدة ؟ وبعد ، أوافقك أنت بأنك لا « تحتاج » إلي ؟  
لن تجديني من جديد إلا إذا أحسست يوماً ما بهذه الحاجة ، وكانت  
حاجة كلية ، شاملة . فأكون عندئذ خليلتك ، أو زوجتك ؛ ولن أكون  
صديقتك أبداً .

وستعود إلي - إذا شئت - وانت تعلم علم اليقين أني أحبك ، وأعبدك ،  
وأنني اشتبهت وما أزال اشتبه قبلائك والاستسلام لذراعيك ، ولم  
تساورني قط شهوة أخرى . أفسرور أنت بهذه الصراحة لا أن حالي  
في منتهى الوضوح . وأنني أجد راحة وحشية حين ألمس أعمق خضوعي  
لك ، وأجد خطيئاً عهد أمانتي لهذا الخضوع المطلق ، وأعطيك دائماً  
هذا السلاح الذي تستعمله لمقاتلتي .

اندرية

( بقيت هذه الرسالة بلا جواب )



صاح كوستال ، وهو يدوس قواعد اللغة كأنه يهذي :

.. لا شيء غير ساقيا ، أكاد أجن ! انظري يا صديقي الى هذه الصغيرة الفتاة . ان في جمال وجهها ما يطعن كسن الحرية . يكون المراء مرتوياً ، لا يهيم الموت ، فاذا به يعود فجأة الى حب الحياة ، ويرفض الموت . ولجأة يفقد اتزانه ورضانته ، حتى انه لو اراد الكتابة لخانتته معرفته بقواعد اللغة . عمرها ثمانية عشر ربيعاً ، إيه ؟ وذراعاها اجمل من ذراعيك . وندوب اللقاح على ذراعها ... ألا ترين انها تفتن القديس ميخائيل رئيس الملائكة ؟ لا اخفي عنك ، يا عزيزتي ، اني اود ان افترس هذه الصبية حية . انها تستر وجهها بجريدة ممتدلة الآراء لتستخط بمحرمتها الصغيرة . لا تريد ان اراها تقوم بهذا العمل البعيد عن الاناقة والنبيل . ثم تضع محرمتها في حقيبتها باصابع كأنها قطعة حاوى . وكما فاجأتني انظر اليها تمر بلسانها على شفيتها . ما اروع اختلاج كتفها حين تضحك ! وما اجمل فرق شعرها المتمرّج بلا نظام ، واذنيها البريثتين من الامراض ! ان في قماش ثوبها ، وفي ساعتها اليدوية ، شيئاً فقيراً يفعم نفسي رغبة ملتهبة ، قاتلة . اي قوة في العالم تستطيع منعي من اشتها هذه الصغيرة ؟ اود لو اعرف طعم شعرها حين امضغه . اود لو ... حقاً انها جذيرة بان كُشيتي . وها انا اشتيتها . أليست هذه سنّة الطبيعة ؟ اني لا اكسر شيئاً ، ولا اضرب باحد اذا اشتيتها ، ولكن عندما ارى العروق البارزة برجلها السميتين في حذاءها الرخيص يعود اليّ الوعي والصواب ، فاصبح رجلاً عادياً ... اعترف لك يا صديقي العزيرة بهذه الحقيقة

بلا مواربة . أتراني أميـه اليك وازعجك بهذه الاقوال ؟ اجل ،  
أرى ... أرى انك تتألمين ، فاصفحي عني . ولكن ما حيلتي ، يا  
صديقتي ! اني من جنس هو نقيض جنسك تماماً في كل شيء . فانا من  
الجنس الذي يشتهي دائماً ... جنس الرجال . وجل ما احب هو ان  
اعرف كيف تكون النساء عندما يستسهن ، لأستطيع المقارنة بين  
اساليهن المختلف ... ما هي السعادة بالنسبة الى جنسي ؟ السعادة هي  
الفقرة التي يعرب فيها المرء عن قبوله ورضاه . فالرجل المتسوف ينتقل  
كثيراً بحبه من امرأة الى اخرى ، لان تعلقه بامرأة واحدة يناقض النهج  
الضروري لحياته الروحية . وانت ايضا نجمة صغيرة بين الوف النجوم .  
وسيمحمد نورك لدى بزوغ الفجر . اصحبح اني ازعجك ؟ اني اعرف  
معنى هذه الابتسامة التي تبدو علي وجهك عندما لا تكونين على ما  
يرام ... مع اني لم اقل لك 'مهجراً' .

— لا ا لم تقل شيئاً مزعجاً .

— ويجب ان تلاحظي ان ما قلته لك كان موقفاً على ألحان موسيقى  
الرقص . آه انك لا تحسنين اللعب والمغامرة !  
... لا فائدة من الشرح ، لانك لا تريد ان تفهم ما هو مقامك في  
نفسك .

... أجل ، لا اريد ان افهم ، لأنه لا يجوز ان اشغل مكانك كثيراً في  
حياتك .

فظهرت اليه بنزق ، وفي وجهها كل معاني التوبيخ ، فقال لها :  
— يسرني ان تحبيني ، ولكنني اود ان لا تحبيني كثيراً . ويسرني ان  
تحبني في حيي ما يرئسك ، ولكنني اود ان لا يتجاوز رضاك الحدود  
المألوفة ، لأن تورطك في حيي برطاني في التزامات جديدة ، ويكرهني  
على تجاوز ما اقوم به تلقائياً في حالة طيسمية بعيدة عن التصنع . ان  
امعانك في حيي يخلق لي واجب مقابلتك بالمثل ، وهذا ما اخشاه ، لا

لأنني لا احسن القيام بالواجب ، ولأن الواجب لا يعني شيئاً في اعتقادي ، بل لأنني اضطر الى انتهاز الحيلة والمجاملة ، ولست قادراً اليوم على سلوك هذه الطريق . جل ما اود ان تحبيني وان تشتهي رغبتني فيك ، بقدر ما احبك واشتهيك ، لا اكثر . صدقيني اذا صرحتك بان مقدار حبي وشهوتي معقول وكافي .

وفي اليوم التالي كتب كوستال ، في « غابة بولونيا » ، على صفحة بيضاء من كتاب « تربية الفتيات » الذي كان بين يديه ، النبذة التالية :

« على احد البنوك صغيرتان فانتارت » في الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، كأنها غارجتان من احد اناشيد « ملياغر »<sup>١</sup> ، ومعها امها ، ولا ريب ... ولكنها ام تدرك معنى الحياة . كل منها تهز احدى رجلها هزاً منتظماً ، كما يحرك الحمار ذنبه . ليتني امضي ليلة كاملة واحدى هذه الارجل بين يدي ! يخيّل اليّ اني لو نظرت اليها كما انظر اليها الآن ، ولكن هناك في مخدعي ، بشارع « فيلياه » ، لأحسّ كل منها بان شيئاً يثقب قلبها ، وبان قلبها ينزف دماً فجأة ، دون ان تدري لماذا ، بينما هي منصرفة الى الحياطة . يا ايها الطبيعة ! اعصمني من ان اشتهي سواها ما دمت احبها .

١ - شاعر فينيقي مجيد ( ولد حوالي سنة ١٤٠ ، ومات سنة ٧٠ ق . م . ) من ابنا غدارا التي سماها الانجيل « كورة الجديين » ، امضى حياته كلها في صور . كان يدرّس الآرامية والفيقية ، ولكنه نظم شعره باليونانية . حذق نظم المقطوعة الصغيرة ، واحب السفر والتنقل . وصلت اليها ١٣٠ مقطوعة من شعره ، اكثرها في الغزل المزخرف بالوصف والتشبيه . ومن اجل شعره :

« صور ، وببية السماء ، حضنتني يافعا ،  
وربة غدارا المقدسة غذتني شابا ،  
وجزيرة قبرص الحبيبة رعتني شيخا ،  
فان كنت فينيقيا لملك مني التحينات »

ان الشعور الذي سيطر على الآنسة دنديو منذ ان خفق قلبها للحب هو الخوف من ان لا يحبها كوستال كفاية ، ومن ان يبجرها . فقد اصبحت ، حيال الرجل الاول الذي احبته ، وحيدة في العالم ، ومهددة من كل جانب ، ولا سند لها تمود اليه في الملمات .

قبل ان تحب ، كانت لياليها رتيبة ، مثلشابة ، ليس فيها ما يستحق الذكر . اما الآن فلكل ليلة احلامها ، وهي احلام مزعجة ، إلا انها لا تبلغ حدود الكوابيس . كانت تعلم ، مثلاً ، انها على دراجة هوائية منطلقة بسرعة على منحدر ، وانها فقدت سيطرتها على الدراجة . ولكن الحلم كان ينتهي عند هذا الحد ، ولا يكتمل بسقوط في الهوة . وكانت تعلم احياناً بان بقرة انفصلت عن قطيعها ، ودنت منها حتى كادت تلامسها ، ولكنها لم تهاجمها . ولم يكن كوستال يظهر في هذه الاحلام ، مع انه كان مصدرها وعلتها . فقد كان شيطانها الخفي . وفي بعض الاحيان كانت سولانج تقترب منه في احلامها ، ولكنها لا تراه مباشرة ، بل تعلم بانها تفكر فيه .

هناك لساء يكسبن الحب قوةً ونشاطاً وطابعاً من الرونق ، خصوصاً اذا كان الحب الاول في حياتهن . اما الآنسة دنديو فقد حلّ بها السقم ، فوهنت قواها ، واصيبت بشيء من الهزال الجسدي . وخوفها من ان تفقد كوستال زادها وهناً ، فكانت تجس دائماً انها دون المهمة التي انيطت بها ، وانها متعبة تحتاج الى الجاوس . واذا وقفت بعض الوقت احست بألم في فخذها .

وعلى المائدة كانت تمضغ الطعام بقوة ونشاط لحاجتها الى تحريك اعصابها ، فتسبق امها في التهام ما في صحفتها ، وتضطر الى ملئها من جديد ، حتى أصبحت تأكل اكثر من المعتاد . ولاحظت انها عندما تأكل كثيراً تزداد قوة . ولما بدأت بالاكثار من الطعام احست ان فخذيها هما اللتان غنمتا القسم الاكبر من الغذاء .

وراحت تأكل بشاهية وكثرة كلما كانت على موعد مع كوستال ، مما جعل الخادمة سوزان تبسّم ابتسامة عريضة كلما قدمت لها المزيد من الطعام على المائدة . فكانت سولانج تقابل هذه الابتسامة بالمثل ، بدون ان تدرك ان الخادمة فهمت كل شيء .

وأصبحت تتناول فنجانين من القهوة دفعة واحدة ، وتلتهم طعام الغداء مرتين . وكثيراً ما كانت تمضغ نواة خوخة حتى تكاد تكسرها ، كأنها كلب يعض كرة صلبة ، فيفيض عليها لعابه . وفي بعض الاحيان كانت تدخن سيكارتين من التبغ الاسود ، واحدة بعد الاخرى ، وهي التي لم تكن مدمنة على التدخين . ولكن السيدة دنديو لم تلاحظ شيئاً من هذا كله . ولا حاجة بنا الى ذكر السيد دنديو في هذا الصدد ، لأنه لم يكن يهتم الا بنفسه . وهكذا كانت الخادمة ترى ما لا يراه الاب والام . يقال ان حب الام اعمى . وهذه حقيقة لا ريب فيها .

ولو لم تكن الالسة دنديو فتاة عاقلة ، ورصينة ، لأدرت ان جرعة من الخمر تكسبها تلك الحيوية العابرة التي تغنمها بالتهام الكثير من الطعام . ولكنها لم تكن تعرف فضيلة الكحول ، ولم تحزم ما في الخمر من القوة . والناس ، مثلاً ، لا يعرفون ، او يعرفون قليلاً ، وهذا القليل يساري لا شيء . فالقائد العسكري يعلم ان افضل الجنود في القتال هم الذين ينزلون الى الميدان بعد تناولهم قليلاً من الخمر ، ولكنه لا يجاهر بهذه الحقيقة ، مع ان المجاهرة بها مفروضة عليه .

ومضى علم الانسان ان افطع آلام الحب تزيلها وقعة عامرة من الطعام

الجيد ، لبضع ساعات على الأقل ، متى علم ان الشجاعة الجسدية والمعنوية ، والاهام الشعري ، والاخلاص ، والتضحية قد يكون مبشها كلها وقعة جيدة من الطعام ، وان سمو النفس مدين بوجوده للحم نثق ننزعه من حيوانات ميتة ... متى علم الانسان هذا كله ، فلا يجوز لنا ان نحاول جرّه الى الايمان بالسمو والقيم العليا لندفعه الى التضحية وبذل النفس . ولكن الانسان ، الذي يوشك ان يعرف هذه الحقيقة ، يتهرب منها كي لا يعرفها . واذا عرفها ، تظاهر بانه لا يعرفها ، لانه لا غنى له عن المحافظة على 'سحب الاوهام في سماء الحياة' .

اما كوستال فكان ، بخلاف سولانج ، يتناول وجبة خفيفة من الطعام حين يكون على موعد معها . وكان نشاطه الطبيعي يتدفق بقوة وحرارة ، فلو حاول تقويته قليلا لفقد شيئا من صفاء ذهنه ، وهذا ما كان ياباه فوق جميع الاعتبارات . وحسب في وجباته الخفيفة ، كان يتمتع عن شرب الخمر ، وعن اثاره اعصابه بلشوة السكر . ولم يكن يشرب إلا حين يخف حبه للصديقة التي هو على موعد معها . وعندما كانت سولانج تتأهب لمغادرة مخدعه ، بعد انتهاء زيارتها ، كان يتوجه الى المنسل ، ويشرب من الحنفية . اما اذا تخلفت سولانج عن الميعاد ، في الموعود المضروب ، الى المكان الذي عينه لها ، على مقربة من شارع « فيليبا » ، فكان ينسى خيبته كأنها لم تكن . وبعد انتظار مدة عشرين دقيقة يتوجه الى اقرب حانة ويتناول من الخمر ما يطفىء به اسدياءه . كان طبعه قائما على ميزة خاصة به هي : ان يحب كل شيء بقدر ما يحب نقيضه تماما . وقد جعل من هذه الميزة خطة لحياته .

وهكذا اعطاه القدر الـ « لا » والـ « نعم » ، فاصبح يرضى بهذه او بتلك على السواء ، وينعم بحياة أنعم من الحمل ، خالية من المتاعب والهموم ، حق انه كان يتمعجب احيانا من اصحاب العقول الحيوانية والفلاسفة المزيين الذين يمتدحون الحياة صراعا .

قالت له يوماً : « تعال تناول الشاي عندنا يوم الأحد . فسيغيب أبي وأمي طوال النهار في « فونتلنباو » عند أبناء عمنا . وسيغيب الخدم أيضاً في عطلتهم الأسبوعية ، فنكون وحدنا » . فراقته هذه الفكرة ، لأنه كان يتوق الى مداعبتها في الغرفة التي شهدت مراحل طفولتها ومراهقتها . وكم كانت تتمتعته الروحية كبيرة حين رأى نفسه مع سولانج في البيت الكبير الخالي من سكانه ، وراكها تعطل جرس الباب الخارجي كي لا يزعجها احد . ولكنه ما عزم ان لاحظ على شفتي سولانج بعض بشور الشباب ، وحول عينيها دائرتين زرقاوين تجملان نظراتها عميقة بلغة التعبير ، فثبتت له صحة ما كان يظن بها ... واحس بعاطفته تشتد كصوت البيانو عندما يُطلق لآثاره العنان . فقد كان يفضل اجتماعه بالنساء في فترات خضوعهن لسلطان الحب ، وشعورهن بان السهم اصاب منهن مقتلًا ، لأن ضعفهن حياله كان يزيد قلبه احتدامًا ، وسواسه رهافة . وعبثًا كنّ يحاولن اقناعه ، في هذه الفترات ، بان حالتهن طبيعية ، فقد كان يعزو محاولتهن هذه الى التظاهر بالقوة ، ويزداد اعتقاداً بحاجتهن الى الحب والمداعبة . وكان يميل بطبعه الى مسايرتهن ومداراة شعورهن ، حتى ولو كن رياضيات ، يقتنمن جميع الفرص للدعاء بانهن اشد مناعة من الرجال في المواقف الحساسة .

وها هو الآن ، في قاعة الاستقبال ، جالس على مقعد وثير الى جانب سولانج . وكانت سماء ذلك اليوم من ايام الصيف غائمة كأنها من أيام الخريف . فتحدثا أولاً عن اشياء قليلة الاهمية ، ولكن كم كانت سولانج

مؤثرة وشبية حين كانت تنظر الى امام كأنها في نهم ، ثم تدير اليه وجهها بحرارة ولهفة كلما قال لها كلمة لطيفة ، او عبارة تصيب منها وتراً حساساً .

طلب اليها ان تقوده الى مخدعها فرفضت بشدة ، وهي التي عودته ان تلبي جميع رغباته دون اقل تردد او تحفظ . وطلب ان تربية بعض صورها المحفوظة من ايام الطفولة والحداثة ، فاخبرته بانها لم تقف امام آلة التصوير منذ بلوغها الرابعة عشرة من العمر ، ما يدل على انها وذويها من ابعد الناس عن الغرور وحب الظهور .

واخيراً وصل الى الموضوع الذي كان يحزّ في قلبه منذ حين . ففي زيارتها الاخيرة له ، عانقها بحرارة وشدة بالفتن مرات متوالية ، حتى انه احس ، في آخر السهرة ، بينا كان يرتدي ثيابه ، بعياء وانها عصبية فلزم الصمت واصبح خامد الشعور تحت عبء ثقيل من التعب . وقد بذل جهداً كبيراً ليستطيع التفوه ببضع كلمات عادية نافذة ، وهو يرافق الفتاة الى الباب الخارجي .

ذكرهما بهذا الحادث وراج يشرح لها ان الرجال يقعون احياناً تحت وطأة هذا العياء المستبد ، بعد ان يجودوا بكل ما في نفوسهم واجسادهم من حيوية ونشاط في اثناء الوصال . وقال لها ان هذه الحال طبيعية ومألوفة ، ولا بد لها من ان تملأه اذا وقع فيها ، واذا لمست فيه شيئاً من الفتور .

وأسهب في الشرح والتحليل ، ثم سأها هل انتهت الى ما حل به ، دون ان ينتظر منها جواباً . وكما كانت دهشته كبيرة عندما اجابت فوراً وبلهجة حازمة : « نعم ! » فساوره القلق وجميل يقول في نفسه : « ماذا ؟ أيعقل ان تكون تلبّثت الامر الى هذا الحد ؟ اذا كان ذلك كذلك فالمسألة اخطر مما كنت اظن ! » وعاد يسألها :



— والمرات الاخرى ؟

— تلبثت له ايضاً .

فاشتدت دهشته ، لأن عيائه في المرات الاخرى كان زهيداً ، وكثيراً ما كان يطلّ بسرعة ثم يختفي بسرعة . وقد حرص دائماً على ستره تحت مظاهر القوة ، بامعانه في المداعبة ، فقال في نفسه : « يا الهي ! كم هي ثاقبة النظر ، مرهفة الاحساس ! وكم هي قادرة على اكتشاف الحقيقة وراء المظاهر المصطنعة ! »

وسألها من جديد :

— أكاد لا اصدق ! هل وجدتني بارداً في المرات الاخرى لدى

مغادرتك بيقي ؟

— نعم . وكنت اسائل نفسي : لماذا ؟ واخشى ان اكون قد خيبت

املك بي ...

فعاد الى شروحه يتوسع فيها ، وذكر بعض الكتب التي عاجلت هذا الموضوع ، واقترح عليها ان يطلعها على كتب طبية استكملاً للفائدة . وبينما كان يتحدث باهتمام ، كان ينتزع باصبعه بمض الوبر النابت على مرفقها ( وهذه الحركة الصغيرة تستحق الذكر ) . ثم صمت فجأة كأن عليه تفتحتنا على اكتشاف لم يكن يُخطر في باله ، فقال :

— راذاً ، فلما قلت لي : « بعد لقائنا ، احس انك ابتعدت عني ، »

كنتِ تمنين ما يحل بي من التعب !

— طبعاً !

فردد قائلاً كأنه يخاطب نفسه : « بعد لقائنا ، احس انك ابتعدت عني ... » وللمرة الاولى ادرك ان لهذه العبارة معنيين : إما ان سولانج تشعر بانها باردة حياله بعد انتهاء المداعبة ، او انها تشعر بأنه هو البارد حيالها . وبين المعنيين فرق بعيد ، وهوّة عميقة الغور . فكيف ادرك المعنى الاول ، وغرب عن ذهنه المعنى الثاني ؟

قال لها :

— اسمعي ، يا سولانج ، فالامر بالسبغ الالهية ! أكننتِ تشعيرين ، بعد قيامنا ببعض الاعمال ، بانك تبتهدين عني ، ام اني ابتعد عنك ، وأصبح بارداً حيالك ؟

— كنت اجدك بارداً حياي ، واحس فيك ردود الفعل التي شرحتها لي الآن ... كنت احس بذلك كما يتحسس الاعمى برؤوس اصابعه الكلمات المكتوبة بايحيديّة « براي »<sup>١</sup>.

— ما افطع سوء التفاهم الذي وقعنا فيه ! لقد فهمت من قولك عكس ما عنيت تماماً ، ولكن لماذا لم توضحي فكرك ؟ لماذا تركتني مفتافاً منك ثلاث ساعات ، ثم سمعتني اوجه اليك كلاماً قاسياً طوال عشرين دقيقة ، وانت مطبقة الشفتين ، تنظرين اليّ كمجمل صغير عاجز عن الكلام ؟ لم يكن عليك إلا ان تقولي بضع كلمات : « اجدك انت بارداً بعد لقائنا » .

فهدت منها حركة تدل على الاسف وفراغ الصبر ، ثم قالت :  
— ولكنك تعلم حق العلم اني لا اجيد توضيح فكري ، وقد صارحتك مراراً بهذه الحقيقة ! وبقدر ما كنت اراك تشط وتبتعد عن فهم ما اقول كان يستولي عليّ الارتباك ، وازداد عجزاً عن التعبير . وعندما اكون معك ، احس في اغلب الاحيان اني متلاشية ... وفي المساء الاول ... في غابة بولونيا ... لو قلت لي : اطرحي نفسك في النهر ، فعلت .

— اعلم هذا . واسترعي انتباهك الى اني لم افعل . ولكنني لم أرَ قط مثل هذا الخطأ الغريب الذي لا يُصدق . ان التباساً كهذا يعتبر مبالغة في الاختراع حتى في الروايات الخيالية . ولا يستطيع احد ان يصدق ان فتاة باريسية في الحادية والعشرين من العمر ، وفي سنة ١٩٢٧ ، تدع

١ - استاذ فرنسي اسمى ( ١٧٠٩ - ١٨٥٢ ) اخترع حروف الهجاء النائضة لتعليم العميان القراءة عن طريق اللمس بالاصابع ، وقد اطلق اسمه على هذه الابداعية .

صديقها يحافئها ساعات طويلة لاجل كلمة ما ارادت بها إلا التعبير عن خوفها من ابتعاده عنها ، اي لأجل كلمة لا تعني سوى المودة والاخلاص ، وكل هذا لانها « لا تحسن التعبير عن فكرها » . انك غبية ، يا عزيزتي ، غبية اكثر من اللزوم ... انك خرسوف ثابت الى جانب سكة الحديد .  
- لماذا الى جانب سكة الحديد ؟

- لان مكانه هناك افضل بكثير من الأماكن الاخرى .  
وعانقها بحنان عميق . لم يخطر في باله قط انها طفلة الى هذا الحد ، وانها عزلاء بهذا القدر ، وعاجزة عن الدفاع ، ومعرضة للعذاب من كل شيء ، وخصوصاً بسببه . وتذكر حركتها البليغة التعبير ، لما ارادت استرضاءه وتبديد غضبه : تذكر كيف تأبطت ذراعه ، للمرة الاولى ، ككلب تويخته فيمد اليك قائمته مستغفراً . وفي تلك اللحظة احس ان انقلاباً شاملاً حدث في نفسه ، فرأى سولانج اضعف مما كان يظن ، وادرك انها تحبه اكثر مما كان يمتقد ، ناهيك بان مأخذه الوحيد عليها كان قد تلاشى بزوال اسبابه الموهومة . وفي دقيقة واحدة اقتربت منه ، اقتربت من جوهر حياته كشيء تأخذه بيدك وتضعه على صدرك . ولم كان يستطيع ان يغتم من السرور لو تسنى له في هذه الفترة ان يقتل رجلاً للتكفير عن اساءته اليها !

في هذه الغمرة من الشعور الرقيق المتدفق ، انحنى عليها وقبلها ، ليس في نقطة التقاء الكتف بالعنق التي كانت عارية ، وهذه قبلة تعتبر شهوانية ، بل على جزء من الكتف كان مستتراً بالثوب .  
وشرد الحديث بينها قليلاً في ذلك الجو من العطف المتبادل الذي حله على لثم قبصها عوضاً عن عنقها ، فانتقل الى عيلتها بوحى المكان الذي جلسا فيه ، فقالت :

- لم يكن اخي ذكياً . فكل ما كان يستطيع عمله هو ربح المال ...  
لا احب ابني وامى حبة واحدة . احب امى شيء من التساهل لانها

خفيفة سطحية . اما ابي فداهية شديد النباهة . ثم انه مصاب بمرض عضال ( كان دنديو يعاني سرطاناً في البروستات جعل ايامه معدودة ) . وفضيلة عمي لويس كفضيلة امثاله من الرجال ، وهي السعي الى اقصى حد من الاعمال المشكورة ، باقل ما يمكن من المجازفة .

قال كوستال في نفسه : « ما اجل هذا التحديد للبورجوازية ! » واستطردت سولانج قائلة :

... اما ديانتي فهي ابي غير مؤمنة ، ولكن عندما تقع تحت نظري جريدة ك... ( وهنا ذكرت اسم صحيفة اسبوعية باريسية الطابع اكثر من اللزوم ) احس اني على اتم الاستعداد لاعداد الى عقيدتي المسيحية ، واقول في نفسي : « ليس من المحتمل ألا يكون في الحياة شيء غير هذه التفاهة » .

واخيراً جرى بينها الحوار التالي ، قالت :

... من الواضح ان جميع الشبان الذين في مثل سني يفتقرون الى الحد الأدنى من الشعور بالواجب ، بينا رجل مثلك ...

... انك تمزحين ، هل في ملاعبي ما يدل على اني رجل واجب ؟

... لا . ولكنك رجل واجب على كل حال .

... يا لك من فتاة مرفهة الحس ! نعم ، لا بد لمن يحب من ان

يصبح رجل واجب .

لما عرف كوستال سولانج ، اعتبرها دمية للتسلية ، واخذها كمن يأخذ امرأة ليراقصها برهة ، ثم يعيدها الى مكانها . وبعد حين ، عندما عرفها اكثر ، بدا له انها نتاج تلك التربية الخاصة التي تفرس في الادهان ان ابداء الرأي الشخصي عيب يناقض حسن التهذيب ، وان القاعدة المثلى في ادب الاجتماع هي ان يوافق المرء دائماً ومن غير تردد على وجهة نظر محدثه . وكثيراً ما عنقها بلا هوادة عندما كانت تقول : « اني مخلوقة من نوع خاص » ، فيقول لها : « انك نقيض النوع الخاص تماماً ، فانت

فئة شبيهة كلياً بجميع الفتيات . وكان يوبخها كلما زعمت انها « لا تجد من يحسن فهمها » ، فيقول : « هذا ما تردده جميع النساء اللواتي ليس لديهن شيء جدير بان يفهم » . وكان يأسف لعجزه عن نخسها ولذنها على هواه ، لأنها لا تغلك من رجحان العقل ما يساعدها على تذوق المداعبة الفكرية ، فتتأثر ، وتتألم ، اذ تحسب المزاح اهانة . وقد قال فيها يوماً المديح التالي الذي يبدو كبيراً للوهلة الاولى ، ولكن العين البصيرة لا تلبث ان ترى حدوده الضيقة ، وهو : « ما سمعتها مرة تقول قولاً سخيفاً ولا كلمة نابية » . وكانت في نظره متقلبة ، متضمنة ، ومثال الفتاة الصالحة لتكون بطلة رواية فرنسية . ولكن تبين له انها صدقت بقولها ان لاصديقات لها . فبدأت قيمتها تسمو في نظره لرسوخ اعتقاده ان العزلة والقيمة كلمتان مترادفتان . إلا ان هذا الاعتبار لم يكن يتجاوز في ذهنه ما كان يسميه : « روعة المزاي السلبية في شخصية سولانج » . وكان يفكر دائماً بان صوت الوحي الذي قال للقديسة تريز : « انت التي لا وجود لها » ، يبقى صادقاً اذا قيل فيها ، فالشعور المسيطر عليه ، بالنسبة اليها ، هو الاعجاب يحياها الجسدي ، لا أكثر .

اما الآن فخيّل اليه انه يرى زجاجة صورة شمسية تتضخ خطوطها ، وتتهللى معالمها تدريجياً في اثناء تظهيرها . فبدأت تلبين له صفات جديدة وتفاصيل كانت خفية في شخصية الفتاة ، وهي صفات وتفاصيل تسعده ، وتشرّفه . لم تكن ملاحظاتها وتقديراتها فذة ، ولكنه لم يكن يتوقع منها مثل هذا الوعي ، وهذا السداد في الرأي ، فاذا هو يكتشف فجأة انه كان يحفلها ، ويحفل خصوصاً انها افضل منه . وكان اكتشافه شاملاً حتى خيّل اليه ان صوتها اصبح جديداً . كان يعرف لها ، حتى ذلك الحين ، ثلاثة اصوات : صوتها العادي مع الناس ، وهو لا يخلو من التصنع ، لا لأنها تحب التظاهر بما ليس فيها ، بل لأنها شديدة الحياء ، وصوتها الذي كانت تخاطبه به ، وهو طبيعي ليس فيه ما يسترعي الانتباه ، و«صوتها

الليلي « المؤثر ، العميق ، كأنه آتٍ من عالم آخر ، يحمل كلمات طرية ، ندية ، ويخرج من اعماق طفولتها خروج عصافير مرفقة من اعماق بئر بعيدة الغور . والآن ، ها هي تتكلم بصوت آخر ... بصوت هادي ، بسيط كل البساطة ، رصين ، فيه طمأنينة مريحة ، ونبرات رخيصة لا يمكن وصفها جعلت كوستال يقول في نفسه : « ما اقربه الى صوت بنات الاسر الشريفة ! » ثم قال لها :

— احاطبك كأني اعرفك منذ خمسة عشر عاماً . ويسرني جداً ان نتحدث بهذه السهولة . اني لشديد الحجل من الطريقة التي كنت اعاملك بها في البداية . كنت احسبك بغياً ، فاصفحي عني ...  
— لا بأس . كنت دائماً مستعدة للاغضاء عن كل شيء . وقد أغضيت ، بالفعل ، عن اشياء كثيرة ...

قال في نفسه : « يا الهي ! ما هذه الاشياء التي اغضت عنها ؟ انها تعني ، ولا ريب ، استسلامها لي » . واكتشف في هذه اللحظة انها تقدّره بذلك « التسامح » الذي قالت يوماً انه يخالط عطفها على امها . لو تبيلت له هذه الحقيقة في ما مضى لتبرم بها ، وحسبها جارحة ؛ اما الآن فقد ضاعفت حبه للفتاة واحترامه لها .  
قال لها :

— انك اليوم في جوّ مشبع بالرصانة والجلال . لماذا حدث ؟  
— احس ان ثققي بك وبنفسي قد اشتدت ورسخت بعد ان جلونا ما كان بيننا من سوء التفاهم . قبل ان اعرفك كنت ارهب المستقبل ، ولما غدوت الى جانبك لم اعد اشعر بالخوف . وعندما حدث بيننا سوء التفاهم الذي ذكرت اصبحت كاضمومة ازهار محصورة في رباطها الشديد ، فجئت الآن تحلّ عنها الرباط ، فشرعت الازهار لتكفّس بارتياح !  
— اننا نخلّص في اجواء الشعر !  
وبعد سكوت استطرد قائلاً :

— اعذريني . اني امزح حتى في فترات الرصانة ، والجد ، والتأثر  
الحقيق . ثم اني احب أن انترك نقرات موجعة بعض الشيء .

— اعلم ذلك . بدأت افهمك .

— قلت لي كلمة اود توضيحها . قلت انك « أغضيت » ، فما هي  
الاشياء التي اغضيت عنها حباً بي ؟

— ألا تعرفها ؟

— بلى ، اني احزرها . وانك على حق . فانت الفتاة العاقلة ، الرصينة ،  
المهذبة التي استسلمت لي عفواً ، بلا اقل مقاومة ، كما تسقط الورقة من  
الشجرة ... عندما افكر بكل ما كنت قد اعددت من الكلام المعسول  
لاغرر بك ، واوقعك في شبكي ، يخامرني شعور غريب . كنت انوي  
الالتجاء الى التهويل للتغلب على عنادك ، ، كان اقول لك ، اذا رفضت  
الاستسلام لي ، اني مصمم على مغادرة فرنسا ، وانك لن تري لي وجهاً بعد  
اليوم . ولكنك ما لبثت ان وقعت بلا مقاومة كالحدى اوراق الخريف ...  
لا بد من الاعتقاد ان هذا المصير كان مكتوباً لنا في لوح القدر . انك  
تتمتعين بجميع الفضائل ، ولاسيما الرئيسة منها ، ألا وهي فضيلة الاستسلام  
من غير تردد ، او تظاهر بخوف مصطنع ، او حشمة كاذبة . اذا كانت  
المرأة غير سهلة المنال ، فهي ليست امرأة في نظري . واني اسألك الآن :  
ما هي الفائدة التي كان بوسعك ان تغنمها من فضائلك ، وانت الى جانبي ،  
لو لم تقدمي لي نفسك بتلك السرعة الباهرة ؟

— لم استسلم لك إلا بعد ان اعطيتك كل شيء .

— الغاية تبرر الوسطة .

— الحق اني لم اغض عن هذا « العمل » الذي تنوّه به ، بل عن ...  
عن بعض محاولات التمويه ... في ذلك الفندق ، لما خلوت بي للمرة  
الاولى ...

فردد قوله السابق قائلاً :

— كورقة الخريف التي تسقط ، كشمرة يانعة لا تقاوم اليد التي تقطفها .  
ومع ذلك ، فهناك نساء يقاومن أحيانا ولو كن مصمبات على الاستسلام ،  
ظناً منهن ان في المقاومة ما يصون الشرف .  
— ان عظمة حبي لك لم تسمح لي بمقاومتك ، وهذا ، على الأقل ،  
ليس من نوع : الغاية تبرر الوسيلة .

فاجاب بلهجة جدية رصينة :

— حقاً ان قضيتنا على جانب من الغرابة .

وكانت مستلقية على عطفة ذراعه بكل ضعفها وذبولها ، بكل احلامها  
الهائلة في ابعاد لامتناهية ، كأنها بقعة من النضارة والاختضار في غشن  
صخرة احتفظ بقليل من الرطوبة .

لما دخل كوستال ، فرّت من امامه قطتان . ذلك ان البطولة فضيلة لا  
تتحلى بها جميع القطط . اما الآن فقد عادت الى قاعة الاستقبال ، وراحتا  
تلتفتان ، تدخلان وتخرجان بهدوء وصمت كأنهما روحان . ومن حين  
الى آخر ، كان يعرف انها هنا او هناك اذ تحدث حركاتها صوتاً يشبه  
الحفيف .

وبعد صمت ، قال كوستال :

— لا ريب في انك بحاجة الى شحت وهندمة وتكييف ، وستعود عليك  
هذه العملية بفوائد كبرى . اني ارى الآن هذه الحقيقة بكل وضوح .  
— هذه سنة الحياة . فالرجل يصنع المرأة كما يريد . والمرأة تقبل  
منه كل شيء .

— ولكن الرجل لا يعلم ما يريد . ما اشدّ غياب الذكر ! وقد يحدث  
أحيانا انه لا يهتم بهذا الامر . اني احبك ، واريد لك الخير ، ولكني لا  
ارغب في تكييفك ، أتدريين لماذا ؟

— نعم .

— كيف تقولين : نعم ؟ اراهن على ان ما اعنيه لأبعد من ان يخطر



في بالك .

— لا يهمك ان تكتيفني لأن لك من اعمالك ما يكفيك . انك منصرف الى الاهتمام بمؤلفاتك .

— اني اقبلك كما انت . ان لدي اعمالاً اجدر باهتمامي من خلق الاشخاص . واذا كان روسو قد وضع ابنائه في الميتم ، فلأنه كان منصرفاً الى كتابة « اميل »<sup>١</sup> . انه ولا ريب عمل فظيع ، ولكن لا قيمة له في نظري . ان وقوعك بين يدي يدل على انك لم تحسني الاختيار ، وانك سيئة الحظ ، يا فتاتي المسكينة .

— لا ، لا ، لم يكن اختياري سيئاً .

روضت يدها على يده ، فقال :

— تقولين هذا الآن ! ولكنني على موعد معك بعد سنتين ، لاعلم أثابتة انت على هذا الرأي ...

— ألا يجب ان يزداد الحب ازدياداً مطرداً ؟ اني لا اتصوره إلا هكذا .

— هذا النوع من الحب ليس من شأني . اني اعرف الحب الذي يحيري منحدرأ كما الجدول .

ولما كان يخاطبها مبتسماً ، ابتسمت له ، وانتهى الحوار بعناق طويل . وراح يخاطب نفسه قائلاً : « انها تفتقر الى الذكاء . اجل ، هذه هي نقطة الضعف فيها ، وقد وضعتُ الآن اصبعي على الجرح . ولكن لا

---

١ - من أم مؤلفات جان جاك روسو ، عنوانه الكامل : « اميل او في التربية » ، وهو رواية تربوية تقوم على فكرة ان الانسان خلق صالحاً ، وان المجتمع يفسده . لذلك دعا المؤلف الى التربية الطبيعية المطلقة ، وترك الاولاد يتعرعون على سبيلهم . وفي هذا المؤلف آراء وجيهة تسترعي الانتباه كضرورة تغذية الطفل بالرضاعة من ثدي الأم ، والحفاظ على الصحة بالاقامة في الهواء الطلق ، والاعتغال بالماء البارد ، والتعليم بالامثلة ، وثقيف الحواس ، وتعليم الاولاد حرفاً يدوية . إلا ان المؤلف لم يلم من المبالغة في احوال التوجيه الخلقي ، والتذكير للدين والتقاليد .

ريب في انها طيبة ١ .

وكم كان تصرفها معه في منتهى الوضوح ، فقد حاولت دائماً ان  
ترضيه ، فكانت تغير هندامها وازياء ثيابها وفقاً للملاحظات التي كان  
يبديها لها ، من حين الى آخر ، من غير ان تبلغ حد الغنج والتأنق .  
وسلمته نفسها من غير ان تتظاهر بالحياء المصطنع ، او تلجأ الى تلك  
الحركات المبتذلة التي تقوم بها جميع الفتيات . وكانت رصينة عديمة  
الفضول ، فما سألتها قط عن حياتها الخاصة ، ولا كانت البادئة في مخاطبتها  
تليفونياً . واذا تكلمت معه بالتليفون اقتصر حديثها على ما تريد ان تقول .  
لم تكن تتدخل في ما لا يعينها ، ولا تحاول الاستيلاء على من تحب ،  
ولا تعرف التصنع في سلوكها ولا في اعمالها . كانت من ابد الناس عن  
تلك الوسائل السهلة التي كانت النساء الاخريات يلجأن اليها ليجذبن اليهن ،  
في زمن اصبحت فيه الفتيات يهاجن الرجال . وبما كان يدعو الى الاستغراب  
والمعجب انها لم تحدثه مرة واحدة ، ولو تلميحاً ، عن مؤلفاته وانتاجه  
الادبي ، بينما كانت النساء الاخريات يحاولن التسلسل الى حياته بالتحدث عن  
كتبه ، ساجعات من اعجابهن به مفتاحاً لقلبه . واعجبه منها انها لا تعرف  
شيئاً من شؤون الحياة الادبية المعاصرة ، ولا تتحدث عنها مطلقاً ، بينما  
هناك فتيات مثلها من حيث الجهل ، ولكنن يختلفن عنها بالثروة ، يحاولن  
ستر جهلن بعبارات مبتذلة ، طلال اجارها فأسمى الجميع يردودنها .  
ولم تكن سولانج بحاجة الى هذه المحاولة ، لبعدها عن الغرور وحب  
الظهور ، ولخاؤ نفسها من الفضول السقيم ، وحق من الفضول الطبيعي  
الناجم عن الرغبة في المعرفة . ما أحبت يوماً ان تلمع بتمثيل دور بارز  
في الحياة الاجتماعية ، ولا ان تنافس الفتيات والنساء للتفوق عليهن ، ولا  
وقفت ذاهلة مشدومة امام بريق القيم المزيفة ، او مظاهر الثراء العريض .  
فقد كانت مختلفة كل الاختلاف عن بنات جنسها ، خصوصاً عن تلك الابقار

١ - اي انها شريفة ، لطيفة ، في لغة اهل الجنوب . - المؤلف .

المرتدية جلود نساء ... تلك الابقار المتصنعة بسجاجة ، الثقيلة الظل ،  
الخالية من كل نكهة وقيمة ، كالقسم الاكبر من رفيقات الرجال المرموقين  
في زبدة المجتمع الباريسي . إلا ان هذه الميزة في سولانج كانت تسيء  
اليها في الظاهر ، خصوصاً الى جانب النساء اللواتي تفضلن ، لأن تحجبها  
كان يلقي ظلاً على ألقها .

واحب كوستال هذه الصفات في سولانج واحس ان نفسه ترتفع في  
هذا الحب ببساطة وثقة وارتياح .

قال لها :

— اسمعي ، يا سولانج ، انت فتاة طيبة اوطيبتك هذه ، بالنسبة الي ،  
أهم بكثير مما تتصورين . فمذ زمن بعيد والناس يبذلون الجهود ، في  
الداخل والخارج ، ويعملون بمجد عميق وصبر لا يعرف الرهن ، ليجعلوا  
من فرنسا بلداً يشعر فيه الرجل الشريف ، النظيف ، الموهوب ، الفاضل ،  
انه في منفى . وكانت هذه الجهود طويلة ، مرهقة ، لأن الشعب الفرنسي  
شعب طيب ، فيه جوهر صاف اصيل . إلا ان الحربين نجحوا في النهاية .  
واعترف لك بصراحة ان كل شيء في نفسي قد تبدل . فأنا الذي احببت  
بلادي بجرارة وايمان ايام الشباب ، وانا الذي كنت اشعر في اعماقي اني  
وهذا الوطن وحدة لا تتجزأ ، خصوصاً زمن الحرب ، غدوت اليوم  
احس اني غريب عن وطني ، وغير متضامن معه . وأخطر ما في الامر  
اني ارجب رغبة ملحة في استمرار هذه القطيعة ، ورغبتي نابعة من كل  
ما في نفسي من نزعات اعتبرها شريفة وسامية . ولكن عندما التقى فتاة  
مثلك ، وتكون هذه الفتاة فرنسية ، تتضاءل تلك الرغبة ، وتخف الحركة  
الدافعة الى القطيعة ، واسمع في اعماقي صوتاً يهتف قائلاً : « لا ، لا  
استطيع التخلي عن كل شيء ... لا استطيع مغادرة الميدان ... »

قالت :

— ليس في شخصي شيء من الخوارق . اؤكد لك اني اعرف فتيات

عديدات مثلي ، والقسم الاكبر منهم افضل مني بكثير .

— هذا ممكن ، واصارحك بانى جرّبت فتيات كثيرات قبل ان التقيك ، وكنت اعتبر تلك الفتيات « دجاجات تجرية » ، كما يقول الرياضيون في تمايزهم الخاصة . ولكنني ارى ان جهود المجتمع كلها ، وربما جهود الرجال ايضاً ، تبذل اليوم لاضفاء مظهر من القيمة على النساء الثقافات . وتتذمر المرأة من انها لا تجد من يقدرها حق قدرها ، ولكن لماذا ترضى بان يكون اقبح ما في جلستها في مقدمة المسرح ، وفي طليعة ما يسترعي الانتباه ؟ ولماذا تقبل بسهولة ما يوسوس به الرجل لتحقيرها وجعلها مهزلة ؟ لماذا تجهل او تتجاهل مصلحتها الجوهرية الى هذا الحد ؟ كلما تردّت المرأة في مساوي الانحطاط والسخف ، سواء أكان بزي جديد يجعلها دميمة ، او برقصة تمهّرها ، او بطريقة في الحديث تبرز غباءها قولاً وفكراً ، نجد وراها رجلاً يدفعها الى هذه القباحة . فلماذا لا تقارم ؟

يلاحظ الجميع ان جسم المرأة التي تجاوزت سن الشباب يصبح شيئاً مضحكاً ، ومقرفاً احياناً ، يتسلى به المصورون الكاريكاتوريون ، بينما يحافظ جسم الرجل على الكثير من رونقه وجماله حتى في الكهولة وجوار الشيخوخة . ومعنويات الرجل ايضاً تحافظ ، كجسمه ، على مستواها المهترم . اذا فقدت المرأة شيئاً من معنوياتها اضعفت شيئاً كثيراً للغاية . فهي لا تستقر إلا في احد نقيضين : السماء الاعلى ، او الدراك الاسفل . عندما تفقد المرأة وقارها وتهذيبها وادب نفسها ، تصبح خفاشاً<sup>١</sup> .

— كنت اظن انك لا تحب سوى النساء المتساهلات الهيئات .

— احب النساء المتساهلات اللواتي يحافظن على رصانتهم ووقارهن بين

الناس .

١ - استعمل المؤلف هنا كلمة Stryge ، وهي تعني نوعاً من الخفاش الاسطوري المعلق ، يقال انه يخرج ليلاً من القبور ويمتص دماء الناس وهم نيام .

— آه ، فهمت الآن !

— أتدريين ما الحفّاش ؟ اني اعني به المرأة الخالعة العذار بوقاحة . ولو كنت استعمل لغة غير مهذبة لقلت لك كلمة اخرى . ان جميع النساء المتحذقات المتظاهرات بالصون ، والنساء الطاغيات كالودلاويط ، والباذلات ما في وسعهن من الفنجج والدلال ، والمترفات على عيون الناس ، واللواتي ينشرن صورهن في الصحف والمجلات وهن في اوضاع مغرية ، وتبرج صارخ ، جميع هؤلاء اسميهن خفافيش ، واضيف اليهن اللواتي اذا نظرت الى سحنهن فلا يطيب لك إلا ان تصفعهن .

ان رجال الديانات والفلاسفة وعلماء الاخلاق الذين لعنوا المرأة واحتقروها انما رأوا هذا الصنف من النساء ، فحكموا عليها . ولكنهم اخطأوا لانهم لم يحددوا النوع الذي استوجب سخطهم واستنزل لعنتهم . واعدوا الى سؤال لا بد من طرحه : لماذا لا تبادر النساء الرصينات ، الشريفات ، الى الدفاع عن نفوسهن للتبرؤ من عار الخفافيش ؟ ألا يدركن الضرر الذي تلحقه بهن المرأة الحفّاش ؟ ان ألد اعداء المرأة هي المرأة . قلت لك ، منذ قليل ، اني عندما التقيت امرأة شبيهة بك او بما يبدو عليك من المزايا يتحسن رأيي في بسلادي . وينذهب بي الفكر الى ابعاد من ذلك ، فيتحسن رأيي في جميع النساء ، وألمس في نفسي استعداداً لمعاملتهن معاملة افضل . واذا كان الرجال يسيئون التصرف مع النساء ، فلأنهم يخافونهن ، ولأنهم موسوسون بالخفافيش اللواتي عرفوهن . ان القسم الاكبر من غلظة الرجال ، ومن حوادث المهجر ، وفسخ الخطبة وغيرها التي تتألم منها النساء لناجم من ان الرجل يرى في المرأة ، او يخيل اليه انه يرى فيها خفاشاً ، سواء أكان هذا الحفّاش ظاهراً او خفياً ، حقيقياً او وهمياً . ومهما تكن المرأة لطيفة ومحبة ، ومهما تبذل من الجهود والمحاولات ، فانها تعجز عن نحو هذه الصورة لها من ذهن الرجل . وهو في مثل هذه الحال يهاجم او يلوذ بالفرار . وفي كلا الحالتين يعامل الرفيقة

الطبيعية لحياته معاملة العدو . وهكذا ترين ان الصالحات منكن يذعن  
غرم الطالحات .

— قل لي ، ألم تمر بحياتك امرأة خفاش ؟

— لا ، قطعاً ! ولا استطيع الادعاء بفخر الدفاع عن نفسي لاني  
استفظمين الى اقصى حد . أيمتلك مثلي بهذا الصنف من المخاوف ؟ لا ، ولا  
ريب في اني ساموت وانا برىء من هذه الخطيئة . لم احب قط ، ولا استطيع  
ان احب ، او بالحري لا استطيع ان اطيق إلا المرأة البسيطة ، الشريفة .  
في ارباب الهند الصيلية ، كنت ارى كثيرين من الشباب ، وهم  
رجال يتحماون مسؤوليات كبيرة ، ويرتبط بهم مصير مئات الجنود ،  
تتلاعب بهم . كأنهم دمي حقيرة نساء غارقات بالحزني والعار ، دميات ،  
حقيرات ، فاسدات ، ولكن حاذقات في الذبذبة والتضنع ، بارعات في  
المنورة السمجة على طريقة النجوم السينائية . اؤكد لك ان الجاسوسات  
يجدن مجالاً واسعاً للعمل في الجيش الفرنسي .

قلت يوماً لأحد هؤلاء الرجال : « كيف تستطيع الانحدار الى هذا  
الدرك ؟ » فاجاب : « لا أجد افضل ... فاكثني بما هو موجود » . قلت :  
« اما انا فاو كنت في جزيرة مقفرة ، ولا رفيقة لي فيها سوى فتاة  
متصنعة ، وإن تكن حسناء فائنة ، لفضلت مضاجعة وكر نل من النوع  
المفترس على حب هذه الرفيقة المتظاهرة بما ليس فيها » .

لو كان لي شيء من السلطة في احدى المستعمرات ، لأمرت بطرد جميع  
هؤلاء النسوة ، او بزجهن في السجن ... لا امانع في ان يقضي جنودي  
لبائتهم مع بنات الغاب ، مع الرجال ، مع الغلمان ، مع الأن ، مع ورق  
الصبار<sup>١</sup> ، مع كل شيء . اما مع هذا النوع من النساء ، فلا . فلاضرار  
التي يلحقها بمستعمراتنا لا يتصورها عقل .

١ - ورق الصبار من الوسائل التي يلجأ اليها الرجال في الفيافي الافريقية المظفرة .  
- المؤلف .

ورأت سولانج انه يتكلم بجملة كأن في نفسه نارا مقدسة ، فتذكرت ما قرأت في كتب التاريخ المدرسية من ان الثايرين ، زمن الارهاب ' ، كانوا يقتلون مدفوعين بالفضيلة . إلا انها وافقت على جميع اقواله . وبعد قليل ، لما عاد الى اسلوبه المازح ، قالت له انها تريد ان تعد الشاي تكريرا لما ابدى من البلاغة والقوة في حديثه ، فسالها :  
- أتحسنين اعداد الشاي ؟

- انك لا تعرفني ، فانا ربة بيت من الطراز الاول . تعال معي الى المطبخ لاعلمك . وسرى الهرثين تعزفان على الكمان الكبير .  
قال لها ، وقد اصبح يعتقد ان كل شيء ممكن :  
- أحقا تجيد هرايك المزف على الكمان ؟  
- لا ، لكنها ترفعان احدى يديها عندما تنهكان بلحس صدرها ، فتبدوان كأنها تعزفان .

قال ، وهو الكاتب الذي تهمة الدقة في الوصف والتشبيه :  
- ليست هذه الصورة موفقة في نظري .  
وتبع الفتاة الى المطبخ .

وكانت الهرثان قد سبقتهما اليه ، إلا انها لم تكونا تعزفان . ولا ريب في ان السوداء كانت تشعر بان يديها باردتان ، لانها جلست ولقبتها بذنبها ، بينما احست الشقراء بالبرد في ذنبها ، فوضعت يديها عليه . ولما دخلتا الى المطبخ ، فتحت السوداء عينيها ، وترددت الشقراء قليلا كأنها تسائل نفسها هل من الموافق ان تقتدي برفيقتها ، ثم بقيت مغمضة العينين للاعراب عن قلة اكرائنها بما يجري حولها .

وكان يسود المطبخ صمت تام لا يعكسه سوى تكتكة الساعة الكبيرة . فاذا بهذه التكتكة الرتيبة تزيد الصمت بروزاً عوضاً عن ان

١ - حبة من تاريخ الثورة الفرنسية قُذرت بشدة الاحكام وقطع الرؤوس على الشبهة بعد محاكمة صورية عاجلة .

نمزه . وهو في المطبخ اكبر منه في ردهة الاستقبال ، لان هذه الردهة تطل على ساحة البناية . وتبدو البيوت المجاورة في زيّ يوم الاحد ، اي خالية من السكان . وفواقد المطابخ ، التي تكون عادةً مفتوحة في الايام الاخرى ، وتنبعث منها انغام الاسطوانات الفولوغرافية ، واصوات الخدم ، كانت في ذلك اليوم مغلقة ، وقد أُسديت ستورها ، وبدا في وسط هذه الستور ظل ثنيّة يدل على انها كانت مرفوعة طوال ايام الاسبوع ، فاذا بها شبيهة بثوب الاحد الذي ترتديه الخادومات ، وهو خالي من الذوق والافاقة .

وضعت سولانج ابريق الشاي على النار ، وتناول كوستال كتاباً من كتب الاحداث كان على الطاولة ، عنوانه « العطلة المدرسية » ، فقالت سولانج انها اعارته لابنة الطاهية التي جاءت من الريف لتزور امها وقضاء بضعة ايام بقرىها ، فاجاب كوستال :

-- هذا الكتاب للكونتيس دي سيفور لا يمكنك ان تتصورني الى اي حد ينطبق وجوده هنا على تفكيري بك منذ لحظة . كنت افكر بانك « الفتاة الصغيرة القدوة » التي يجدها هذا الكتاب ، فانت انت بطلة « مرغريت دي روزبورغ » ، ان فتوّتي كلها تنبث بظهور هذا الكتاب الاحمر ، وتنبث مختلطة بك . كم تعجبني هذه الحال ، وكم انا سعيد بها !

وتصمعا ، واقفين ، الكتاب المفتوح على الطاولة ، فقرأ كوستال :  
 ... « كانت العطلة المدرسية قد أشرفت على نهايتها ، والاولاد يتبادلون الحبة اكثر فاكثر ... » ، ثم قال :  
 .. ما اجل هذا القول ! يبدو لي اننا نحن ايضاً نتبادل الحب اكثر فاكثر .

---

١ - كاتبة فرنسية ( ١٧٩٩ - ١٨٧٤ ) ولدت في روسيا وألّت كتباً للاحداث : « شفاء صوفيا » ، « الجنرال دراكين » ، امتازت بالبساطة ، وبساطة الاسلوب ، ورواقه السرد ، والوصف . وتعتبر مؤلفاتها من الفضل ما كتب في هذا الباب .



فاجابت بلهجة كلها طفولة وبراءة ، وهي تدير وجهها اليه :

— اوه ! نعم . هذه هي الحقيقة .

والقت رأسها على رأسه كما يفعل كل اثنين يقرآن في كتاب واحد .  
فدفع درفة النافذة بيده ، خوفاً من ان يراها احد ، فساد المكان  
ظل قائم ، وشرعت سولانج تقرأ :

— « انطرحت مرغريت بين ذراعي ابيها الذي راح يقبلها حتى  
احمرت وجنتاها ... »

وضحكا معاً ، لأنه قال لها يوماً ان قبلاته كست وجهها بلون  
الارجوان ، ثم تعانقا ، والتقت منها الشفاه في قبلة طويلة نعمة .  
وبعد قليل ، قال كوستال :

— ما اروع الكونكيس دي سيقور ! ففي كتبها روح الطبقة الرفيعة  
من الناس . ومن يقرأها من العامة يشرب حتى الثالثة مرارة بعده عن  
هذه الطبقة الممتازة . ان جميع الاشراف الصالحين يحملون لقباً ارسقراطياً ،  
وجميع الرعاع الاشرار محرومون هذا اللقب . وهذه افضل وسيلة للتعرف  
بين الناس . اوه ! اوه ! هذه جملة تبدو لي كأنها موجهة الى شخص  
اعرفه : « اود الآن ان تروي صوفيا لنا كيف وقعت تلك الحادثة ... »  
قالت سولانج :

— وهل تعني انا هذه الجملة ؟

— اجل ، يا عزيزي روزبورغ ، أليس في فتوتك حادثة صغيرة ؟

— اي حادثة ؟

فراح يضحك من سداستها .

وبدا الماء يغلي في الابريق مرسلًا صوتاً شبيهاً بالغناء الخافت . ولما  
ارادت سولانج ان ترفعه عن النار منعها كوستال قائلاً :

— دعني هذا الماء يغلي . ألا ترين انه يجد متعة في الغناء ؟ يتخيل لي

اني اسمع الف ضجة في هذه الغرفة التي بدت لي منذ قليل غارقة في الصمت .

وقد بدأت اسمع هذا الضجيج تدريجياً كما يعتمد المرء رؤية الأشياء في الظلام عندما تطول اقامته فيه . ألا تسمعين الف ضجة صغيرة حولك ؟  
- بلى ، اسمع ...

- كيف تقولين : « بلى ، اسمع » ؟ يا لك من مدعية ! ان للكتاب وحدهم الحق في ان يتخيلوا وجود اشياء غير موجودة . تستحقين ان امتحنك لانك اجبت دون تفكير : ألا أخبريني ما هي هذه الضجات التي تدعين انك تسمعينها ؟

وامسك وجهها براحتيه ، فقالت :  
.. هناك ضجة قطرات الماء التي تتساقط ببطء من الحنفية في البليوطة ، وهي ضجة كامدة صماء ؛ وضجة الماء في داخل ابريق الشاي ، وهي واضعة نشيطة ؛ وضجة القطرات التي تتساقط من فوهة الابريق على حديد الرجاق ، وهي شبيهة بضجة القاطرة المتأخرة للانطلاق ، وقد اشتد فيها ضغط البخار ؛ وضجة البخار الذي يرقص عليه غطاء الابريق ، وهي تشبه زفرة من يتنفس الصعداء مرتاحاً ...

فابتسم لها ، وشد قليلاً على خديها براحتيه وهو يردد قولها :  
- ... زفرة من يتنفس الصعداء مرتاحاً ...

واستطردت قائلة :

ان جميع هذه الضجات منتظمة ، رتيبة . ولكن هناك ضجات اخرى لا تخضع لنظام . ألا تسمع تكتكة قوائم الكرسي على البلاط ؟ فالهرة السوداء تحك رأسها برجلها وهي جالسة عليه . والطاولة تقضض كأنها تمد قوادمها وتمطى من الكسل لاننا في يوم احد . ويتبادر الى الذهن ان هذه الضجات لا وجود لها إلا يوم الاحد ، كأن الادوات البيتية تنعم بالعطلة وتعتبر عن سرورها . والساعة الكبيرة تنظم بدقاتها جميع هذه الضجات ، كأنها مديرة اوركسترا تعزف قطعة من موسيقى الباليه في الجوقة المسرحية الايطالية ...

قال كوستال وهو يرفع اليها وجهه :

— حقاً ، يا صغيرتي ، اننا في يوم الاكتشافات المدهشة . فمن اين جئت بهذه الروائع ؟ انك تنعمين بموهبتين كبيرتين : دقة الملاحظة ، واكتشاف الصورة المعبرة ، وهما الموهبتان الاساسيتان في فن الكتابة . كم كنت غطئاً يوم حسبتك خالية كلياً من الخيال !

وكانت الفتاة ، في هذه الاثناء ، تتلقى بكفها قطرات الماء المتساقطة من الحنفية ، وتبعثرها على حديد الوجاق الساخن ، فتتبخر مرسلة ضجة خافتة شبيهة بخفيف ثوب من الحرير . قالت :

— ان القطرات الصغيرة تركض وتركض على الحديد الحار كأنها تحاول الفرار من التبخر المتربص بها .

وكان كوستال ينظر اليها بعيني رجل طال تحديقه الى اللبيب ، ثم قال :

— اجل ، انها كالجنود الذين يركضون ويركضون قبل ان يمزقهم انفجار القنبلة . فهذه القطرات تهرب الزوال ! واذكري انك اكتشفت هذا !

وتوقفت عن التقاط القطرات وبعثرتها ، فتوسل اليها قائلاً :

— ارجوك ان توتّي كم قطرة بعد ، اكراماً لي .

فراحت تبعثر القطرات من جديد ، ثم توقفت ، فقال :

— بعد ، بعد ! لا اشبع من رؤيتها تتلاشى في دنيا العدم .

— كأني بك تجد لذة في هذا المشهد .

— انه المشهد يذكرني بكلمة كان يرددتها قائد فارسي من قادة داريوس كلما رأى جندياً يسقط صريعاً في احدى المعارك : « هوذا معنوه آخر يريحنا من وجوده ! » والحق يقال ان هذا القائد فيلسوف ، ولكنسه ليس من النوع الجدير بالتشجيع .

وكانت سولانج منحنية على الطاولة تتصفح الكتاب الاحمر المذهب ، فقالت :

— اود لو اجد جملة عن العطلة المدرسية كانت تحدث في نفسي تأثيراً

عميقاً يوم كنت طفلة .

وفي ذلك الجو الصامت ، العابق بالسحر - سحر الماء المتساقط قطرات متباعدة من الحنفيه ، وسحر الماء يغلي في الابريق ، وسحر النار المستعرة في الموقد ، هذه النار التي لا تخمد كمنار الاساطير الميثولوجية ، وسحر المهرتين الجالستين بكل هدوء ، وحق سحر ذلك اليوم الكئيب ، كأنه يوم شتاء في قلب الصيف - احس كوستال انه في محيطه العائلي القديم ، يحيط الحياة الارستقراطية المحافظة بما فيها من قتل ، وكتب اناشيد الاطفال ، ودمى ، وحكايات « اندرسن »<sup>١</sup> ، وعلب موسيقى ، وهدايا عيد رأس السنة ، وجميع تلك الاشياء الصغيرة المحببة الباقية من انكلترا القديمة ، وفرنسا القديمة ، لابناء الاسر الارستقراطية ، والى جانب هذا كله سحر سولانج الصامت ، الصامت حق عندما تتكلم ، فاذا هي « سندريلا »<sup>٢</sup> جديدة تذوب رقةً وحياء . ألم تقل له يوماً : « لو تواريت » عن الانظار اسبوعاً لما انتبه اهلي لاختفائي ، لان الفسحة التي اشغلها في هذا البيت صغيرة لا تسترعي الانتباه ! « ولكن هذه الصغيرة المهمة ، المبهولة ، بعثت دنيا كانت راقدة ، وقدمتها له ، كأنها خلقتها مصا سحرية ... وهذه الغريبة البسيطة الساذجة فتحت له غرفة طفولتها ، واعادت اليه اريج ماضيه البعيد .

واذا بها تصيح :

« ها هي ا وجدتها . انها الجملة التي كانت تملأ نفسي احلاماً يوم كنت صغيرة . قال بولس لصوفيا : « هل نسيتني ؟ » فاجابت : « نسيتك ؟ لا !

١ - هانس كريستيان أندرسن ( ١٨٠٥ - ١٨٧٥ ) كاتب دانمركي ، ألف روايات امتارت بمخضب الخيال ، وجمال الصور ، والكأابة الشعرية العذبة .

٢ - اشارة الى اسطورة فرلسية خلصتها ان اميرة حسنة قست عليها خالتها زوجة ابوها ، فعاثت في الذل والحرمات الى جانب ابنتي خالتها الدمييتين الراقلتين بالرغد والترف . إلا ان جنية الاميرة ألبيتها ذات مساء افخر الثياب وجعلتها تظهر في قصر ابن الملك الذي احبها . ولصنها هربت تاركة احد نعلها ، فامتدى الامير به اليها واقترن بها .

بل كنتَ نائماً في قلبي ، فما تجرأت على ايقاظك ! »  
 فالقى كوستال نظره على الكتاب ليقراً بعينه هذه الجملة ، وهو  
 يسائل نفسه : لماذا يشعر شعوراً عيقاً بأنه يعرف هذه الجملة من زمن  
 بعيد ، قبل ان يتعرف الى سولانج ؟ راح يطرف باجفانه وهو يجهد  
 ليتذكر . ثم انجلت له الحقيقة ، فارتعشت وجنتاه . لقد قالت له  
 امه يوماً في هذه الجملة ما قالته الآن سولانج ... قالت له امه : « لما  
 كنتُ صغيرة ، كانت هذه الجملة تملأ نفسي اضطراباً ، فارددها بصوت  
 خافت ، ولا ارتوي من ترديدها ... »

كان يجد متعة خاصة في التحدث الى سولانج عن امه . اما الآن  
 وقد لس بكل حواسه ان الجملة نفسها احدثت تأثيراً واحداً في نفس  
 امه ونفس الفتاة ، على ما بينها من التفاوت في الزمن ، فقد احس بمواطف  
 طاغية تجيش في صدره ، فقال لسولانج ، من غير ان يعلّق بشيء على ما  
 يمتلج في صدره ، انه يحس بقوة هائلة تقعم قلبه . وخيّل اليه ان هذه  
 القوة تنهمر على الفتاة كأنها اشارة سحرية تدل على مصيره ومصيرها .  
 واراد ان يخرج من ذلك الجو الثقيل ، فقال :

— وما رأيك في شبح الماريشال دي سينفور<sup>١</sup> في البيت المسكون ؟  
 أيمكن ان يخشاه الصبيان الصغار ؟ اعترف لك بأنه كان يرعبني ...  
 وشرعا يقرأت القصة معاً في الكتاب حتى وصلا الى المكان الذي  
 وضع فيه الشبح سن خنجره على صدر الماريشال ، فقبّل هذا نجمة الروح  
 القدس المعلقة على وشاحه ، فتأثر الشبح وعفا عنه .  
 ولدى هذا المشهد جاشت في نفس كوستال مشاعر غريبة مدهشة ،  
 فاغرورقت عيناه بالدموع ، واثابته رجمة ارتعدت فيها اوصاله .

---

١ - فيليب هنري ، مركيز دي سينفور ( ١٧٢٤ - ١٨٠١ ) ، مارشال ، فرلسي ،  
 تول وزارة الحربية من سنة ١٧٨١ الى سنة ١٧٨٧ . وقد ورد ذكره في  
 روايات الكونتيس دي سينفور .

قال كوستنل لسولانج وهو يرتجف ، وعيناه مغرورتان بالدموع :  
 - اما كنت حدثاً ، كانت الدموع تنهمر من عينيّ كما وصلت الى  
 هذه الجملة من هذا الكتاب ، كما حدث الآن . كنت ابكي لأن الماريشال  
 نجا من الموت بفضل شجاعته ، ولأن الشبح لم يكن شريراً فتأثر بالشجاعة .  
 وانا ايضاً ، مثل هذا الشبح ، لست شريراً ، بدليل اني ما ازال  
 أبكي حتى اليوم حيال هذا المشهد . واني مدين لك بكل ما أنعم به من  
 منعمة روحية ، فقد حولتني الى افضل ما كان فيّ من المزايا ، ووضعيني  
 في جو اسرتي ومحيطها ، يوم كنت انساناً صالحاً محترماً من اناس صالحين  
 ومحترمين . انا اعيش اليوم بين كتاب ، وقد غدوت مهرجاً وفاسقاً  
 فاسد الخلخال . ما هي قيمة حياتي اذا استثلينا منها فترة الخدمة  
 العسكرية في اثناء الحرب ؟ لم اكن انساناً صالحاً ومحترماً الا في  
 حدائقي .

وانحنى واضعاً جبهته على الكتاب المفتوح وهو يقول : « اني اعمل  
 الآن ما تملين عندما تطفئ الكهربي كي لا تري وجهي وما فيه من  
 آثار ذنوب لم يحلّ بصاحبها العقاب العادل » .

اما هي فكانت واقفة الى جانبه تداعب شعره بلطف وحنان . فأخذ  
 يدها الاخرى بين يديه ، واحس انها حارة كحفنة من رمال الصحراء ،  
 ثم رفع رأسه وفي نفسه رغبة جامحة الى البوح بحقيقته . وفي اغلب  
 الاحيان كان يطرح هذه الحقيقة في النفوس المنحطة الحائرة ، فتضيع ،  
 ولكنها لا تضيع اذا طرحت في نفس طاهرة . وليس لهذا الامر قاعدة

راهنة . قال لها :

— اذا تلبّعتِ فيّ شريانا معينا ، فقد تجدين سلسلة متواصلة من الاشياء الصالحة ؛ واذا تلبعت شريانا آخر ، فانك تقفين على سلسلة من الفظائع . وليست هذه الفظائع صغيرة حسب تحديد القانون هنا او هناك ، اي حسب الاعتبارات والآراء في بعض الاماكن ، انما هي فظائع بالغة القبح ، لا يغتفرها الوجدان الانساني الحي . ولو لم ارتكب هذه الفظائع لكنت الآن في هوة من اليأس سحيقة القرار ، ولكان ياسي في شيخوختي اشد وادمى . لا اُتهم نفسي امامك رغبة مني في التواضع ، بل رغبة في اظهار الاشياء كما هي ، لترى انك ايضا كما هي ، من غير ضعف ، او خوف ، وهذا ما يعجبني وارتاح اليه .

ورآها تهم بالكلام ، فقال مسرعا وعيناه شاردتا النظر ، كأن عليها حجابا :

— لا ، لا ، دعيني احدثك عن النزعة العاتية التي تُختال في اعماقي . ثم استطرد بجرارة وقوة ، فقال :

— دعيني اظهر كما انا ، بكل حقيقي . ما الذي كنت احدثك عنه ؟ آه ، تذكرت ، كنت احدثك عن الشرابين ... حسنا ، فهذه الشرابين تمند احيانا متوازية ، واحيانا تتقاطع فتتشعث ، وتختلط ، وتلمب فيما بينها . وانا احب اللعب . وفي بعض الاحيان يدوب احدهما في الآخر . أفهتِ ما اعني ؟ الصالح والطالح ، الخير والشرير ، يختلطان معا ، ويتعذر التمييز بينهما . ففي ما اعمل من شرّ جزء احبه ، وجزء لا احبه ؛ وفي ما اعمل من خير جزء احبه وجزء لا ابالي به .

وهنا سعلت احدى الهرتين ، ثم أكمل كوستال حديثه قائلا :

— لا ريب في اني أجد متعة في الشر ، وأجد في الخير متعة اكبر واعق . ولكني لست واثقا كل الثقة من ارتياحي الى الخير ... أذكركم ؟ التقينا يوما ، فبادرتني قائلة : « كيف معنوياتك ؟ ارجو ان تكون حسنة » .

فاجبتك : « اجل ، والفحش ايضا على ما يرام »<sup>١</sup> . وهذا ما ينبغي لك ان تدركيه . احذري ان تفضليني على الفكرة التي كوّنتها عني في ذهنك . يجب ان تنظري اليّ نظرة عامة تشمل شخصيتي برمتها ، بما فيها من التواضع ، كالاصلابات والمنفعات . ومهما يكن من الامر ، فقد بعثت فيّ المتعة بالحير . ومن الضروري ان تعلمي اني تتمتع وسأظل انتعم بالشر ، وبالضرر الذي سألحقه بالناس ، ولكني لن اتمتع ابداً بالضرر الذي سألحقه بك انت ، اقولها لك جاداً صادقاً ومن اعماق القلب .

وخرّ جاثياً على البلاط وهو يرتعش مقاوماً رغبته في مصارحتها بانه قد يقتون بها ليملاً نفسها سروراً . ولما كانت جالسة جانبياً ، على حافة البلّوعة ، واستدى رجلها متدلية ، لثم طرف تنورتها ، ثم انتزع خشفها الرمادي اللون ، ووضع قدمها على شفتيه في مكان من الجورب فيه رتق صغير . وفي اغلب الاحيان كان يقبل من وجهها الاماكن الاقل رونقاً وجمالاً ، ظناً منه انها بملابسها الجميلة للجميع ، بينما هي له وحده بما فيها من عيوب . وما هو يقبل الآن مكان الرتق من جوربها ، لأن هذا الرتق افسح له في مجال التفكير انها فقيرة قليلاً ، وهذا ما كانت يراود ظننه في بعض الاحيان ، وانها ليست من الاثرياء الحقيقيين ، وليس لها من الرغد والترف إلا المظهر الخداع ، ما يجعل الضرر الذي يلحقه بها يوماً ما اقبح واقلع مما كان يعتقد . ولما علم انها متوعدة قليلاً ، احس بعواطفه تغلي في صدره كما يغلي الماء على الموقد . وبعد سكوت الويل قال لها :

---

١ - استطاع المؤلف ان يتلاعب هنا بالألفاظ تلاعباً بارعاً ، لأن كلمة Moral بالفرنسية تعني « معنويات » اذا كانت اسماً ، وتعني « كرم الاخلاق وصلاحها » ، واذا ما تكون في هذا المعنى زمناً . ولفظة Immoral هي عكس Moral التي تعني حسن الاخلاق . لذلك تمكن المؤلف من جعل بطله كوستال يتلاعب بالألفاظ والمعنى ؛ فلما سأله سولانج عن « معنوياته » باستعمال كلمة Moral . اجاب باستعمال عكس هذه الكلمة بمنها الآخر ، فكانت الجواب على جانب كبير من جمال البيان .



- انت ، انت الرصينة الهادئة كأنك تحاولين استعطاف القدر ... كم اريد لك الخير ! وهذه نزعة في نفسي من أغرب النزعات . وما أغرب ان يريد المرء خيراً للآخرين ! ان ما يجب هو ان تكوني دائماً مسرورة ، عندما تخرجين من بين ذراعي ، طبعاً . فعندما نكون معاً ، اود دائماً مكافحة الضرر الذي احدثه فيك !

ثم صاح بنزق :

- لا تخبيني ! لا تخبيني بذلك فقط تنقذين نفسك من العذاب الذي ينتظرك من حيي لك . اعلمي جيداً ، ولا تنسي ، اني مجنون . لست مجنوناً وحسب ، بل انا مجنون ايضاً<sup>١</sup> .

واحس باصابع رجلها تتحرك تحت شفتيه . ومن خلال نشوته بقيض عواطفه ، رأى ان هذه الرجل هزيلة قليلاً ، وكان يفضلها اقوى وأوفر عافية . ثم رفع رأسه واستطرد قائلاً :

- التمس منك العفو عما سيحدث في المستقبل ، يا مرغريت دي روزبورغ<sup>٢</sup> . ان الجزء الالهي من نفسي هو الذي يلتمس منك المغفرة ، مسبقاً ، عن الضرر الذي سألحقه بك ، على الرغم من اني لا اؤمن بالله ، دون ان يكون هناك اقل سبب لزوال الايمان من نفسي . وأسألك هذا الغفران وانا التم بالفكر نجمة الروح القدس المشعة<sup>٣</sup> التي احملها انا ايضاً على قلبي ، وانت تكن غير منظورة . وتذكري جيداً ، يا روزبورغ ، اني

١ - استعمل المؤلف هنا لفظة : Quo ، بمعنى : وحسب ، ولفظة : Aussi ، بمعنى :

ايضاً ، فقال : Je ne suis pas que fou, mais je suis aussi fou .

ومن المرجح انه يعني : لست مجنوناً بسيطاً كل ما فيه جنونه الطاهر القابل الحطر ، بل انا مجنون فنيلاً عما في من صفات اخرى تسبب جنوني وتجمعه اشد خطراً ، لان الناس لا يرونه بوضوح ولا يتخذون شره .

٢ - بطلان القصة التي كانت يقرأها معاً في كتاب الاحداث من تأليف الكونتيس دي سينفور .

٣ - اشارة اخرى الى احدي حوادث هذه القصة .

سأضربك ، ولكني لن اتمتع بالضرر الذي سالحقه بك .  
ورأى الهرة الشقراء تتلأب حتى تكاد تخلع فكها ، فخطبها قائلاً :  
- أتراني اضجرتك ؟

وتعاقبت في ذهنه الافكار المتجانسة والمتناقضة ، ثم تغلبت فيه نزعته  
الى المزاج والمداعبة . وخلال هذا الحديث الطويل ، كان يحس انه بين  
تيارين من الهواء عاصفين ومتعاكسين يدفعانه تارة الى اليمين ، وتارة الى  
اليسار .

وهبوا واقفاً ، فوقفت الى جانبه ، والقت معصمها على صدره بحركة  
غرغرية لدى جميع الفتيات الصغيرات ، او لأنها تعلمت هذا المشهد من السينما .  
لم تنهضه حين جثا على قدميها ، ولم تذرف دموعاً واحدة حين بكى .  
لم تكن قد ازفت بعد الساعة التي يستطيع فيها ان 'ييكبها' . وبينما كان  
يتكلم بجملة تضارع الابتها ، كانت تستمع اليه وهي واثقة بنفسها ثقة  
لا تنال منها حوادث تلك الفترة من حياتها ، كأنها تستمع الى طفل  
يهذي في المنام .

قالت له : لن تعمل شيئاً 'يضر بي' ؛ أعلم هذا حق العلم .  
فتضايق من انها لا تعرفه اكثر ، وراح يقول في نفسه : « ما حيلقي  
في ثقمتا بي ؟ »

وفي هذه الاثناء كانت السماء قد صفت وانمرقت ، ففتحت سولانج  
النافذة ، وكانت الكنارات تغرد في الخارج ، فاصبح من المحتمل ان تقع  
عليها العيون ، وهما في عناقها الطويل . فكرر كوشال بهذا الاحتمال ،  
ولكنه لم يغلث النافذة ، كأن شيئاً قد حدث فاكسبها حق العناق على  
عيون الجميع .

وظلا فترة متلاصقين ، كالسما والبحر ، عندما يختفي خط الافق في  
بعض ايام السفاء وركود الرياح ، ثم انفصلا ، وكل منهما مرتاح الى الآخر .  
وفي مساء ذلك النهار الذي تحدثا فيه خمس ساعات ، بكل ما فيها

من الرغبة في الجد وقول الحقيقة العارية ، دون اقل مداعبة - حتى انها احتقرا هذه المداعبة - اصبحت كل شيء بينها جديداً ، فما استطاع كوستال ان يجد سبيلاً الى النوم . فلاحترام الذي احسها لها نفى النعاس من عينيه . وحدث هذا الاحترام في جسده توتراً كله رجولة لم يشعر بمثله خلال ساعات الطهارة التي امضاها في ذلك المطبخ ، فاذا بهذا التوتر ينبري قوياً وخالياً من كل رغبة او صورة جنسية شهوانية .

قال في نفسه : « ان » المتطرفات »<sup>١</sup> يذكرون في خريطة الحب بلدة اسمها : « عطف على احترام » . ولم يكن قد خطر في باله حتى ذلك الحين ان الشعور بالاخلاق الحسنة يحدث مثل هذا التأثير في نفسه ، وكان اعجابه به كبيراً .

واحس انه عامل سولانج ، في هذا اليوم ، معاملة الخطيب للخطيبة ، وانه من المستحيل ان لا تكون قد احسنت مثل احساسه . وللمرة الاولى في حياته رأى انه من المحتمل ان يتطقي « هيبوغريف » الزواج معها ، اذا اعربت يوماً ما عن رغبتها في الاقتران به . وكان يعلم علم اليقين ان الاقدام على هذه المغامرة ضرب من الجنون المطبق ، وان الزواج الذي كان يقول فيه قول « دون كيشوت »<sup>٢</sup> : ليس من المحتمل ان تراودني فكرة الزواج حتى مع الطائر الاسطوري « فينيق »<sup>٣</sup> ، سيكون بالنسبة

١ - فئة من النساء الفرنسيات المبالغات في التطرف رادعاء المعرفة ، في القرن السابع عشر ، اشتهرن بالفلسف والساجدة وحب الظهور ، وقد صورهن « موليير » في تمثيلته *Los Précieuses Ridicules* تصويراً بارعاً يثير الضحك . ومن مبتكرات هذه الفئة انها جعلت للحب خريطة جغرافية فيها انهار « امانة » و « هيام » ، ومدن « عاطفة » و « وصال » و « خيانة » ، الخ ...

٢ - بطل قصة شهيرة للكاتب الاسباني « سرفنتس » ، وهي من زبدة الادب العالمي . ويرمز هذا البطل الى اللسان الثالي الذي يصارع المتألم فتنصرعه ، لانها قوية وهو ضعيف .

٣ - طائر اسطوري قيل انه كلما بلغ الف عام من العمر أحرق نفسه في الشمس . ثم يمت حياً متجسداً للشباب . رغبة مؤرخون يذهبون الى ان اسم الفيليبين مشتق منه ( راجع كتاب اساطير الاقدمين للخوري ميخائيل غبريل ) .

اليه ، بوصفه كاتباً ، نهاية مؤسسة ، بل كارثة ، لما يفرض عليه من الواجبات ، وارهاق الاعصاب ، والحاجة الى المال واضاعة الوقت ، ناهيك بما يخسر . وصفه رجلاً ، لان الحرية ضرورية له كالمواء الذي يتنفسه ليبقى حياً . اما « الهيبوغريف » فلا يمكن ان يحمله إلا الى جهنم ، ولكن الزواج بسولانج كان شبه بهوة سحيفة القرار ، انفتحت امامه فجأة ، وراحت تجذبه اليها بقوة لا تقاوم .

من  
 بيار كوستال  
 باريس  
 الى  
 اندريه هاجو  
 سان ليونار

٢١ حزيران ١٩٢٧

ايتها الانسة العزيزة !

لي ابن عم ، ما يزال يافعا<sup>١</sup> ، صريح القلب ، لطيف المشر ، ولكنه على  
 جانب من الطيش ( والذنب في ذلك ذنب ابيه الذي لا يطاق ) ، كان  
 يوما يتنزه ، قتلن لاييه ، وخاطبه قائلا :

— ألو . أهذا انت يا ابي ؟

اجاب الأب :

— اجل ، ماذا تريد ؟

قال الفتى :

— لا شيء سوى اني مسرور ، اتمتع بما احب من التسلية ، وهذا ما  
 اردت ان اقله لك .

وانا كنت مسرورا ، أمس ، في مطبخ . وقد استيقظت طيبتي في  
 موجة سروري ، فأحببت ان اخبرك بهذا الحدث ، وان اعلم كيف  
 احوالك . اخبريني باختصار . لا اكثر من صفحتين . اعتقد انك كتبت

---

١ - يقصد المؤلف ابنه غير الشرعي . راجع الحلقة الاولى : «الصبايا» . — المؤلف .

الي في الآونة الاخيرة ، ولكنني اعترف لك باني لا أتذكر شيئاً مما جاء في رسائلك . قد اكون اكتفيت بقراءة بضع جمل من بدايتها ، لا اسألك : أسيده أنت ؟ لاني اعلم ان السعادة ليست مقدرة لك . وهذا أمر أراي مقتنعاً به كل الاقتناع . ولكن ، هل الاحوال حسنة نوعاً ما ؟ الى اللقاء . لا تستطيعين ان تتصورى كم انا طيب ومستعد لعمل الخير مدة ربع ساعة . « فرصة سانحة لمن يريد اغتنامها » .

ك

في حياتي كلها ما دخلت مطبخاً . انه مكان مدهش ، فيه كنوز من الامكانات . فكيف كنا نعيش الى جانبه ولا ندري به ؟



لر كانت هذه الرواية موضوعة ، حسب الاصول المرعية في فرنسا ، لتجتم ان يكون مشهد المطبخ في نهايتها ، ولكان الجميع على ما يرام من الرضى والسرور : العقلاء المتمسكون بالقواعد ، لأن المشهد القمة يجب ان يكون في النهاية من كل رواية موضوعة على الطريقة الفرنسية ، اي حسب المنطق ، ودعاة الاخلاق الكريمة ، لأن هذا المشهد يعمل الأمل بأن بطلي الرواية سينتهيان الى الزواج ، وهكذا تتمّ القصة به اطلالة على قطعة زرقاء صافية من السماء ، كما يقولون ، فتكون الرواية درساً مفيداً من أولها الى آخرها ، لان الروايات الفرنسية ، كالفوس المسيحية ، تحتفظ بقدرتها على الخلاص في النهاية .

ولكن الحياة التي لا تجيد العيش تزعم ، بكل غباء ، انها قادرة على التفلتت من لياقة الرواية الفرنسية . وفي القصة التي نرويها ، كما جرت بالحقيقة ، يقع مشهد المطبخ الذي اكتشف فيه كل من كوستال وصديقه مناطق محترمة من شخصيتها ، وهما جنباً الى جنب ، موقع قمة حقيقية ، ولكن له من القمة مزاياها ونفائصها ، لانه ، بعد بلوغ القمة ، لا بد من الهبوط . وقد انتهى هذا المشهد دون ان تكون له نتيجة .

ولما التقى الحبيبان من جديد ، بعد ذلك المشهد ، لزمّت سولانج الصمت ، وكادت تبدو كئيبة . ربما كانت لكآبتها اسباب ، وربما كانت دون سبب . وقد تكون بقيت كما هي في حالها العادية . إلا انها كانا قد ارتفعنا بعلاقتها الى ذروة غير مألوفة .

كانت بمض ملاحها وبعض حركاتها العفوية تبعث فيه الشك بانها تحبه

حباً عميقاً ، اذ لم يكن وجهها يشرق ابتهاجاً عندما تراه ... ومنذ خمسة عشر يوماً لم تفكر بتظهير الصور الشمسية التي اخذتها له ... وبينما كانت كثيرات من النساء يغمرنه بفيض من العناية والتعجب ، كانت هي متحفظة ، لا تبدي ولا تعيد ...

قالت له مرة : « ليس في حبنا حماسة جامحة ، لا من جهتك ولا من جهتي ، وهذه ضمانات لمئات مودتنا » .

وكانت هذه الـ « لا من جهتك » صدى لما قاله لها في ما مضى من انه غير ولهان بها . ولكن الـ « لا من جهتي » بدت له على شيء من البرودة .

وراح يفكر قائلاً في نفسه : « ان سولانج مصباح محجّب ، لا ريب في انه مضيء ، ولكنه لا يشع » .

وتبين له انه لا يكاد يبتعد عنها حتى يزول تأثيرها عليه كأن شخصيته المستبدّة قد طغت على شخصيتها الضعيفة . فهو الى جانبها يؤمن باستقامته وطيبة عنصره ، فاذا ابتعد عنها عادت تعتلج فيه الرغبات الملتوية الشريرة . انه بطبعه شديد الحذر كأمر مطلق ، ودائم الاستعداد للاعتقاد ان الآخرين يريدون به الضرر الذي لا يستلطف هو عن الحاقه بهم . ودون ان يلتبه ، بدأ 'يُحبل' نفسه المقلقة في شخصية الفتاة المائلة في ذهنه ، فاذا هو امام سولانج اخرى غامضة ، معقّدة ، كأنها انعكاس له . لقد خلقها خلقه جديدة على صورته ومثاله في نظرته اليها .

سألها يوماً : « ما رأيك في مداعبتي الاولى لك ، في غابة بولونيا ، خلال لقائنا الاول ؟ » فاجابت بانها 'دهشت' دون استياء ، وبأن موجة من الكره استولت على شعورها . وعلى ضوء هذه الصراحة راح يبالغ في تقديره ، ويعتبرها بليدة جسدياً ، ويقارن ، على صعيد المتعة الجنسية ، بينها وبين غيغيت وغيرها من النساء الملتهبات ، ثم يقنهد آسفاً ، ويعطيها على اجتهداها النرامي علامة ٥/٢٠ . وامعن في التحليل مدفوعاً برغبته الدائمة



في ابتكار النظريات وفي المقارنة بين الرجل والمرأة ، فشرع يقول :  
 « الرجل لا يحب يقلبه إلا المرأة التي اشتهاها اشتهاً جنسياً . اما المرأة  
 فتحب أولاً بقلبها ، ومن هذا الحب تنبع الشهوة الجسدية . الرجل الدميم  
 محبوب ، اما المرأة الدمية فلا . المرأة المحبة لا يهملها ابداً يبقى الرجل  
 الذي تحبه يومين دون ان يخلق ذقنه ؛ وليس هناك رجل واحد يرضى  
 بان يقبل امرأة ملتحية » .

وفي بعض الاحيان كانت برودة سولانج تعجبه ، اذ يجد فيها ذريعة  
 للمستقبل ، ومخرجاً للفرار الى حب جديد ، والى غزوة موفقة يغتم فيها  
 رفيقة من نوع آخر .

لو ظلمت سولانج كما كانت يوم الأحد في المطبخ ، لكان من المحتمل  
 ان يقرن بها . ولكن اذا ارادت هجره ، وكانت البادئة في اعلان  
 القطيعة ، فانه سيهجرها ولا يبالي . ليس في العالم انسان يحتاج الى  
 وجوده إلا ابنه ... وليس في العالم مخلوق لا يحل محله مخلوق آخر .  
 وعلى هذا الاعتبار لم يكن كوستال يشعر بالغيرة ، بل كان يعتقد ان  
 الغيرة من الاحاسيس الشعبية الحقيرة . وسواء أدلت الفتاة في حبه ام  
 هجرته ، فالامر ان في نظره متساويان ، على ما فيها من تناقض ، لأنه  
 قادر على الانسجام مع كل منها بسهولة ، وارتياح ، وباقصى السرعة .  
 فهو يتحدث سحياً بقدر ما يتحدث حب رفيقة الساعة ، وينساها اذا شاءت  
 ان تنساه . وله من الامكانات النفسية والسيطرة التامة على عواطفه ما يمكنه  
 من التصرف كما يريد .

وتبادر الى ذهنه ان علاقته بسولانج قد تكون آخذة في الافول ،  
 فرأى انه يسوء اليها اذا تأخر في توضيح موقفه منها لاعطائه طابعا  
 شرعياً ، لأن حالة نصف العذراء التي كانت سولانج فيها لا ترضي فتاة  
 مثلها تواقفة الى الكمال المطلق . واعتقد ان ساعة البت في هذه القضية  
 قد ازفت ولم تعد المحاولة فيها جائزة .

ولهذه الغاية ، اجتمع بسولانج في منزله مساء ، وخلا بها في تلك الغرفة التي كان يسميها « قبر المرأة المجهولة » ، فاذا بالباب يُقرع ... من يكون هذا الزائر غير المنتظر بعد الساعة التاسعة والنصف ؟ كان الحادم قد انصرف منذ ساعة ، فلا يمكن ان يكون هو الطارق . نهضت سولانج مذعورة ، وجلست في السرير تحملى في الظلام ، فجعل كوستال يهذي من روعها . وكان اعلان كهربائي اجمر يشع في الخارج طابعا على ذراعي الفتاة وكثفها نقطا ارجوانية ؛ وتسلسل النور الخارجي من خلال عوارض ستار النافذة فألقى على وجهها خطوطا متوازية بعضها اسود وبعضها ابيض ، فبدت كأنها سجينه وراء قضبان حديدية . وكان هذا السجن الخيالي حبها لكوستال ، إلا انه لم يفكر بهذا الأمر . وعاد الزائر الليلي المجهول يقرع الباب من جديد ، ثم أعاد الكرة للمرة الثالثة واطال القرع ، فنزلت سولانج من السرير وتوجهت الى المغسل .

وتبعها كوستال . ولما شرعت ترتدي ثيابها ، توسل اليها ألا تفعل ، ولكنها كانت قد فقدت رباطة جأشها وغدت فريسة الارتباك . ومرت دقيقة ، فجلست سولانج على احد المقاعد وهي نصف عارية . وقرع الجرس من جديد ، ثم راح الزائر يضرب الباب بقبضتيه ... فذهل كوستال هذه المرة ، واحس بشيء من الخوف ؛ واسرعت سولانج فارتدت ثيابها ، فاذا هي فتاة في قيافة لائقة ، ولا يبهل ذروها انها تزور الكاتب الصديق في منزله من حين الى آخر . ولكن هذه الفكرة المرجحة لم تكن كافية لازالة اضطرابه . فهو رجل عصبي المزاج ، قرع عليه باب مخدعه وهو في السرير مع فتاة عارية ، فكيف يستطيع تدبير موقفه لو وقعت عليه الميون ؟

ولكن الزائر توقف عن قرع الباب ، فحس كوستال في الظلام على رؤوس اصابع قدميه الى البهو الخارجي ، ليتثبت من ان الزائر غير متربص في

الشارع ، فرأى تحت الباب بطاقة 'دست من الخارج' ، وإذا هي من اندريه !

رفع كوستال هذه البطاقة الى النور وقرأ فيها :  
« احدثت رسالتك في نفسي تأثيراً عميقاً ، فاحببت ان نتفاهم ،  
وان نتفق على شيء ، فركبت القطار واتيت اليك . انت الآن في  
منزلك ، بدليل ان احدى الغرف مضاعة . ولكن لا بأس ... ارجو ان ترسل  
اليّ برقية الى العنوان التالي تضرب فيها لي موعداً ، واود ان يكون  
موعدنا غداً اذا لم يكن ثمة مانع » .

تباً لهذه المرأة ! لم تكتفِ بارهاق اعصابه من بعيد ، فجاءت تفرع  
بابه بعد الساعة التاسعة والنصف ليلاً ... وضربت الباب بقبضتها كأنها  
تسوق بغلاً ... وراقت نوافذه كأنها من رجال المباحث ، وازعجته ومن  
يحب ، وهي التي لا يحبها .

قال لسولانج ان الزائر « صديق أبله » ، ولكن لما سألتها أتريد البقاء  
معه ، اعتذرت لأنها مضطربة الأعصاب ، فقال لها :  
— لا تعتذري ، فسيظل صوت هذا الجرس يرن في اذنيك طويلاً ،  
وستسمعين ضرب القبضتين على الباب ... فانا ما ازال اسمع ازيز الرشاشات  
على الرغم من مرور تسع سنوات على الحرب ... وضرب القبضات على  
الباب يذكرني بالرشاشات . فلننهِ سهرتنا في غابة بولونيا . وغداً  
انتظريني على مقربة من منزلك ، الساعة الرابعة إلا ربماً ، لنذهب معاً الى  
منزلي الريفي .

وكانت منزله الريفي بيتاً صغيراً تحيط به حديقة في شارع « بور  
رويال » ، ولم يكن كوستال يذهب اليه إلا نادراً .  
ثم كتب برقية الى اندريه ، فكان شيطان المكر ينظر من فوق كتفه  
الى ما يكتب .  
كتب اليها يقول :

صديقتي العزيزة ! ( ومنذ خمس سنوات لم يكتب اليها : صديقتي ،  
إلا هذه المرة ) .

كم انا مسرور بان اراك ! لو علمت انك انت التي قرعت الجرس ، لما  
ترددت في فتح الباب ، على الرغم من اني كنت عارياً ، لاني كنت  
وحيداً اعاني الضجر ! تعالي غداً ، ٢٥ حزيران ، الساعة الرابعة والنصف ،  
الى شارع « بور رويال » ، المنزل رقم ٩٦ ، واقرعي الباب ثلاث مرات .  
ان ضريباً من الجنون البريء جعلني احب هذا المكان وامضي فيه بعض  
اوقاتي منذ سنوات عديدة ، وسنكون في شجرة من ازعاج الناس . لك :  
ك

ملاحظة . - بكتابتني اليك الآن اخون امرأة اخرى . ما ألفت  
الخيانة واحلاها !



وخرج مع سولانج .  
كانت النجوم ترقص في السماء كذرات الغبار في اشعة الشمس ،  
فارقف السيارة امام احد مراكز البريد ، وقاول سولانج البرقية التي  
كتبها الى اندريه قائلاً لها :  
- في وسعك ان تلقي نظرة على العنوان ، لتري ان هذه البرقية مرسلة  
الى امرأة ...

فنظرت اليه وفي عينيها مزيج من الاستفهام والخوف ، فقال :  
- هذه امرأة أعاقبها .  
- علامَ تعاقبها ؟  
- على اني لا احبها .  
ولما عاد الى منزله ، كتب في مفكرته :  
« على شرفة منزلي ، الساعة الثانية عشرة إلا ربعا ، أتدقق بكل

سواسي لذة المكر والخيانة . انها لحالة حافلة بالمتعة ، حتى اني لأسائل  
نفسي كيف يخرج منها المرم بدون سبب جوهري خطير . السماء فوق  
المدينة وردية اللون كالحديد عندما تلتفحه حرارة النار . نسبات من  
الزمرّد تجري على وجهي » .



في اليوم التالي ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، وصل كوستال وسولانج الى منزله في شارع بور رويال . ولسنا بحاجة الى وصف هذا المنزل ، لأنه عش غرام بكل ما في هذه الصفة من قباحة . إلا انه يمتاز بأشياء مبتكرة لا مثيل لها في البيوت التي هي من نوعه ، فكل قطعة من اثاثه تحمل لوحة على الطريقة الاميركية المنتشرة في فرنسا ، وكل واحدة من هذه اللوحات تحمل جملة من وحي صاحب البيت ، ومن هذه الجمل ما يلي :

سيداتي !

لا تقدّم من الرجال اكثر مما يطلبون اليك .

السيد لا يتزوج .

السيد لا يعيد الرسائل الى صاحباتها .



لم تكن هذه الكلمات دليلاً على حسن الذوق ، ولكن لها عدراً في كونها من وحي طيش الشباب . وارتداد القمم الاخلاقية الشاغرة يصبح اطيب مذاقاً عندما ينحدر منه الرائد احياناً الى السير على الارض المنخفضة .

قال كوستال لسولانج :

— ليست هذه الكلمات كلها موجهة اليك ، فلا تجزعي . سأعيد اليك رسائلك . والآن اتبعيني .

وكانت هناك عليّة يرقى اليها بسلم ، اطلق عليها كوستال اسم « البرج الحمام » ، وهي شبيهة به لانها تشرف على البهو ، ولأن

الحمامات البشرية تحتوي فيها كلما دعت الحاجة الى توارين . وفي بعض الاحيان كان يطلق عليها اسم « كولومباريوم »<sup>١</sup> ، اي المكان الذي يحفظ فيه رماد الموتى ، عملاً بخرافة قديمة يعتقد اصحابها ان الافكار الحزينة تثير الرغبة في التمتع بالذات ... مع ان كوستال لم يكن بحاجة الى ما يثير هذه الرغبة في نفسه .

وفي هذا المكان ، وقف كوستال في صمت شبيه بالهدوء الذي يسبق العاصفة ، ثم خاطب سولانج قائلاً :

— والآن ، يا صغيرتي الحلو ، انتهت مرحلة اللعب والمزاح ، ولا بد لنا من ان نخطو الخطوة الحاسمة . فعلى هذا السرير ستصبحين امرأة بعد قليل . في وسعك ، منذ الآن ، ان تنظري بانتباه الى ما حولك ، وان تغرسي ما ترين في ذهنك ، اذا صح ما يقال من ان للعمل الذي انت مقبلة عليه اهمية في نظر الفتيات . ولا ريب في انه عمل مهم . فهو كبقرة الزيت في امتداده حتى يشمل حياة المرأة كلها . حاولي اذا ان تقومي به قياماً حسناً . وانتظار الفترة الحاسمة ، عليك ان تقيمي هنا بكل هدوء كثرة الخرشوف . فبعد قليل ساستقبل زائراً في البهو . دونك هذا الستار ، فاحتجي وراه ، ولكن بوسعك ان تري وتسمعي كل شيء دون ان يراك احد او ان يشعر بوجودك . والى اللقاء . اما اذا كنت بحاجة الى ما يساعدك على الاعتصام بالصبر ، فهذه كتب تعلم مبادئ الاخلاق . فاليك بهذا الكتاب ، مثلاً : « الاخلاق قبل الفلسفة » ، تأليف « لويس مينار »<sup>٢</sup> ؛ انك تجدين فيه الخطوة الواسعة

---

١ - استطاع المؤلف ان يتلاعب هنا بالمعاني لما بين لفظي Colombier و Columbarium من التقارب اللفظي على الرغم من تباعدهما المعنوي ، اذ ان اللفظة الاولى تعني : بيت الحمام ، ومعنى الثانية : بيت رماد الموتى .

٢ - عالم كيميائي (١٨٢٢ - ١٩٠١) اكتشف الكولوديون الستمثل لتضميد الجروح ولتظهير الصور الشمسية . خلف مؤلفات قيمة ، اهمها : « تأملات ونفي متصوف » ، ودراسات في احوال اليونانيين القدماء .

التي سجلتها الاخلاق بفضل الفلاسفة . آه ! ما اروع براعتهم في هذا الميدان !  
ونزل الى البهو حيث جلس على احد المقاعد الوثيرة ، وهو يسائل  
نفسه عن الخطبة التي سبقتها في استقبال اندريه . ثم احس باجاده الماضية  
في مثل هذا الميدان ، فرأى ان القضية ليست جديدة بالاستعداد ، واعتبر  
اهتمامه بالتحدث الى اندريه خطيئة تقال من كرامته ، فقرر ان يصرف  
تفكيره عنها .

وراح يتصفح احدى المجلات ، ويذكر سولانج المختبئة ، الغائبة  
والحاضرة معاً ! أليست شبيهة بالله في حضورها الراهن وبعدها عن الخواص ؟  
غرق في لجة من النموض النيّر الواضح ، وعصفت به نزعة روحية ،  
فنظم الابيات التالية :

إلهي ! لا تحتجب في جلالك العظيم  
إلا ظاهرياً عن رؤية عيني ؛  
ومها اوغلت بعيداً في صمتك البهم  
لا تصمّ اذنك عني .

وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين ، لم تكن اندريه قد  
وصلت بعد . ومرت عشر دقائق اخرى ، فسُرّ كوستال بتأخرها لأنه  
وجد فيه مبرراً اضافياً للشر الذي ينوي ازاله بها ، فهو يستطيع احتمال  
الامانة ، والعار ، والهجران ، وفقدان الحب ، والافلاس ، وجميع المعائب  
برباطة جأش ، وحتى بشيء من المرح ، ولكنه لا يطيق الانتظار . وكان  
يقول للنساء ، منذ الموعد الاول : « الصفة الفضلى في العاشقة هي الدقة  
في ضبط المواعيد . وما خلا ذلك فثانوي كله » . قالها لسولانج ايضاً ،  
وكان يسجل في مفكرة خاصة عدد دقائق التأخر عن الموعد لكل من  
صديقاته . فاذا بلغت جملة هذه الدقائق خمس ساعات يادر الى القطيعة  
مبدئياً على الاقل ، ولكن بعد ان يكون قد انذر الصديقة المذنبة ثلاث  
مرات : مرة عندما بلغت دقائق تأخرها ساعتين ، ومرة عندما بلغت



ثلاث ساعات ، ومرة عندما بلغت اربع ساعات ، وذلك عملاً بالمبدأ العربي ، القائل : « قبل ان تقتل الاعمى ، انذرهما ثلاث مرات » . ولم يكن تأخر سولانج قد بلغ ، حتى ذلك الحين ، اى طوال ستة اسابيع ، سوى ساعة وسبع دقائق . وكانت هذه نسبة مشرقة لها . وفي الساعة الخامسة إلا ربعاً قرع الباب ، ثم دخلت اندريه ، فبادرها بقوله لها :

— ما انسك قد عدت ، ايها الآتسة العزيرة ! فالمثل يقول : « القطع الواقع في غليان المرحل لا يخشى الماء البارد ! »

ولما صافحته احتفظت بيده في قبضتها فترة طويلة ، فتضايق . ورأى انها تبدلت نوعاً ما . فقد كانت في ما مضى تكتفي برش وجهها بقليل من البودرة ، ويرسم خط ضئيل من الحمرة على شفيتها ، فاذا بها اليوم متبرجة على نطاق واسع ، ولكن بطريقة ريفية تفتقر الى كثير من الذوق : فالحمرة صارخة ، والبودرة متراكمة في اماكن من الوجه ، وخفيفة في اماكن اخرى . وكانت ساقاها عاريتين . ويمكن تفسير هذا العربي باشتداد القيظ ، إلا ان له ، بالحقيقة ، تفسيراً آخر ... وكان وجهها هزيلاً ، جافاً ، كوجه كاتب مجتهد لم يقرّظه احد في الصحف منذ زمن بعيد . وبالاختصار بدت له كأنها نبتة محرومة من الري . وكانت عينها مطوقتين بدائرتين زرقاوين ، واسعتين ، باردتين ، يمتد منها خطتان الى جوار الصدغين ، كالخز الذي تخلّفه السفينة ورائها في مياه البحر . ولم يكن كوستال قد رأى هذه الدقائق من قبل ، فهاله منظرها القبيح في ضوء النهار الفاضح ، وتبادر الى ذهنه ان الفتاة المائلة امامه غدت ضحية عادات سرية .

وأجالت نظرها في اللوحات الموزعة على قطع الأثاث ، فقال لها :

---

١ - يقال هذا المثل في اللغة الفرنسية لمن يواجه مصيبة صغيرة بعد مروره بكارثة ، ويقابله باللغة العربية المثل القائل : « من شرب النهر لا يفص بالساقية » .

— لا ، يا آنستي العزيزة ، لست في مكان رديء يُخشى شره . كل ما في الامر اني اضع فيه هرتي في موسم السفاد مع هرت فعل ، ولكن احد الاثنين يرفض دائماً التجارب مع الآخر . وفي اغلب الاحيان يأتي الرفض من جانب الذكر . ما اغرب اطوار الطبيعة ! يجب ان اسجن اهر يوماً ما هنا مع فأرة ، فقد تولد في نفسه الرغبة !

قالت :

— الرغبة في ان يفترسها ، بعد ان يكون قد عذبها طويلا . وفي هذه الانشاء ، تكون انت وراء زجاج النافذة ، تنظر الى هذا المشهد بلذة وارتياح ... أكاد اراك في هذا الموقف العزيز على قلبك .

اجاب باشمزاز :

— ما اقبح هذه الصورة التي ارتسمت عني في ذهنك ! وكانت واقفة حiale ، وهي تحت تصرفه المطلق . فراح يفكر باحثاً عن افضل طريقة لتعذيبها الى اقصى حد . ففي الليلة السابقة انفتحت في نفسه هوة سحيقة من الشر لما قرعت بابيه . وكان منذ خمس سنوات ، وحتى ذلك الحين ، يكبت رغبته ويكبح جماح نفسه كي لا يتفوه بكلمات جارحة ؛ اما الآن فقد ازفت الدقيقة المنتظرة بفارغ الصبر ليدفق ما في صدره من حمم الغيظ والنقمة . كل ما كان فيه من الشفقة ، والعطف ، والصبر ، حوَّله قرعُ الباب في الليلة السابقة الى شراسة ، بعملية تكاد تكون كيميائية ، من تلك التفاعلات التي تقلب الاشياء الى عكسها ، فينقلب اللبن دماً .

وجعل يخاطب نفسه قائلاً : « اللبن والدم سيان . احب اللبن والدم ، كما احب ارواح الموتى » .

وتصلب كل ما في عزمه وارادته ليزيد هذه الشراسة قسوة وضراوة ، وعاد يقول في نفسه : « كنت اشفق فاحس بائي بطل . ولكن هذا الشعور كان يزعجني » . ولم يبق عليه إلا ان يطلق العنان لذلك الشخص الآخر الذي نشأ فيه بعد كبت طويل ؛ لم يبق عليه إلا ان يلقي على اندريه

ذلك الرقر الثقيل الساحق الذي ما برح ممسكاً به ، فوق رأسها ، منذ خمس سنوات .

استيقظت فيه قدرته على تعذيبها وجعلت تتمطى ببطء الرائق بقوته ، فراح ينظر إليها نظرة المصارع الى خصمه ، ليختار الاسلوب الافضل للقبض عليه والبطش به .

وتذكر انها كتبت اليه يوماً عبارة قالتها كليوباترا لانتونيوس ، وهي : « ليس لجودتك فصل شتاء » . فقال في نفسه : « ولماذا اعطف عليها وارحها ؟ اني لا ادرك لهذه الطيبة سبباً . ثم ، لماذا تكون جودتي خالية من الشتاء ؟ ان الشتاء فصل جميل للغاية عندما ينظر اليه المرء بالنسبة الى تأثيره في الآخرين . يعيش من يستطيع ان ينفخ من فمه البرد والحرارة ا اذا كانت نفوس الابرار كالاشجار الخيرة ، كما قال الانجيل ، فمن واجبها ان تحب الشتاء بقدر ما تحب الصيف ، وان تحب الجذب بقدر ما تحب الحصب ، وان تحب الظلام بقدر ما تحب النور . لا بد من اشياء وعناصر عديدة لتكوين الانسان . أحسّ ان في نفسي جميع فصول السنة ، وهي تتوالى بلا انقطاع . اني كوني دور في الفضاء ، عارضاً للشمس ، على التوالي ، جنباته المختلفة . اجل ، على التوالي ، ودائماً على التوالي . وستعرف اندريه الآن من الشفقة التي غمرها بها رجلٌ مثلي طوال خمس سنوات » . قال لها متصنعاً اللطف :

— انك عارية الساقين . ويذكرني هذا المشهد بان الشبان الفرنسيين من الطبقة البورجوازية الرفيعة في الجزائر ، اذا ارادوا الايقاع بفتاة من الطبقة البورجوازية الرفيعة ، اخذوها بالسيارة الى احدى الغابات المجاورة للمدينة . فاذا رفضت الاستسلام لهم هناك ، انتظروا الليل ، ثم انتزعوا منها حذاءها وتركوها وحدها وعادوا بسيارتهم . فترجع بما تيسر لها من وسائل ، وهي عارية القدمين . ولا تقل المسافة بين الغابة والمدينة عن ١٢ كيلومتراً .

— ما اشقى فتيات هذا البلد !  
 — ما حيلتنا في الامر؟ هذه طريقة تكره الفتيات على التصلب والجري  
 على القدمين . اقولها دون تلاعب بالالفاظ . وعلى كلٍّ منا ان يجيد  
 الدفاع عن نفسه ، أليس كذلك ؟  
 — اجل ، الدفاع عن النفس ا مساكين انتم الذكور ! انكم تدافعون  
 نارة ضد المرأة التي ترفض ، وطوراً ضد التي تطرح نفسها على رؤوسكم .  
 وفجأة راحت تسرع في كلامها ، وتتدفق بحماسة ، وتكاد تتلجلج ،  
 كأنها تهول على سفح شديد الانحدار ، فقالت :  
 ... اما انا فعلى الرغم من ظنونك بي وآرائك فيّ ، لم اطرح نفسي عليك ،  
 لم اتوسل اليك ، بل قدمت لك نفسي . وهذا نقيض ما تظن تماماً . ولكنك  
 رفضتَ تقدمتي . فلا بأس . فن يصبح محبوباً يفقد جزءاً من حريته .  
 على ان هذه النسبة مفروضة على كل حيٍّ . ان استمرارك في الحياة يوجب  
 عليك القبول باستبداد الزمن ، والمسافات ، والحرارة ، والاحوال الجوية ،  
 والحاجة الى الطعام والنوم ...  
 — حياتي كلها قائمة على هذه القاعدة : تخلص من كل ما لا تحتاج  
 اليه .

... اذا كنت تود ان تحشى شيئاً ، ففني وسعك ان تختار غير الحب ،  
 ولا سيما حيي ، لأنه لا يخيف . وانت ادرى الناس باني ما ألححت عليك  
 إلا قليلاً . فقد خرجت من حياتك صامتة ، وما ازال ألزّم هذا الصمت  
 واغرق نفسي فيه . أسمح لي أن اسألك بالحقيقة ؟ كنت متعبة ، الى اقصى  
 حد ، منك ومن هذا الحب الشقي الذي لم يتغذّ ، طيلة حياته ، إلا من  
 نفسه . في عذابي الطويل بدأت اعتقد اني غدوت ، في نظرك ، ميتة  
 لا تتحرك ، وانك حذفني نهائياً من حياتك وفكرك ، فاذا بك تكتب  
 اليّ . صحتَ بي : « أعيدي ، أعيدي » ، كي ارجع الى خشبة المسرح ، كأن  
 الدور الذي امثله قد اعجبك ، وهو مزيج من المأساة والمهزلة . ما اقدرك

في فن القبض على النساء والمحافظة على احتدامهن في سبيلك ! لماذا جئت اليك الآن ؟ اولاً لأبرهن لك اني غير مستاءة منك ، ثم لأنني لم اتحل بعد عن امنيتي على الرغم من كل ما كتبتُ اليك . فالطريقة الوحيدة التي تستطيع ان تكرهني بها على التخلي عنك هي ان تصارحني بانك لا تحبني . لم تقل لي قط انك لا تحبني . منذ اربع سنوات وتسعة اشهر لم اسمع منك مرة واحدة انك لا تحبني . هربتُ مني ، اجتبتيتني ، ولكنك لم تقطع علاقتك بي ، بل كنت تعود اليّ بطيبة خاطر بعد فرارك مني ، لانك ضعيف في قرارة نفسك ..

رفع كوستال يده الى رأسه بحركة من يريد ان ينزع شعره من شدة الغيظ وهو يقول في نفسه : « رأسي ! رأسي ! أكاد اصاب بالصداع ! » واستطردت اندريه قائلة :

— جئتُ لأسمع منك كلمة الرفض ، اذا كانت هي التي تريد حقاً ان تقولها . جئتُ لاسمعا من فمك . ومها يكن من الامر ، فيجب ان نلجأ حالاً الى الموضع للعلاج هذا الدمّل المزمّن بيننا . اجاب دون ارتباك :

— حسناً ، سننظر في هذا الامر .

ولم يكن قد قرر بعد ما ينوي قولاً وعلاً . ونظر اليها بانتباه ، فادرك الغاية المبيتة من تمرية ساقها البيضاء ، وتزيين وجهها بالبودرة والحمرة ، واتقان تسريحها ... ولكنه لاحظ ان ثوبها مفتق قليلاً ، وان طرف قميصها المخروّم قد خرج من تحت الثوب وظهر على صدرها ، ولم يكن نظيفاً ناصع البياض ... وكانت اظافرها طويلة ، مهندمة بعناية ، ولكن تحت صبغها الوردي اللّاع خطاً ضئيلاً أسود من الوسخ ، ما يدعو الى التساؤل هل كانت اندريه تحسب هذا الوسخ من مقومات الجمال كما تحسب الزنجيات تضخيم الشفاه ومدّها على اطباق الحديد ضرباً من الزينة ... ولعلها كانت تعتقد ان في القذارة نوعاً من الوقاية الصحية ،

كسءاء بعض القبائل المتخلفة اللواتي يحافظن على الادران الملتصقة برؤوس اطفالهن محافظةً تكاد تكون ضرباً من التقوى ، ظناً منهن انها الضمانة الوحيدة لحفظ الصحة ...

ان الذين يدرجون على اءمال قيافتهم ونظافتهم يحاولون اءحياناً ان يتبرءوا ليظهروا بمظهر أهل الاناقة ، فتءخونهم دقائق صغيرة ، وتفضء ما في مظهرهم من التصنع في مناسبة معينة . ومن سوء حظ النساء ان الرجال يءتماون الاءمال في قيافة الرجل ، ويررونه فظليماً ، مقرءساً ، في قيافة المرأة .

رءلال هذه المءابة كان كوءتال يءلسم لأنءريه ابتسامة طءبية ، عفوية ، ءون ان يءلته الى انه يءلسم . اما اسباب هذا الابتسام فكانت :  
١- لأنه كان يشمر بفءح عميق تتءفق منه حموية ساذءة شبيهة بثلث التيارات الكءربائية اللازوردية اللون التي تبءج النظر ، ولكنها تستطيع ان تصعق وتقتل .

٢- لأنه كان يعل نفسه بالتمعن التي سيءنمها بعء قليل عئءما يباشر عملية التعذيب .

٣- لأنه كان يعطف على انءريه . ولم يفارقه هذا العطف قءل ءلال علاقتها الطويلة . وقء يءكون هذا هو السبب الاول لنعمة عليها ورءبته في ءءريءها .

وبعء ان شبع نظراً اليها ، مءء يءيه وتقل وعاء الازهار من مكانه على الطاولة ، ووضعه في مكان آءر بءيث يءءب به وءبه عن انظار التي ءبه . فنقلت كرسيا لءاه . فنقل الوعاء من بءيء وءءب به وءبه . فقالت :

-- لماذا لا تريد ان اراك ؟

فاجاب بلهءة المءاعب المرح :

-- لاءعءك قليلاً ... ولكن لا بأس اسأكون لطيفاً معك .

وازاح الوعاء .

قالت :

— ألا ترى اني كنت غبيةً وحقاء الى حد بعيد في علاقتي بك ؟ لو ادرك الرجل كم تستطيع المرأة ان تكون بلهاء ، لأشفق عليها عوضاً عن ان يمزقها .

— لا تنقطع المرأة عن المطالبة حتى تنال شيئاً ما . ومن حسن الحظ انه يمكن اعطاؤها كل شيء . مثلاً : الشفقة . فالرجال يمنحون دائماً هذه الشفقة دون ان يلتبهوا . انهم يسمون شفقتهم حباً . وهذه الشفقة هي التي تربط الرجل بالمرأة ، على الصعيد العام ، اكثر من الحب . وكيف لا يشفق الرجل على المرأة عندما يدرك « ما » هي ؟ لا يشفق المرء على الرجل العجوز لأنه في نهاية مطافه ، وقد كان له يومه ، ولا يشفق على الولد لأن عجزه عابر والمستقبل له ؛ اما المرأة التي بلغت ذروة نموها وما تزال هذا « الشيء » الذي نراه ، فما قيمتها ؟ ما كانت ليخطر قط في بال المرأة انها عديلة الرجل ، لو لم يقل هو لها انها مساوية له ، تطفلاً منه ، وعلى سبيل الاحسان .

يبدو ان هذه الشفقة تتحول احياناً الى رغبة ، الى شهوة .  
— طبعاً . كل شيء يتحول الى كل شيء . وما لسميه « حباً » ، « بغضاً » ، « لامبالاة » ، « شفقة » ، ليس في بعض الاحيان إلا عاطفة واحدة لها اسماء عديدة . والحمد لله على ان الشفقة لا تستمر إلا بمض الوقت ، وإلا قضت علينا ... وقد كتب للمرء ان لا ينجو من عبودية الحب إلا ليقع في عبودية الشفقة . لستطيع ان ندفع الناس الى عمل كل شيء باثارة شعورهم بالشفقة . أتدري ان بعضهم يموت لشدة شفقتهم ؟ ان جميع الاعمال التي تحققت بفعل الشفقة انقلبت شرّاً وانتهت الى مصيبة ، ما عدا الشفقة على التفوق والمتفوقين . ولكن هذا النوع من الشفقة نادر للغاية . ان نصف عمليات الزوج الملعونة عُقدت في ساعة شؤم

لأن احد الزوجين اشفق على الآخر . وفي ايام الحرب ، لما 'جرحت' ، سمعت الناس يروثون لي في محطة القطار ، فاحتقرتهم بقدر ما غمروني بشفتهم . وكنت اشعر بان شفقتهم تجعلهم تحت رحمتي ا وكان في وسعي ان احصل منهم على شيكات ، ان اغرر ببناتهم ، ان اتال ما اريد دون استحقاق ، ودون ان اكلف نفسي اقل عناء . كانت حالة مقرفة ، ولكنها كانت تفسح لي في المجال للافادة . ويبدو لي اني كنت قليل الذوق لو طمعت باشياء اخرى غير التي املكها في هذا العالم وسمعت اليها باستغلال الغباء والغرور او الجشع في نفوس الناس عوضاً عن استغلال الشفقة . ودخلت فراشة من النافذة فتجاهلت وجود اندريه ، وبدأت ترف حول كوستال كأنها تلتهم مداعبته ، ولكن مداعبة الفراشة ليست من الامور السهلة .

قالت له اندريه بهدوء وبطء :

— بدأت افهم الآن . لم يكن شعورك نحوي إلا شفقة علي . ليس في نفسك للنساء إلا الشهوة ، والرغبة في التعذيب ، والشفقة . ولا مكان للحب في قلبك . انك تنتحل جق الشفقة على النساء ا أندري ان تفكيرك على هذا الصعيد من اسخف مضحكات القرن التاسع عشر ؟ يطيب لك الزعم ، على غرار ميشليه ، ان النساء « بانسات شقيات » . اننا في غنى عن شفقتك . دع عنك حجر الدب<sup>١</sup> ولا تضرب به احداً ا ليست للنساء بحاجة الى شفقتك . انك اشد الناس حاجة الى من يروئى لك .

— لماذا ؟ ألائي لا احبك ؟

— لانك لا تحب احداً . ليست لك امرأة ، ولا ولد ، ولا بيت ، ولا هدف في الحياة ، ولا ايمان . ويخيّل اليّ ان خجلتك بهذه الحالة

١ - اشارة الى خرافة قديمة نظمها لافونتين شعراً ، وفحواها ان دبا رأى ذبابة على وجه صاحبه النائم ، فأراد قتلها كي لا توقظه ، فأخذ حجراً كبيراً والقاه على الذبابة فسحق رأس صاحبه سحقاً .



يدفعك الى الاحتكاك بالذين يحبون ، الى دس نفسك بينهم ، الى استدعائهم لتكون معهم كأنك منهم . ولكنك لست منهم . لا ! لا ! انك أبرص ، أبرص ، أبرص .

— اجل ، هذا ما كنت اقوله لك . انا هذه المصيبة كلها لاني لا احبك . وبعد ، يا اندريه هاكبو ، فانظري اليّ دون ضحك : أيبس عليّ اني رجل شقي ؟

— انك تخفي وجهك الحقيقي بقناع . وليست ابتسامتك إلا ضرباً من التكشير .

— الكتاب يتصنعون التكشير ليحسبهم الناس بؤساء . يريدون ان تكون وجوههم شبيهة بوجه باسكال<sup>١</sup> . أما سمعته يتغزلون بالكتابة الباسكالية ؟ هناك طريقتان مضمونتان لدخول الاكاديمية : كتاب في راسين<sup>٢</sup> ، وكتاب في باسكال .

— اعترفت لي مرة بالحقيقة . أنسيت انك قلت لي : « اني اكذب دائماً » ؟

— أذكر هذا القول بوضوح . قلته لك لاعطيك عني فكرة خاطئة . وعلى كل حال فلا قيمة مطلقاً لما اقوله لك ، لانه لا شيء ا من يريد التعرف الى امثالي من الرجال ، يبحث عنهم في مؤلفاتهم ، لا في ما يقولون على سبيل العبث او التسلية .

— يكفي ان يرى المرء صورتك التي نشرت هذا الاسبوع في مجلة « الحياة الادبية » ليدرك انك غير سعيد .

— يكفي ان يرى المرء صورتك التي نشرت هذا الاسبوع في مجلة « الحياة الادبية » ليدرك ان مصوّر المجلة ازعجني وضايقني . رويدك ، يا عزيزي ، انك

١ - فيلسوف رياضي فرنسي (١٦٦٣-١٦٦٢) ، أشهر مؤلفاته : « الخطرات » .  
٢ - شاعر فرنسي (١٦٣٩-١٦٩٩) . أشهر مسرحياته : اندروماك ، وبيرينيس ، وبازيد ، وميتريدات ، وايبيجيني ، وفيدور ، واستير ، وعثليا .

ثمانين ردة الفعل ٢٢٧ المكررة .

— لا يعني ان اعرف ما هي ردة الفعل ٢٢٧ المكررة ، لانها ، ولا ريب ، مما لا يسرني ... ولكن ما الذي تعنيه بها .

— ستدين انها شيء لطيف للغاية . تعلمين ، ولا شك ، ان جميع النساء ينفعن انفعالا واحداً اذا فوجئن بصدمة قاسية ؛ وردة الفعل واحدة لديهن جميعاً . ليس في حياة النساء اسرار . أوهمن الرجال بوجود هذه الاسرار على سبيل المجاملة ، ولاضرام النار فيهن ، لأنهم يشتهونهن . وسارت النساء على هذه الطريق المرسومة لهن واوغلن فيها . فالحياسة تجري معهن دائماً على الطريقة التالية : في المرحلة الاولى نجد جماعة من النساء المتشابهات بكل شيء ، يرددن الفاظاً وعبارات واحدة ، يضحكن من اشياء واحدة ، حتى ليخيل لينا انهن محبوبات من مادة واحدة قابلة للتبادل فيما بينهن دون ان يتغير فيهن شيء . وفي المرحلة الثانية ، اذا تعرفنا الى احدهن مزدانة بشعور مرهف نوعاً ما ، نرى انها تختلف عن الاخريات اختلافاً تاماً . ولا تستطيع ان تعرف شيئاً عنها من رفيقاتها ، فهي بالسبب اليك لغز مغلق ، وتظل لغزاً مغلقاً ما دمت لا تمتلكها ، لان الشهوة هي التي توهمك بان هناك الغاز . ومتى امتلكت المرأة ونلت منها أربك ، عادت الى ما كانت عليه ، واصبحت في نظرك كالاخريات . ومن الواضح ان ردود الفعل عند النساء اوتوماتية ، لستطيع معرفتها قبل حدوثها ، ولستطيع تصنيفها ، وهذا ما فعلت . اعطيت هذه الردات ارقاماً متسلسلة ، فالردة ٢٢٧ المكررة هي الردة التقليدية الصرف التي تجعل المرأة البائسة تحاول اقناع الرجل الذي تحبه بأنه هو ايضاً بائس ، لا لأنها تود ان تؤاسيه وتسبغ عليه ما فيها من حنان الامومة ، بل لأنها تلتبغ غيظاً وحناً حين تراه سعيداً وتعلم انه لا يستمد سعادته منها . والرجال ايضاً يصابون احياناً بالردة ٢٢٧ المكررة ، ولكن مبعثها عندهم الحسد . واخيراً ، نلاحظ هذه الردة لدى جميع الكاثوليكين تقريباً ،

رجالاً ونساء ، لأنهم يحاولون اقناع الكفار بأن الكفر جعلهم يائسين . ورقم الردة في هذه الحلقة ٧٩ ك . م . وهذان الحرفان يعنيان : « كثنوليكي مؤمن » ، لتمييز صاحب هذه الردة من الكثنوليكيين غير المؤمنين . — لا ادري ما فعلت لك النساء لتقول فيهن هذا القول . أغلب الظن انهن عذبتك عذاباً مريعاً . عفواً ! كدت أنسى انه لا يجوز لي التحدث في هذا الامر . فهذه الردة ٢٢٧ المكررة ! كن مطمئناً ، فستخلص يوماً ما من النساء . وكثيراً ما فكّرت بك وساءلت نفسي كيف ستكون حالك في شيخوختك . اني أرى منذ الآن انك لن تكون على شيء من الجلال . وقد استطيع ان اصف مسبقاً اخايد وجهك ، فخطوطها ظاهرة اليوم كالخطوط التي يرسمها المصور بالقلم الرصاص عندما يباشر تصميم احدى لوحاته . ان في جبينك اخايد جديدة لم يكن لها وجود منذ ثلاثة اشهر ...

فراح يضحك مقتبلاً بوقاحتها الساذجة ، واحس بقوة غير مألوفة تجذبه اليها . وكان متردداً في اختيار احدى شخصياته المختلفة لازالها الى الميدان ، ثم فكّر بأنه كان من المحتمل ان « يأخذ » اندريه بطيبة خاطره ، لو لم تكن سولانج هناك ، في برج الحمام ترى وتسمع كل شيء . وجعل ينظر الى ضيفته المرتبكة قائلاً في نفسه : « لها نقرة لا بأس بها » ، ولكن أتكفي النقرة الجميلة ؟ يقول الحياطون ان قفا القماش لا يقل قدراً عن وجهه ؛ ولكن ! »

وللمرة الاولى احس برغبته في امتلاكها . وربما كانت الدوائر الزرق حول عينيها هي التي اثارت فيه هذه الرغبة . وقد يكون اشتهاها لانها اقرفته . فهو من القائلين بان مفاتيح القضاة لا تُسكّر إلا الاقوياء .

وكان في هذه الاثناء ينظر الى ذبابة جامدة منذ ثلاث دقائق على رماد السواكير واعاقها المتراكمة في المنفضة ، كأنها تجدد من اللذة ما تجده عندما تجثم على قطعة حلوى ، وقد اتشت بالرماد حتى اصبح

يسهل القبض عليها بالاصابع . وتبادر الى ذهنه انه كهذه الذبابة ، لا فرق عنده بين الرماد والحصى . واعجبته غرابة الانقلاب المفاجيء في شعوره نحو اندويه ، وفي السياسة التي انتهجها حيالها منذ خمس سنوات . لم يكن يبغضها ، انما لم يكن يبالي بها ، ولكن بشيء من العطف . ومثل هذه اللامبالاة يمكن ان تؤدي الى اشياء كثيرة . ولم يكن يزعمه ان يحننها من شدة الفرح ، فلماذا لا يمنحها النعمة الكبرى ما دامت قد استحققتها بصبرها الطويل ؟ ولم يكن يزعمه ان يحننها من شدة الالم ، فقد استحققت ايضاً هذا العقاب . وكان من المعقول ان يعذبها ليموّض عن الخير الذي اسبغته عليها دون مبرر ، وان يسعدها ليموّض عن الضرر الذي لحقه بها دون مبرر . وبعد ، فهل كان بحاجة الى القيام بعمل معقول ؟

كل شيء سهل عليه الآن ، كما كان كل شيء سهلاً عليه ساعة كان جالساً الى مكتبه وامامه ورقة بيضاء . لم تكن قساوته ناجية عن خمود شعوره الانساني ، بل كانت نتيجة قدرته على تطوير شعوره وتحويره على هواه ، كانه يضغط على زرّ فينبعث فيه الاحساس الذي يريد .

ان حياة الانسان خاضعة لعوامل استبدادية لا حدود لها ، بعضهم يحاول مقاومتها ، وبعضهم لا يعرف ماهيتها ، بينما كوستال يعرفها ، وعوضاً عن ان يتألم منها يفضل ان يحبها حتى العبادة ، لأنه استطاع اخضاع حياته للفكرة التالية : ما دام العالم يقدم لنا وسائل كثيرة لاغتنام المتعة والسرور ، فمن الغباء ان نتعذب ونتألم ، لاننا ندفع ثمن عذابنا في هذه الحياة ولا نجد تعويضاً عنه في الحياة الاخرى .

وعلا بهذه الفكرة تألم كوستال من النكسة التي حلت بفرنسا ، ثم قرر ان يحب هذه النكسة ، اذ رأى ان هذه هي الطريقة الوحيدة للخلاص من الالم . وليست الوطنية شعوراً فطرياً ، بل مكتسباً . وكل ما هو مكتسب عرضة للفقدان .

وبهذه الطريقة عالج الجور الاجتماعي كما عالج الشر في جميع اشكاله .

وكان يقول في نفسه : « اذا كنت مضطراً الى التسالم من الشر ، تصبح حياتي عذاباً جهنياً ، ابي حماقة ، اذا فلنحب الشر ايضاً » .

وتردد برهة ، اذ خطر في باله ان يضرب موعداً لأندرية في اليوم التالي ، فيمنحها ما تشتهي من الوصال ، ولكنه ساءل نفسه أبقى رغبته الحاضرة فيه الى اليوم التالي ؟ ثم تذكر قولها السخيف المضحك : « انك لا تدري ما تستطيعه ارادة المرأة » ، فانتهدت المشكلة فوراً ، ووضع لها حدّاً نهائياً ، لان هذه العبارة أيقظت في ذاكرته جميع الاسباب التي جعلته يستنكف عن « أخذ » اندريه منذ خمس سنوات . وتذكر ايضاً عبارات اخرى من هذا النوع دفعت به الى التصلب حتى العناد . ولكنه فقد رغبته في تعذيبها ، ولم يشأ ان يمثل دوراً في مأساة هزلية ... لم يشأ ان يكون هراً يعذب فأرة لما في هذا الدور من السهولة والصفاة ، فقرر ان يُنهي هذه اللعبة حالاً ، فقال لأندرية :

— اعذريني اذا نهيتك الى ان الساعة بلغت الخامسة والنصف . وفي الساعة السادسة ستأتي صاحبة هذا البيت لادفع لها بدل الايجار . فاذا كان لديك شيء خاص تريدان اطلاعي عليه ...  
فقاطمته قائلة :

— ألسنت انت الذي استدعاني اليه ، يا كوستال ، لان لديك شيئاً خاصاً تريد اطلاعي عليه ؟

— انا ؟ علامَ تريدان ان اطلعك ؟

ورأى وجهها يتجهّم ويقسو ، فيصبح شبيهاً بوجه البغايا حين يقول لمن مفوض الشرطة انه لا يستطيع اطلاق سراحهن ... واحسّ بشيطانه يلامس كتفه قائلاً له : « لا تكن شريراً مؤذياً ! » واجابه في سره : « بلى ، بلى ، لماذا لا اكون شريراً مؤذياً مع هذه ، ما دمت سأكون طيباً محسناً مع تلك التي تلتظر في برج الحمام ؟ » وهمس الشيطان : « وهذه ، متى يأتي دورها ؟ » فاجاب : « مرة اخرى ! »

وقالت اندريه :

— ان تصرفك معي اهانة مزمنة ، وتراني اسائل نفسي احياناً كيف استطعت احتمال .

— وانا ايضاً طرحت على نفسي هذا السؤال . ما اطول بال النساء ، وما اقدرهن على احتمال اساءة الرجل اليهن !  
— طبعاً ... عندما يستولي عليهن الحب ؛ أما انت فلا تفكر إلا بأساءة استعمال قدرتك وسلطانك . ان حياة رجل على شاكلتك لشيء رهيب ... لا حدود لقباحته المسخ .

— كل « كاتب » جدير بهذا الاسم لا يستطيع إلا ان يكون مسخاً .

— انك تفرّز ببعض الناس ، وتحرم البعض الآخر حقه الطبيعي في الحياة ، ولا تنسجهم مطلقاً مع الجحى الانساني الذي يسير فيه الجميع ...  
انك تقتل كل شيء في البيضة ، تحنقه في المهد . حياتك برمتها سلسلة من الاجهاضات . تجبض ما في نفسك ، وتفرض الاجهاض على الآخرين .  
أنسيت انك كتبت اليّ يوماً تقول : « ان تعذيب النساء امر في غاية السهولة اتركه للصعاليك » ؟

— هذا الـ « يوماً » قديم جداً ، يعود الى زمن كنت فيه تكتبين اليّ : « ان الفتاة لا تتعب من الحب الطاهر العذري قبل صديقها ، ولا يمكن ان تكون البادئة في طلب التخلي عنه » . وعلى كل حال ، فانت فتاة ذكية يتعذر تعذيبك ، وفي وسعك ان تتلاعي بالامك .  
— لا ، لا ، لا تسترسل في هذا الاعتقاد . لستُ ذهكية بقدر ما تظن .

— أليس العذاب في الحب ولأجل الحب نوعاً من السعادة ؟ واذا هجرك هذا العذاب أفلا يترك في نفسك فراغاً ؟  
— انك تتكلم كما يطيب لك !

— لست ادري ، هذا ما تقوله النساء .

وفي هذه الفترة ، بدأت تخافه . وكان خوفها غريباً كخوف الحيوان ...  
 يخوف من يرى نفسه سجيناً ، في غرفة مقفلة ، مع مجنون يلعب في عينيهِ  
 وميض الاجرام . وفي موجة الذعر الطاغية عليها ، راحت تحاول تهدئته  
 واسترضاءه ، فقالت :

— اتوسل اليك ، يا كوستال ، ألا تكون شريراً . لستَ شريراً  
 بطبعك ، ولكنك تجهد نفسك للتظاهر بالشر .

وراحت تبذل جهودها لتقنمه بأنه فاضل ، كما كانت نساء اخريات يحاولن  
 اقناعه بأنه « مسيحي على الرغم منه » ، ثم قالت :

— أتخسني بجرمة لاني احببتك ؟

— اجل ، بكل تأكيد .

فصاحت بقوة ونزق :

— لا ! انك مخطيء . لا تلتقم مني لأجل وهم في خيالك لا حقيقة له .

تذكر انك لم تتعذب بسبيي ، وانما انا التي تعذبت بسبيك . لم تكن  
 فورات غضبي إلا موجات من العذاب تفيض بها نفسي ، وقد تأملت منها  
 بقدر ما تأملت من التظاهر باعراضك عنك ونقمتي عليك ، ولكنك لم تشعر  
 باني كنت اعرض عنك وانقم عليك ! لا تهدم هذا السلام البائس الذي  
 بنيت في نفسي خلال ثلاثة اشهر من الصراع والدموع . قلت لك في ما  
 مضى : « عوضاً عن سكوئك وعن غمرة الشك التي اتخبط فيها ، اضربي  
 ضربات قاسية » لانها وحدها تمنحني القدرة على التخلص منك . أما الآن  
 فاقول لك : « لا ارحمني ، ولا تضربني بقساسة » . وبعد ، ما عساي اخسر  
 اذا أبيت ان تعاملني بلطف ؟

لم يشعر كوستال بأقل سرور لما رآها مرتعبة منه . جلّ ما كان يريد  
 ان يعذبها وهي صافية الذهن ، كاملة الوعي .  
 قال لها :

اعترفت منذ حين ان حبك لي ليس من الصنف الرفيع لانك تفضلين  
سمادتك على سعادتي . فاطلب اليك ان تقضلي سعادتي ولو مرة واحدة .  
دعيني اعذبك . احب فيك الألم الذي أسببه لك . وهكذا اجد نفسي فيك  
واحبك . اعطيني لذة مقاومتي اياك طوال خمس سنوات ، فاعطني الآن  
لذة قسوتي عليك . لا تريد اللساء ان يعلمن كم يتراكم من الكذب ،  
والانانية ، والعياء ، والصدقة في الحب الذي يبوح به الرجل لمن . اما  
معي فستعرفين حقيقة هذا الحب . وهذه المعرفة ستكون كبيرة الفائدة لك ،  
تمكتك من معرفة الحياة . ان ما نحتاج اليه في هذه الدنيا ليس الاستقرار  
الشبيه بالجمود . فالحياة لا تكون طيبة إلا اذا زخرت بالرجولة .

— من اخبرك اني اتمتع بالرجولة ؟ هل من شأني انا ان ازخر بالرجولة ؟  
اني امرأة ، امرأة ، ثم امرأة ، أفلا تريد ان تفهم ؟  
— للنساء وسيلة مضمونة تحميهن من العذاب .  
— وما هي ؟

— لينظرن الى المرأة عندما يتعذبن ، فيعمدن فوراً الى تغيير ملاحظتهن .  
وئمة طريقة اخرى للتخلص او توماتياً من العذاب ، هي ان تفكري  
باطالة التي ستكونين فيها بعد خمس سنوات . تعلمين حق العلم ان حبك لي  
سينزل بعد خمس سنوات ، وان هذه القصة التي نمر بها الآن ستبدو لنا  
كالأخبار التي تلتشرها الصحف تحت عنوان : « منذ مائة عام » ،  
مهزلة مضحكة . فالحياة شبيهة بكتيبان الرمال : يتكون كتيب ،  
فيأتي كتيب آخر ويطمره ، وهكذا دواليك . تقمصني اندريه هاكبو  
التي ستكون بعد خمس سنوات . فالمسألة لا تحتاج إلا الى شيء من  
الخيال .

اوشكت ان تحجب بعنف ، ان تنفجر ، إلا أنها رأت على الطاولة  
نوعاً من الحريش<sup>١</sup> ، وكانت تكره هذه الحشرة ، فصاحت :

١ - حشرة سامة تسميها العامة ام اربعة واربعين .



— اقتلها ! اقتل هذا الحيوان القبيح .

— لماذا اقتلها ؟ لم تؤذي .

— وأنا ، هل اذيتك ؟

وألقت على الحشرة جريدة ، ثم سحقتها . فنظر اليها كوستال نظرة قاسية ثم عن الاستياء والحقد ، ثم قال :

— انك تتعيبني جداً ، يا آنسة هاكبو . كنت منذ ايام في مطبخ مع فتاة صغيرة جميلة سعيدة . وشعوري بهذه السعادة حداني على ان اشتري السعادة لك ايضا ، فكتبت اليك ، فجئت امس الساعة التاسعة والنصف تضربين بابي بقبضتيك كالملج الخالي من الذوق . وكنت مع الفتاة الالفة الذكر ، وكنا قد اتفقنا على ان اجعلها امرأة ليلة امس ، فمررت بمحبتك هذه العملية وخربتها . ومع ذلك تساهلت فضربت لك هذا الموعد ، لانك جئت من سان ليونار لاجلي ، ولم اشأ ان يذهب قلبك سدى . ولو لم تتأخري ربع ساعة ، لكنت لنا ساعة ونصف الساعة للتحديث بلطف والسحاجم . اما الآن فلا ادري ما هو قصدك .

... ما الذي تبحث عنه ؟ أريد ان تعرفني حق اريحك من وجودي معك ؟ أرى انك ما دعوتني إلا لهذه الغاية : لتروي لي قصة قذارتك مع فتاة المطبخ اقلت وأقول دائماً انك عاجز عن ان تحب في المساواة ...

— لا احب في المساواة لأنني ابحت في المرأة عن الطفولة . ولا استطيع ان اعطف على امرأة ، ولا ان اشتبهها ، إلا اذا كانت علاقتي بها تذكرني بايام حداثتها .

— اذا ، ستكون نهايتك في بحكة الجنب ، بتهمة الشذوذ والتغريب بالقاصرات .

— ان حب القاصرات دليل على استفحال الذكورة .

— أهذا هو « عطفك » الذي حدثني عنه في رسالتك ؟

راى انك نصبت لي هنا شركاً مغنوباً ، خلقياً ، بعد ان اعدته  
وهياته بكل عناية كما تُعدّ وتهبى كل شيء ... ولكن ، قل لي ، ألم  
تخرج من صمتك الطويل لتكتب الي : « فرصة سانحة ، فاعتنمها » ؟  
- كنت امزح .

- كان نيرون يضحك ويقول انه يزح كلما انقضّ على احد اصحابه  
ليطعمه بخنجره ، فاحطأه .

اجاب بلهجة تم عن منتهى السخوية :

.. ربه اها نحن قد وصلنا الآن الى نيرون ا

ورفع يده يلامس بها احدى عينيّه قائلاً :

- لا تؤاخذيني . ما ذنبى اذا كنت احب المزاح ؟ ان الحياة تصبح  
لذيذة سائغة حين نعرّسها من الجدّة ومظاهر الوقار . ولكنك ، مثل  
جميع النساء ، تظنين دائماً اني لا امزح حين امزح ، واني امزح حين  
لا امزح .

-- لم يبقَ عليك إلا ان تعترف بانك استدعيتني لتعذبني ، ولتراب  
في نتائج تعذيبك البسارع ، ولتنظر الى شموري وافكاري تنخبط في  
نفسى ، كما تنظر الى فصيلتين من النمل تتصارعان حق الموت ويفترس  
بعضها بعضاً ، او الى قتال يجرى بين سكان القمر ، وانت بعيد ، بكل  
حذر ، عن الميدان ، ويرعبك حق التفكير بان تتورط فيه . تحب  
الاحتفاظ بي في متناول يدك ، كما يحتفظ زعيم أكلة اللحوم البشرية  
بالرجل الابيض الذي وقع اختياره عليه ، ليقتطع منه شريحة كلما طاب  
له الاكل ... اواه ! ما اجل شفقتك على النساء ! وكيف تكون حالك  
لو لم تكن شفوفاً ! انها شفقة الطاهي على البطة وهو يقطع رأسها .

-- اعترف بان تصرفي معك لم يكن خالياً من السجل في بعض  
المناسبات . اما الآن فلا اريد بك شرّاً . منذ قليل احببت ان اعذبك ،  
اجل ، وطلبت اليك السماح لي بتعذيبك ، ولكني عدلت الآن عن تلك

الرغبة ، لأن لك في نفسي مودة كبيرة .

وفي هذه اللحظة ، رأت أندريه شيئاً بدا لها عجبياً مستغرباً :  
رأت عينيه تتألقان بالجد والاحترام ، فتبادرت الى ذهنها كلمة « اخوي »  
التي كانت ، في ما مضى ، تحب ترددها كلما فكرت به . وطفرت  
هذه الكلمة من صدرها الى شفيتها كأنها وحدها تستطيع التعبير عما  
اعتلج في صدرها تلك اللحظة . إلا ان ذلك التألق المشجع ، المنعش ،  
ما لبث ان تلاشى من عيني كوستال .

قال لها ليمت في نفسها أملاً خلاباً كاذباً :

— أعتقد اني استطيع ان اكون سخيًا معك ؟

— لم اعد اؤمن بك ولا بما يأتي منك . لقد خدعتني طويلاً ،  
وضللتني وبالغت في تضليلي عن قصد وتصميم ، حتى غدوت اعرف  
الرجال . انهم ليج بريدة النور من الفطاعة والحفايا والتناقض امام نساء  
لا يعرفن غير الحب ، لا يعرفن إلا تمضية الحياة في مقابلة الشر بالخير ،  
مهما كنَّ حمقات ، ومهما تكن قدرتهن على الحب ضئيلة .

— اعتقد اننا لا نطلب اليهن هذا القدر من الحب . اما التناقض  
فاقول فيه انه يحيد مجالاً اوسع في حياة الرجال لأنهم اذكى من النساء .  
— دعني منك ومن ذكائك . واذا كان لي في نفسك ذرة من العطف ،  
كما قلت ، فانتقذي . انتقذي ، يا كوستال . لا يكلفك هذا الانقاذ شيئاً ،  
ولكنه الحياة كلها بالنسبة اليّ . وبعد ، فيجب ان احيا !

وكانت الى جانبه ، على مسافة بضعة سنتيمترات ، وقد اغمضت  
عينها . وظلت مغمضة العينين كمن يتوقع ضربة . وكانت اشبه بالشبح  
في استسلامها الملتهب ، وبعينها المطوقتين بدائرتها الزرقاوين . ولم يكن  
يسمع إلا نقر العصافير على زجاج النوافذ ...

ولما ظل كوستال صامتاً ، وكانت قد لاحظت انه لم يطرف له جفن  
عندما قالت : « وبعد ، فيجب ان احيا » ، ادركت انه قال في نفسه :

« وما الفائدة من حياتها ؟ » وابتعدت عنه بضع خطوات وهي منكسة الرأس ، ثم قالت متلعثمة :

— التمس منك المذرة ، ففي عيني ذرة تراب .

واستدارت نحو الحائط لتكفكف دموعها بحرمتها في صمت رهيب ، لا تنهد فيه ، ولا زفرة واحدة .

انتظرها كوستال حتى فرغت من بكائها . ثم رأى ان هذه الرواية قد طالت أكثر من اللزوم ، فقال في نفسه : « لم يفت الوقت بعد ، ففي وسعي ان اجعلها سعيدة حتى الجنون بكلمة واحدة » . ولكنه لزم الصمت ، ولم تتحرك شفتاه بتلك الكلمة . فعادت اندريه الى جوار الطاولة ، ودنا كوستال منها خطوة ، فوقع نظره على يدها اليمنى ، ورأى مسام يكن قد رآه بعد ... رأى اظافر اندريه كلها طويلة ، مهندمة بعناية ، ما عدا ظفر الاصبع الوسطى ، فقد كان مقطوعاً من ارومته .

وارتفعت عيناه من يد الفتاة الى الدائرتين الزرقاوين حول عينيها ، وجعلت جفونه تطرف بسرعة تحت تأثير موجة عارمة من الشهوة تدفقت في جميع انحاء جسده . ولكن الفرصة المؤاتية مرت سراعاً ، وانتهى بعدها كل شيء .

— متى انكسر ظفرك ؟

فاجابت ، وهي منكسة الرأس :

— ليس لهذا الامراهية !

واطبقت يدها بحركة عصبية لتخفي اناملها . فاستطرد كوستال قائلاً :

— اذهبي في سبيلك ، يا صغيرتي . اعتقد اننا انتهينا من حديثنا . وفكر بانها قد تكون مسلحة ، وقد تحاول قتله او صفعه على الاقل ، فدنا منها ليتمكن من تحويل ضربتها عنه اذا حاولت ان تضرب ... دنا منها كما يدنو مصارع الثيران من الثور ليتحاشى نطح قرنيه . قرفعت رأسها ،

وبدت ذاهلة ، مشدوهة . وحدقت اليه بامعان دون ان تتحرك وفي عينيها  
ذلّ وانكسار . فادرك انها لا تريد قتله ، وان هذه الفكرة لم تخطر في  
بالها ، فقال في نفسه : « ما اغرب النساء الفرنسيات ! »

وخاطبته قائلة :

— كوستال ، لن اراك بعد اليوم . ولكنني اطرح عليك سؤالاً اخيراً :  
أفأفقد الشعور انت ؟

— انا فأفقد الشعور ؟ هذه نكتة طريفة . لو كنت فأفقد الشعور لما  
كنت مذبذباً .

— ما معنى هذا القول ؟ أفأفهم منه انك تريد ان تكون مذبذباً ؟  
لم يجب عن هذا السؤال ، بل فأقامها برفق ، ممسكاً بذراعها ، وسار  
بها صوب الباب المؤدي الى الحديقة الصغيرة ، فالشارع .  
وكانت في السماء غيمة لها شكل جناح ، فقال كوستال في نفسه :  
« أأطبع قبلة على جبينها قبل ان اطرحها في الشارع ؟ » ولم يجد من  
الاسباب ما يشجعه على هذه البادرة او يثليه عنها . وكان جرس الباب  
معطلا منذ حين ، لا يرن إلا نادراً اذا فتح الباب من الداخل . فقال  
كوستال في نفسه : « اذا رنّ الجرس ، اقبلها » . وفتح الباب ، فظل  
الصمت سائداً . وكانت زقزقة المصافير تغزل فوق رأسيهما خيلة من  
الألحان . فأبتسمت اندريه .

واغلق كوستال الباب . وخطر في باله انها ستعود ، وستقرع الباب ...  
وان شيئاً ما سيحدث . إلا انه كان واهماً . وطالما خدعته ظنونه .  
ولما عاد الى البهو ، انتظر قليلاً ، ثم صعد الى برج الحمام ، او غرفة  
رماد الموتى .

ـ والآن ، يا صغيرتي ، ما رأيك في ما حدث ؟

وكانت سولانج واقفة في برج الحمام ، في المكان الذي احتلته وراه الستار لترى وتسمع ما يجري في البهو . فنظرت الى كوستال بعينين شاردتين مشربتين بالاحمرار ، وقد توردت وجنتاها كما كانتا تتوردان حين كان يضيء الكهرباء بعد ان يلهب جسدها تقبيلًا ومداعبة . وكان وجهها يبدو ملفوحًا ومتورمًا قليلًا من حرارة القبل ، فاذا به في ذلك اليوم متعجب ظاهر المياء ، مع ان كوستال لم يكن قد قبله إلا ثلاث مرات او اربعًا ، منذ ساعة ونصف الساعة . وكان شعرها منتفشًا ومبعثرًا ، لأنها لم تبلته صباح ذلك اليوم .

وأعاد عليها سؤاله قائلاً :

ـ ما رأيك في هذا المشهد ؟ ألم يكن صراعًا حسب القواعد المتبعة

في مواسم الارياض ؟

ـ ليتني ما رأيته ! لما قرأت لي بعض رسائل هذه المرأة ، اشفقت عليها ، اما الآن ، بعد ان سمعت ما سمعت ، فقد زالت من نفسي كل شفقة . لما اعطاها هذه الرسائل أصيبت بصدمة ، واعتبرت عملها فضولًا وقلة ذوق ، مع ان كوستال لم يكن قد اطلعها على اسم اندريه . وقد صارحته بما يساور نفسها في هذا الشأن ، فاجابها :

ـ اني ازيج قبعتي من مكانها<sup>١</sup> .

---

١ - قال « بريي فيسكونتي » في مذكراته عن بلاط ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، ما يلي :

قالت : ماذا تعني ؟

قال : سأشرح لك معنى هذه العبارة عندما تتقدمين في السن .  
ولكنها احسنت انها اصببت بصدمة قاسية . وتعلم في اعماقها شعور  
غامض بتضامنها جنسياً مع اندريه ، فخليل اليها ان كوستال قد أذلها  
هي ايضاً لما أذل اختاً لها في الاثوثة . إلا ان ثقبتها بنفسها كانت كبيرة ،  
فلم يخطر في بالها ان تسائل نفسها : « أترأه يعاملني مثل هذه المعاملة  
يوماً ما ؟ »

وخاطبها كوستال قائلاً :

— ان رؤيتك تعشني . ويسرني ان ارى امرأة تبقى على صعيد  
الحقيقة . اصارك بانك احدى النساء النادرات اللواتي عرفتهن في حياتي  
وايقنت انهن غير مجنونات . فالكتاب يجتذبن المجنونات كما يجتذب اللحم  
الذبان ، فاذا بنا ، في نظرهن ، مسؤولين عن عزلتهن ، عن كبت شهواتهن ،  
واذا بهن ناقيات لأجل اوهام وخيالات في رؤوسهن . اما انت فانك  
الشذوذ الذي يؤكد هذه القاعدة . واني احبك لانك شاذة .  
— ولكن ، لماذا تجيب عن رسائليهن ؟

— وما حيلتي في الامر ؟ عندما ارى الذبان على قطعة اللحم اقول في  
نفسي : « يجب ان يأكل الجميع » .

= « انشري سكرتير الكونت دي فيش ، قال : كان الكونت يوماً في حاشية  
الملكة ، وقد تجلست حول جلالتها الاميرات والدوقات ومن جالسات ، بينما  
بقي كثيرون من الحاضرين وقفاً ؛ فاحس الكونت ان يد احدى السيدات ،  
من صديقاته ، قد امتدت اليه وراحت تمسك بكتف من جسمه لا يليق ذكره ،  
او بالطرقي يحسن عدم ذكره بدافع التواضع ، وكان الكونت قد سار  
هذا المكان بقبمته ؛ ثم لاحظ ان السيدة ادارت وجهها عنه ، فرفع  
قبمته بنجته ، وراح الحاضرون يضعون متهمسين . ولك ان تدرك كم كان  
خجل تلك السيدة كبيراً ومذلاً ... »

« وكان الكونت يتكرر كل يوم لعبة جديدة من هذا النوع ليزهج النساء ،  
ومع ذلك كن يتنافسن عليه من كل صوب » . - المؤلف .

وطوقها بذراعيه ، ثم جعل ينشق ما في وجهها من دفة ونضارة .  
وسعت إحدى يديه حتى بلغت كتف الفتاة من تحت حمالة الثياب التحتانية ،  
وكان من أروع مقتضيات هذه الحركات ، وراح يمزقها بالقاء نظره عليها ...  
وكان قد تاق الى الانفاس اخيراً في شيء يشتهي ، واحتدمت رغبته  
في الاستيلاء على سولانج كأنه التقاها بعد غياب طويل .  
وكان عائداً ، بالفعل ، من بلد بعيد ، من جحيم اشخاص لا يعجبونه ،  
فكاد يرسل ذلك النباح الحافيت المخنوق الذي ترسله الكلاب في نشوة  
سرورها لدى عودة اصحابها الاخيار او الاشرار .  
قال لسولانج :

... جيتك الآن برداتي ، وهي ما تزال حارة . هذه الرداءة هي عطفي  
عليك . والرداءة والعطف شيء واحد . ما معنى ان يكون المرء عطوفاً ،  
او ان يكون رديئاً ؟ لا فرق بين الحالين . قد نروي احياناً عطشنا  
بسيكارة ، والسيكارة تحرق ، بينما الماء يרטب . إلا ان الحالين شيء واحد .  
لا تحاولي ان تفهمي ، فمبتأ تحاولين !

أرأيت هذه الفتاة ؟ ان مشيلاتها يملأن الاسواق ا وهن جميع النساء  
الواتي رفضتن لانهن لا يعجبني . انهن لا يصلحن إلا لعملية تفريق على  
طريقة « كارييه »<sup>١</sup> . وهكذا انتهى معهن دائماً : رُروبو ... اشق  
تحتن المفواة ... وعليهن سلام الشيطان . ان ما يجب الآن هو ان تلتحر  
هذه الفتاة لتخلص منها تخلصاً حقيقياً ، نهائياً . أريتك هذا المشهد لتدركي  
ما يحل بين لا احب . هذه فتاة نشأت من لا شيء ، وارتفعت وحدها  
بلا مساعدة ، في اصعب الاحوال واقساها . انها مثقفة ، مرهفة الاحساس ،

---

١ - جان باتيست كارييه ( ١٧٥٦ - ١٧٩٤ ) عضو في مجلس « كورنيلسون »  
الفرنسي في اثناء الثورة الكبرى . اشتهر بالظلم والفساد اذ كان يأمر باغراق  
مئات المشبهين في نهر اللوار ، بمدينة نانت . وقد اتهم اخيراً بالمثيانية ، وانتفى  
بان لقي حتفه على اللصلة .



متوقدة الذكاء ، مفعمة نبوغاً ، تحبني منذ خمس سنوات . فإذا وضعنا استحقاقها ومزاياها في الميزان بالنسبة اليّ ، تبين لنا ان استحقاقك انت ومزاياك لا شيء . ولكني لا احبها . لم اعطها شيئاً قط . لم اتصدق عليها بقبلة . لم آخذ يدها بيدي ، لاني لا احبها .

اما انت ، فما كدتِ تظهرين حق اعجبتي . اني اعطيك كل شيء : عنايتي ، وعطفي ، وقوتي الجلسية ، وذكاؤي . تذكرني هذا ، واحفظيه لليوم الذي ستضطرين فيه الى الشكوى مني . فهو آتٍ حتماً .

انك تتعمين بكل شيء دون سبب ، ودون استحقاق . لا مبرر لاعطائك انت دون سواك . لا مبرر لهذا التفضيل وهذا الانحياز . اذكر بيتاً من الشعر لا ينفك يقفز في ذهني كلما فكرت بك ، وهو :

« لا ادري لماذا اخترتها » .

ولا اذكر متى قرأت هذا البيت ، ولا اين قرأته .

من انت ؟ انت فتاة كالأخريات . انت قطرة ندى على عشب في مرج . فلو تجمعت فيك جميع المثالب ، جميع « الصفات السلبية » في العالم ، أظنن اني كنت عدلت عن حبك ؟ كان عليك ان تعجبيني . ولم يكن هذا الامر في يدك ، ولا كان رهن ارادتك . مررتُ بك واخذتك بالصدفة تقريباً . وهكذا تجري الحياة ، من صدفة الى صدفة . لماذا نختار هذا دون ذاك ؟ بالحقيقة ، ليس لهذا الاختيار اسباب . واذا وجدنا له سبباً فهو سبب ضئيل ، تافه ، لا يستحق الذكر . كل شيء لك انت . وللأخريات لا شيء على الاطلاق غير الحية . اننا هنا في وهدة من الظلم سحيقة ، ولهذا اراني مرتاحاً ومبتهجاً . ولكن هذا لا يعني اني لا احب الانصاف والعدل . اني افضل ثارة الظلم على الانصاف ، وطوراً الانصاف على الظلم . ولا بد من اطلعك على هذا الأمر . وانت تعلمين اني احب ان اقول لك اشياء مزعجة . فهذا جزء من حيي لك .

وكانت تستمع الى حديثه دون ان تفهم جيداً كل ما يقول ، وهي

في غمرة من التعجب والذهول . ولا غرابة اذا تعجبت وذهلت ، فهي من محيط اذا تحدث افراده عن احد الكتّاب قالوا : « انه كاتب ، ولا يجوز ان نأخذ ما يقول على مأخذ الجد » . وكان هو مسروراً بصمتها واحجامها عن الرد عليه ، لان ردها لا يمكن ان يكون إلا مختلفاً عن فكرته هو منها قالت .

قال لها ايضاً :

-- كم هناك من اشياء ليست انت ! كون المعارف ، كون الآلام ، كون العدالة ، كون المسؤولية ... انها اكوان لا يخطر وجودها في بالك ، وانا لا اراها إلا كما ارى البرق الخلب . ينطلق سهم ناري في الجو ، فيلقي عليها ضوءه لحظة . ثم تعود الى الليل ، ليلى انا . ومع ذلك ، أراني كبير الاهتمام بك ، اعطيك من مادي ، واخاطبك احياناً كأني اخاطب عالماً مجهولاً .

كم كلمة من كلماتي بلغت هدفها ؟

ما اكثر ما اضعت من الطلقات النارية ! أعتق انا ؟ أخطئ انا ؟

انت فتاة صغيرة ، بورجوازية ، باريسية ، في العشرين من العمر . وهناك اناس يقولون لي في سرهم : « أهذا الشيء تهتم ، بينا الطبقات الاجتماعية ... بينا الشعوب ... بينا الامبراطوريات ... ألا تشعر بالتحجل ؟ » ويقول آخرون : « ان هذه النفس الصغيرة وحدها تساوي نفس شعب بأسره . جميع الآلام التي فجرتها الحرب في العالم لا ترجع على دمة واحدة تذرّفها هذه الطفلة . واذا لم يكن في حياتك شيء إلا انك غربتها بالحلب ، فقد قت بدورك الانساني على هذه الارض خير قيام ، واستثمرت بقعة الارض الانسانية التي جعلتها الحياة في كل منا ، فحريتها ، وزرعها ، واستنبثتها خيراً وجمالاً » .

بين هذين الرأيين ، أيها الصحيح ؟

ان هذا السؤال يطرح دائماً ، وهو دائماً حقير وفاسد . فالرأيان صحيحان

كلاهما . يجب ان نستوعب احدهما وندركه كلياً ، ثم نستوعب الآخر  
وندركه ايضاً . فهنا وجهان اثنان لحقيقة واحدة . ان اصحاب القلم  
الأنيق يكتبون ان الحقيقة أليمة ، ولكنهم يفسون دائماً ان يأخذوا  
بعين الاعتبار عدد الصفحات للمساء المشعة في هذه الأليمة .

والآن ، الزمي الصمت ! لا تردي عليّ . لست بحاجة الى ان تفهمي  
ما اقول . ولكفي ، انا ايضاً ، لست بحاجة الى الاطلاع على انك لم  
تفهمي ما قلت .

وراح يغلق النوافذ<sup>١</sup> ويسدل الستائر . وكانت على الطاولة ورقة  
ملونة الطبع ، كتب عليها باحرف كبيرة عنوان اعلان هذا نصه :  
« ارى كل شيء » ، فطواها بخفر وحياء ، كي لا ترى شيئاً .

وكانت نفسه محتمة كأنها تهضم جرعة كبيرة منعشة من الكحول .  
ولم تكن هذه الجرعة إلا المتعة العارمة التي غنمها من قسوته على اندريه .  
دفع سولانج الى السرير وقلبها عليه ، وهي مرتدية ثيابها ، ثم مد  
ساقها بعناية .

وبعد هذه المقدمة ، تقمصه عليج مصارع ، لا هم له إلا ان يسيطر على  
خصمه سيطرة تامة .

كان عادةً يخشى ان يضمها بشدة لئلا يوجعها ، فهي ما تزال رخصة  
المود ! اما الآن فقد عد ، للمرة الاولى ، الى الشراسة الوحشية . ولم  
يلجأ الى العنف ، لان سولانج كانت تتخبط بمحاولة الافلات ، بل تعدد  
القسوة لأنه اراد ان يترك ذكرى متميزة لا تغرب عن الذهن .

راحت الفتاة تصيح : « لا ! لا ! » وفغرت فاهها ، وجعلت تحرك

---

١ - كان برج الحمام يطل على حديقة احد الادبار العديدة في هذا الحي . وكثيراً ما  
كان يسمع قرع الاجراس ، وتقع عين كوستال من النافذة على الراهبات . ولم  
يشأ المؤلف استغلال التناقض بين اعماله وسياة الدير ، مع ان هذا الاستغلال  
كان في غاية السهولة . - المؤلف .

رأسها مينا ويساراً . فشق انفاسها ، واشتم منها رائحة جديدة غير التي كانت لها ... رائحة منبعثة من الاعماق ... رائحة كانت الصبغات الملوقة تغترفها من قرارة الروح والجسد .

لم يستطع ان يجمد رأسها إلا لما عضّ لسانها ، وراح يشد عليه بأسنانه كلما حاولت حراكاً . وبأعضاء جسده جميعاً ، جعل يعرك ، في انتظام ورثابة ، هذا الشيء الغامض الذي كان يدعى اللسة دنديو .

وفجأة ، أصبح كل شيء سهلاً ، فانساب كوستال في شعور جديد . اغمضت سولانج عينيها وانقطعت عن الشكوى ، بينما كانت صاحبنا في وضع المتكف المتأمل في احساسه الذي بدا له زهيداً واقل من معتدل .

لم تعطه إلا متعة عقلية ، فقال في نفسه : « قضي الامرا » واكب عليها ينشق وجهها ، كأسد يمزق لحم فريسته ، ويضع عليه قائمته ، ثم يتوقف من حين الى آخر عن تمزيقه ليلحسه .

كان جبينها وانفها رطبين ، يرشحان بقطرات الهبة من الندى ، فمسحها بأحدى المحارم التي طرّزتها له اندريه هاكبو . وكان رأس سولانج قد انزلق بين المحدثين مستلقياً الى وراء ، فتجلى جمال العنق الاصفر الطويل ، والنحر المعتلى ، والصدر الناهد ، وحجب جمال الوجه .

وكانت نظراتها مفعمة بتعبير بليغ عن العطاء الكلي ، اللاحدود ، حتى انه ارتعد خوفاً ، ومدّ يده الى عييلها فاعمضها . وكانت شفتاها منفرجتين ، وقد بدت تحتها اسنانها الصغيرة كاسنان الخروف عندما يفصل الجزأر رأسه عن جسده . هناك ثلاث ابتسامات متشابهة : بسمه الميت ، وبسمه المرأة السعيدة ، وبسمه رأس الحيوان الذبيح .

حدّق اليها برهة بكل انتباه ، ثم اخذ يحاول تمييزها من سواها ، ليري ما الذي يجعلها اكثر من جسد انثى ، وشيئاً آخر غير الاداة اللازمة لتمرّن فن المداعبة ، او شيئاً آخر غير مرآة رأى فيها نفسه وهو يتمتع .

استلقى الى جانبها ملتصقاً بها . واحس بفكرة كئيبة ترفرف في روحه ، ثم انطلقت هذه الروح تجول حول كل ما هو غير سولانج .  
انها الفترة الدهرية التي يقول فيها الرجل قول الانجيل : « ما لي وما لك يا امرأة ؟ » انها فترة الرحمة للنساء .

ولا ريب في ان الغيوم حجبت وجه السماء في هذه الاثناء ، لان الغرفة غدت احلك ظلاماً . فتذكر كوستال النساء المتهلات الاعصاب ، البيضاوات الاجساد ، الغارقات في المعاصي والذنوب ، اللواتي يأخذهن الرجل بين ذراعيه ، في ساعة الفسق ، في مكان مرتفع ومشرف على المدينة حيث يبدأ تدريجياً اشتعال الانوار ، فتقول المرأة : « هوذا ضوء يلتمع ... » ويحتفظ الرجل بها ، رحمة لها ، وهو يومها بأنه يجيها .

وجرت هذه الذكريات ذكريات اخرى الى ذهن كوستال ، فانفتحت حياته كلها امام بصيرته انفتاح ريش الطاووس ، فاذا بها ، ماضياً ومستقبلاً ، مبتعدة بصور وجوه تبقي ريش الطاووس بالدوائر المذهبة ، فاشفق على تلك المحاوكة الصغيرة المنطرحة الى جانبه ، ووجهها في حفرة كتفه اليسرى حيث غرقت قبلها وجوه كثيرة . فلو كانت هذه الحفرة لوحة تصوير تلتقط صور الوجوه التي تنعكس عليها ، لبدت فيها صورة مذهلة مؤلفة من تراكم تلك الوجوه على صفحة واحدة ...

اشفق عليها لانها جازفت بحياتها ، وألقت بنفسها بين يديه . ولكنه على الرغم من هذه الشفقة احس انه لن يتردد في لومها وتوبيخها اذا لجأت الى اقل حيلة في تصرفها معه ، او اذا اتخذت بعض الاحتياطات على سبيل التحفظ .

اشفق عليها لأنه لا يجيها اكثر ، ولم يجد من الاسباب اكثر من التي وجدها لتزداد حرارة حبه لها ... ولانها بالنسبة اليه واحدة بين كثيرات ، بينما هو الوحيد بالنسبة اليها ، ثم لانها تعتقد انه يعطيها نفسه ،

بينما هو يعلم انه لا يستطيع اعطاءها هذه النفس .  
وجعل يفكر قائلاً في نفسه :

« يصرف المرء ايام الشباب في حب اشخاص لا يستطيع امتلاكهم إلا امتلاكاً ناقصاً ، سيئاً ، لشدة خجله . وفي سن النضج يصرف ايامه في امتلاك اشخاص لا يستطيع ان يحبهم إلا حباً ناقصاً سيئاً ، لانه شبع واكتفى » .

كانت احدى ذراعيه تحت رأس سولانج ، ولكن وجهه وجسده كانا متحولين عنها . وكان من حين الى آخر ، يحس ان خيائته لها تزداد قسوة عليها في اعماقه ، فيمد يده باحثاً عن يدها ، ليشجعها ويقويها ، كأنها تقرأ ما في نفسه وتحتاج الى القوث .

وبما انه قال منها كل شيء ، ولم يمد ينتظر مزيداً ، شعر بحاجة الى مضاعفة تظاهره بلاطفتها والعطف عليها ليقاوم مجرى الوقت الذي يدفعه بسرعة الى يوم عتوم ينتهي فيه حبه لها .

استدارت صوبه وقبّلته على خده دون ان تفوه بكلمة . وعلى الرغم مما جرى بينهما ، احتفظت قبلاتها بنضارة الطفولة وبراعتها . وقد خرجت من ركودها الطويل لتطبع على خده هذه القبلة ، كما ترتفع موجة وحيدة فوق بحر هادئ . فانفجرت من قلبه صيحة تقول : « من المحتمل ان تعذب بسبي . احبها ، ولكنها لا تملك القدرة على تعذيب . يجب ان اضع حداً لهذه اللعبة ، لهذا التفاوت المقيت الذي لا يخسر فيه الا الضعيف ! »

وارتفع فيه صوت يهس في اذنه : « تقول انك تحبها ، ولا تستطيع ان تعذب بسببها ، وهذا يعني انك لا تحبها » . فردّ على ذلك الصوت قائلاً : « ما أغرب هذا الاصرار على اعتباري شبيهاً بالآخرين ! احبها ولا يمكن ان تعذب بسببها لاني اختلف عن سائر الناس . لست من الذين يسهل تعذيبهم » .

واستولت عليه شهوة جامحة الى اعلان الحقيقة . وكانت هذه الشهوة  
تحتدم فيه احياناً فيضاً من الانوار او غمراً من الغموض ، او هالة من  
المجد او نزوة من الرذيلة ، حتى ان احدى صديقاته سمّتها : « الاستقامة  
الكارثة » . وفي هذه اللحظة المفعمة بالاحاسيس احب ان يقول لسولانج :  
« يا صغيرتي الحبيبة ، يا صغيرتي الحبيبة ، من الافضل لك ان اندرك :  
لا احبك كفاية ، ولا بد لك ، انت ايضا ، من التخلص عني يوماً ما  
لامرأة سواك . وسيأتي يوم لا اعود فيه اذكرك ملامح وجهك . اني من  
النوع المشترّد بين الرجال . سأحب نساء اخريات ، جديديات ، وقد  
اكون بدأت اجهن منذ الآن ( لم يكن هذا القول صحيحاً ) . وربما لم  
اعد احبك ... ربما اني لم احبك قط ، يا ابنتي الحبيبة ... » ولكنه  
كان يعلم انها كالأخرين ، كمظاء هذا العالم ، تعيش وتتغذى بالكذب  
دون سواه ، وقد تموت اذا لم يكذب احد عليها . وان الحقيقة مكروهة  
وممنوعة تحت طائلة التأديب البوليسي ، اذا تزهدت عارضة كما هو  
معروف عنها <sup>١</sup> .

لزم الصمت ، ولكنه ضغط بشدة على يدها ، وهو يقول في نفسه :  
« ان ما يجب الآن هو ان تكون مسرورة » . اما هي فقد امنت بدس  
وجها في عنقه ، وارسلت هديلاً لا ننصفه اذا شبهناه بهديل الحمامة ،  
لانه كان هديل الحمامة بالذات .

سألها ما معنى هذا الهديل ، فاجابت : « يعني اني على ما يرام ... »  
وكان صوتها بعيداً ، عميقاً ، كأنه آتٍ من ذاتٍ اخرى لها ، من  
شبهها وهي طفلة ، وكأن هذا الشبح يتكلّم من اعماق وجدانها الذي  
وقع فيه .

فتذكر ، عندئذٍ ، انه عرف لساء لم يبعث فيه مثل هذه الرغبة في  
الفرار ، حين كان يستلقي الى جانبيه ، بعد الوصال ، كما هو مستلقٍ

١ - اشارة الى الممثل الفرنسي الغائل : « الحقيقة تخرج عارية من البئر » .

الآن . الى جانب اولئك النساء وفي مثل هذا الوضع ، كان يتخاطب نفسه قائلاً : « قد اموت هكذا ، ولا يهمني ان اموت الآن » . اما الى جانب سولانج فلم يتبادر هذا القول الى ذهنه ، ولم يفكر بأنه راغب في الموت .

وعاد يردد : « ان ما يجب الآن هو ان تكون مسرورة » . فرأى ما تنطوي عليه هذه العبارة الصغيرة من المعاني ، وتبين له ان هذه المعاني لا تختلف مطلقاً عما كان يشعر به نحو اشخاص كثيرين ومن مختلف الانواع . وليس المهم ان نعرف كيف يكون المرء مع الذين يحبهم ، بل مع الآخرين .

وتذكر ايضاً ما انتابه من التأثير العميق لما قرأ كتاب : « الحياة المرحية في الكتيبة » ، ووقعت عينه على اقوال النقيب الهرم « هورلوريه » الذي قال يوم احيل الى التقاعد : « خدمت اربعين سنة في الجيش . وكل ما له قيمة في هذه الخدمة كان نجاحي في منع بعض الجنود من ارتكاب المخالفات ، وانقاذ البعض الآخر من العقوبات ، وجعل حياة الكتيبة اقل كآبة واوفر مرحاً وسروراً . فاذا 'وجد يوماً أناس' تذكروا نقيبهم وقالوا : « كان هذا النقيب رجلاً طيباً » ، اكون قد حصلت على افضل جزاء اطمح اليه » .

ما كاد كوستال يقرأ هذه الكلمات حتى رفع رأسه ، واحس انها تغلغلت الى اعماق اعماقه ، ثم قال في نفسه : « اني رجل من طراز هورلوريه . لا ريب ان في نفسي اشياء اخرى ، ولكنني هورلوريه » .

ورأى بوضوح ما تعنيه عبارته بشأن سولانج ، ورغبته في « ان تكون مسرورة » لان هذه الرغبة لم تكن تختلف عما احس به حيال رجاله في جبهة القتال . فقد كان يسائل نفسه : « أترام مسرورين ؟ أترام يحتاجون الى شيء او يشكون من شيء ؟ »

وفي منزله كان اهتمامه يتجه الى الخدم ، فيزعج نفسه ليسمح لهم



بالحصول على اوفر نصيب من المرات والانشراح . وفي المستعمرات ، كانت اذا سمع احد الخدم الزوج يسعل وهو قائم ، هباً من فراشه ويغطيه بحرام ليدفئه .

لو عرضنا حياة كوستال على هذا الصعيد لتبين لنا انه كثيراً ما كان يرى شريداً مجهولاً ، فيأويه في بيته ، ويستضيفه ، ويتضامن معه في ظل هذه الضيافة ؛ وكان يلتقي كثيرين من الرجال والنساء المحتاجين ، فيعطيههم اكثر مما يعطيهم سواء في مثل حاله . وكان يعطي دون ان يكون مدفوعاً ببداً يدين به ، ودون ان يؤمن بان الخير افضل من الشر ؛ كان يعطي دون ان يكون له رأي ثابت في هذا العالم ، لانه ادرك عن كثب ان تحديد شؤون الحياة غير ممكن ، وان « الشعب » لا يحرص في نطاق ثابت من الاعتبارات ، وان هذا النطاق لا يصلح لظهار حقيقة سكان المستعمرات ، ولا حقيقة النساء ، او الفرنسيين . فكل شيء موجود في كل شيء ؛ والاخبار اشرار ايضاً ، كما ان الاشرار اخيار ؛ واعطى ، اخيراً ، دون ان يخامرهم اقل فكر بان هذا العطاء محسوب له في مكان مما من قلوب الرجال والنساء الذين اعطاهم ، والذين نسوه بسرعة ، او في اعتبار الرأي العام الذي يجهل اعماله ، او امام المحاكم البشرية التي يوزع منها الاوغاد مظالمهم ، او امام المحكمة السبوية التي لا يؤمن بوجودها ، وكل ما يستطيع قوله فيها انها لو وجدت ومثل امامها في قفص الاتهام لجاء مئات من الناس يشهدون له . وليس من العجب ان يمثل امام المحكمة لانه لم يبال قط بالقوانين .

وفي تلك اللحظة ، رأى ان سولانج دنديتو واحدة من الجمهور الذي تراءى له ، فاشفق عليها لانها لم تكن معه في عزلة عن الآخرين .

وظل مستلقياً ، لا يفكر بها ، فسألته :

— بم تفكر ؟

لان صمته الحالم كان قد اقلقها ، فاجاب :

— بك .

وانساب في ضميره خيط من السأم في منتهى الحنفة والدقة ، فقال في نفسه : « سأضع ، يوماً ، في احد مؤلفاتي ، صورة لاسنانها الشبيهة باسنان الخروف الذبيح ! » ولدى تفكيره بأنه « سيستعمل » سولانج ، احسّ بغصة تشد على عنقه كأنه على وشك البكاء . ولكن فكرة مفاجئة ، مرحة ، قفزت من ذهنه كما يقفز الدلفين فوق مياه البحر الهادي ، فراح يخطب نفسه قائلاً : « ما اكتر ما سمعت الناس يرددون اني مذنب ، وحق « مجرم » ، لاجرامي عن أخذ فتاة تقدم لي نفسها ! فيا ايها الطبيعة ، ويا ايها المجتمع ، ويا ايها الرأي العام ، اراضون انتم هذه المرة ؟ اراهن على انكم تجدون في تصرفي شيئاً من النقص حتى في هذه الساعة » .

وسلّته هذه الفكرة بقدر ما شجعتته على البوح بما في صدره ، على قول ما كان يصعب عليه قوله ، فجلس ، وانحنى على سولانج ، وابتم لها قائلاً :

— انت خليلتي الآن ، يا صغيرتي دنديتو ! وقد رأيت كيف تجري شؤون الحياة ... وانا مستعد ان اشاركك لك كرزاً اذا استطعت الانفصال عني .

فقطبت حاجبيها قليلاً ، فجعل يمسد بايهامه جبينها المتجمد بين الحاجبين ، وهو يقول :

قلت : « لا » ، بينما كنت تفعلين معي ما فعلنا ، فانقلدت شرفك . ولكن ثمة اشياء مزعجة . أتدريين ما ينبغي للمرأة ان تعمل في مثل هذه الحال ؟

ومس في اذنها كلمات لها علاقة بالصيدلة . وودّ لو ان الحجرة التي تحتويها اشد ظلاماً ، لو انها تحضن حلك الليل كله . وردد مرات عديدة قوله : « ينبغي ان اقول لك بعض الاشياء ... » ولكن الحقيقة ان خجله لم يكن

ناجماً عن هذه الاشياء ، ولا عن اضطراره الى قولها ، لانه كان يعلم انها مفيدة ، وان كل مفيد ينطبق على قواعد حسن الاخلاق ... بل خجل لانه كان يردد كثيراً هذه الاقوال في مناسبات شتى .  
واخيراً ، نهضت سولانج دون ان تقوه بكلمة ، وتوارت في الغرفة المجاورة .

وجلس كوستال في مقعد وثير ، وراح يصغي الى ضجة الماء الجاري من مختلف الانابيب والحنفيات في المغسل ، ويقول في نفسه : « ها هي تعمل كذا الآن ... ثم تعمل كيت ... » فكأنه كان يرافى حركاتها بفكره دون ان يراها ، فاذا بالشبه الكبير بين هذه الدقيقة ومئات الدقائق الاخرى التي عرفها في مثل هذا الموقف يفرق نفسه في خضم من الكتابة ، فقال مخاطباً نفسه : « هذا شيء جديد ، مدهش ، بالنسبة اليها ... اما بالنسبة الىّ فهو عادي عتيق » . ولو انه غنم من هذا الوصال متعة كبيرة لكانت كتابته اخف وطأة ، ولكن الحصول على المتعة الكبيرة يتطلب مزيداً من الجهد . وقد لاحظ ان سولانج لم تقسم من علمها لذة تفوق لذته .

وعادت من المغسل ، فالتكأت بيديها الى مسندي المقعد الجانبيين ، وانحنت على كوستال ، بحركة كلها رافة ، وفيها أغنى معاني الانوثة ، فساذا بها شخصين تنجّوا من الغرق ، واستلقيا جنباً الى جنب على رمال الشاطئ يئنفسان الصعداء . وتوغّلت بقوة في اضطرابه حتى تقلّص هذا الاضطراب ثم تلاشى ، فالتقل الى مقعد وسيع ، واجلسها الى جانبها ، ثم قال لها :

— اجل ، كل ما جرى مزعج ومؤسف . ومع ذلك فقد أريتك منذ قليل تلك المرأة لتدركي مصير الفتاة التي لا تقوم بما يجب عليها القيام به في الوقت المناسب . ثقى بان ثمة طريقة واحدة لحب النساء هي : الوصال ، وطريقة واحدة لاسعادهن هي : احتضانهن . فالبخور بحاجة الى

الحرارة ليتفوّع منه العبير ؛ والنساء يحتجن الى هذه الحرارة لتفوح  
 عطورهن . وكل ما تبقى ، كالصدقة ، والاحترام ، والتجاذب الفكري ،  
 يظل كشبح الوهم اذا خلا من الوصال . والشبح قاس . دائماً ... جميع  
 الاشباح قاسية . اما الحقائق فلنستطيع التفاهم معها . ألا تذكرين قول  
 القديس بولس : « الحرص على الجسد هلاك للروح » ؟ اني اعرف عائلات  
 عديدة شقية بسبب « احترام » الرجل لزوجته . يجب ان تُعامل المرأة  
 كأنها خلية باستمرار ، وليس مرة واحدة ، في اندفاع حماسي عابر .  
 وليست المشكلة في ان هذا الاستمرار سهل او صعب ، انما هناك  
 اعتبارات اخرى اود اطلعك عليها : لا ريب في انك مُنيتِ بخيبة  
 مرة ، منذ قليل ، في ذلك التواصل الابهل الذي تمّ بيننا ، كما منيتُ انا  
 ايضاً بالخيبة . ذلك ان الفتاة الفرنسية تحتاج الى ستة اشهر من المرنان  
 لتتعلم كيف يجب ان تحب المتعة ؛ اما الفتاة الايطالية ، او الاسبانية ،  
 فيكفي ان يقبض الرجل على كتفها لتنهار بين ذراعيه ، وتغرق في  
 اللذة العارمة . اما الفرنسية فبطيئة الانطلاق ، يضطر الرجل الى بذل  
 جهود كبيرة لمعطيتها قليلاً من اللذة ، وقد اعتدت أن اعجلها ستة اشهر  
 حتى تبلغ النضج المرتجى . ربما حصل لك بعض الشر من اغذي لك ،  
 ولكنني لو لم آخذك لحصل لك شر آخر لانك تحبينني . ثم انك بلغتِ  
 الحادية والعشرين من العمر . لا أعني ، طبعاً ، انك في خريف حياتك ،  
 ولكن تذكرني ما جرى في المباراة الاخيرة لاختيار ملكة جمال العالم :  
 فقد تم الاتفاق على اعتبار الثانية والعشرين من العمر حداً اقصى لنضج  
 الجمال وتألقه ... تشجعي ، يا حسنائي ، ودعي الوقت يأخذ مجراه ،  
 فسيأتي يوم تشمرين فيه بشوقي من بعيد ، وتغمريها بحبك . وسلتناسق  
 وننسجم معاً كرفيقين في مباراة ركض طويلة ، فمفسر متفاهمين ،  
 مشاركين ، نتخاطب في فترات صمتنا ، ففريدين ما أريد ، واريد ما  
 تريدن . وعندئذٍ لا نلتصق بالظلام كلما احتضنتك ، بل نطلبين وضع

النهار لتزيني ، وسترينني ... ما الذي سيسعني في شيخوختي ؟ انتاجي  
الادبي ، وذكريات السعادة التي منحتها للنساء في حياتي ... وستكونين  
احدى هذه النساء .

وكانت تلامس شعره برفق ، ثم عقدت يديها على ام رأسه ، والقت  
جبينها على صدره بحركة تعبّر عن الخضوع اللامتناهي ، فلم يعد يرى  
غير شعرها .

وبعد قليل خرجا . رأيا رجلاً عجوزاً جالساً على بنك ، يطعم  
العصافير ، فاحترفت سولانج عن طريقها ، وابتعدت كي لا تنفر العصافير  
المتجمعة حول العجوز . وفي الشوارع ، حول بعض الوجوه المشرقة ،  
كانت تجري الحثالة المقرفة الحاقدة ، حثالة الذين لا يحبون ، ولا يجدون  
من يحبهم ، ناهيك بأشكال اخرى من الدمامة اشتهر بها الباريسيون .

واحس كوستال للمرة المائة - دون ان يفقد احساسه شيئاً من جدته  
وفتوته - بنشوة الاعتزاز الملكي لأنه يسير الى جانب امرأة تسترعي  
بجهاها الالتباه ، وتكاد تثير حولها صيحات الاعجاب ، وهو يرافقها  
مرافقة المالك الشرعي لها .

وكانت حتى ذلك الحين تخاطبه بضيعة الجمع التي لا تستعمل إلا بين  
الذين لم ترتفع بينهم الكلفة بعد ، وتجهل انها تمنح كوستال بذلك سروراً  
ممتعاً ، لأنها تسمح له بان يخاطبها بالمثل ، وبان يلقي على علاقتها الجميمة  
ستاراً من مظاهر الوقار والاحتشام المتبادل ، فيخلق ، الى جانب الحالة  
الحقيقية ، حالة اخرى تناقضها ، ويتلاعب بهذه الازدواجية وهذا التناقض  
على هواه . وقد كان هذا التلاعب طابع شخصيته الخاص .

وفي بعض الاحيان ، كان يضع يده على خصرها ، كأنه يريد التثبت  
من انها الى جانبه . إلا انها ما لبثت ان تأبطت ذراعه ، فكانت تلك  
المررة الثانية التي اقدمت فيها على هذه البادرة ، أما المرة الاولى فكانت  
يوم نشب بينها ذلك الخلاف الكبير . وفي كلا المرتين فعلت ما فعلت

بعد ان اسامت اليه وآلمته ، فتأخر ، واحس بعطفه عليها يزداد ويتدفق .  
ولكنه ما لبث ان تضايق من تعلقها بذراعه ، لانه منذ ايام شبابه ،  
ومنذ ان خرج للمرة الاولى مع امرأة ، وكان في التاسعة عشرة من العمر ،  
ما برج يرفض بعناد توقيع سيره في الشارع على سير رفيقائه . كان  
يعتبر هذه المسيرة مهزلة تحط من قدر الرجل . لذلك مشى مع سولانج  
مشية مرتجة حوالى خمسين متراً ، وهو يسائل نفسه لماذا يعجز الرجل  
عن السير مستقيماً عندما تكون المرأة التي يحبها وتحبه متأبطة ذراعه !  
أفليس في هذا العجز رمز عويص المغزى ؟

وكان سولانج شعرت بارتباكها ، فأصلحت خطوها كجندي يسير في  
عرض ، ووقعت مشيتها على مشيته ، فلاحظت دقة انقباضها وارتدادها الى  
بأذنها ، ولكنه تضايق اذ خيّل اليه ان ثقل سولانج كثقل سلسلة تكبل  
ذراعه . لقد احبت المسكينة ان تقترب منه ، ففتقرته ، وجعلته يكره  
ان تكون الى جانبه امرأة . واغتم فرصة تمرقّل السير ، والمرور بين  
السيارات المزدحمة ، فأنفصل عنها برفق دون ان يشعرها بنفوره . ولما  
تحرر منها ، احس بعطفه وحنانه يفيضان عليها من جديد .

وكانت سولانج مدعوة ، ذلك المساء ، الى تناول العشاء عند احدى  
صديقاتها ، فتوجهت مع كوستال الى بيت هذه الصديقة . وفي اثناء  
الطريق ، مرّا بإعلانات كبيرة علقها مكاتب السياحة والسفر ، عليها صور  
نساء سمرات فاتنات لاغراء السياح الفرنسيين ، وصور ماسحي احذية  
صغار جلبل السياح الانكليز ، وصور اخرى ، ورموز تدل على هذا  
الاختراع الشيطاني المليء بالمعاكسات ، والمزعجات ، والاضاعة  
الوقت ، وتحطيم الاعصاب ، الذي يسمونه : السياحة ، ولا مثيل له إلا  
الحرب ، مع العلم ان المرء في السياحة يبذل امواله ، وفي الحرب يتقاضى  
اجراً عن عمله .

وفي هذا الجو من التفكير خامرت كوستال رغبة في ان يقدم شيئاً

لسولانج ، واحس انه ينفر من السياحة ولا يروقه دوار البحر حتى ولو كانت الى جانبه . إلا انه احب ان يبذل مبلغاً كبيراً لاجلها ، لأن هذا البذل لم يعد يعني الشراء بعد ان سلته نفسها وكانت له بكتيتها . وكان في هذا الشعور ما فيه من الرقة واللفظ حتى في بعض الاعمال الرضيعة التي يقوم فيها المال بدور كبير . وكثيراً ما خيّل لكوستال ، حين كان يبذل ماله في مثل هذه الاحوال ، ان الاوراق النقدية تتعامل في محافظته كالخصان الاصيل المتحفّز للانطلاق عندما 'يرفع امامه الحاجز' .

قال لسولانج :

... يا صغيرتي الحاة ، احب تبذير المال في سبيل النساء . هذا جزء من شرف حياتي . وبعد حين ، عندما امسي عجوزاً شقياً ، لا مورد لي سوى معاش سنوي قدره ثمانمائة فرنك خصصتي به جمعية اهل القلم ، وعائدات التبرع الذي فتحته لاجلي جريدة « الفيفارو » ، فسأحلم بان المال ، الذي اغدقته على من احببت في حياتي ، يتجمع في مكان ما تجمعاً مرثياً ، ملموساً ، فامضي من هذه الدنيا مسرراً بها فعلت ، وعيناي شاخصتان الى هذا الجبل من الذهب - من ذهب اعتبره مستخرجاً من صلي . اقول هذا وليس في نيتي ان اخرج شعورك . فالغاية من هذه المقدمة هي اني متضايق لاني لا اصرف في سبيلك إلا القليل من المال عندما تخرج معاً . اشعر اني مع امرأة شريفة ، وهذا ما يزعجني حتى الايلام ...

ما معنى هذه الغمزة ، او بالحري هذه الوحشة اللثيمة ؟ ألم يتمخض بها ذهنه بعد ان ...

يا للذكور ما أخبثهم ان افضلهم لأشدهم مكرراً  
وأكمل حديثه قائلاً :

... ثمة اوراق نقدية ما 'وجدت الا لتتحول الى سعادة ، وانا خبير فيها . ولا اخفي عنك اني احذق الافادة من الحياة والخلقة . أريدن مرافقتي في سياحة تستغرق شهرين ؟ اقول « شهرين » لأن هذه المدة هي

الوقت اللازم لافناء حب صادق جميل . وقد تطول هذه المدة اكثر من شهرين ، الى ان يرقوي احدنا من رفيقه ويساوره السأم .

قال : «احدنا» ، على سبيل التورية ، وهو يعلم انه سيكون البادىء بالقطيعة . واستأنف حديثه قائلاً :

- نذهب الى حيث تشائين ، الى ايران . الى مصر . او الى ترنسلفانيا .  
او الى بلسلفانيا . او الى جبل ارارط . لا اقول لك كلمات خالية من المعنى للتسلية . ما عليك إلا ان تتفوهي بكلمة ، باسم بلد ما ، وهيسا بنا . في حياتي وفي فني استطيع كل شيء . الصعوبة عندي هي ان اشتبه شيئاً . وما اني قد اشتبهت هذا الشيء ، وانا على ما يرام ، لاني احب شوقي . يخيل اليّ ان الله اعطاك اهلاً يريدون سعادتك قبل كل شيء . وستعودين من رحلتنا مزودة بشهرين من السعادة . وبهذه السعادة تضعين يدك بقوة على المستقبل ، اذ تصبحين افضل حالاً للزواج . لست عذراء ، على الرغم من اني اصر على ان ادعوك « فتاة » ؛ فالاجتهاد في التسمية من حقوق الكتّاب الكبار . ولا استطيع ان استعمل كلمة : « امرأة » ، إلا اذا كنتُ مكرهاً ، لاني احب الشباب . وكلمة « امرأة » تبدو لي قديمة ، نابية . لست عذراء ، ولكني اعرف الرجال ... فبقليل من الحنكة والذكاء تستطيعين اقناع زوجك بانك مثال الطهارة والنقاء . واذا عرف الحقيقة ، فلن يفوه بكلمة احتجاج ، فلنسا شعباً محبباً في فرنسا ، فإما ان يجعلك سعيدة فلا يبقى لك مجال للندم ، وهذا ما اسمح لنفسي بان ارجوه لك ؛ او تصبحين شقية معه ، وفي هذه الحال لا اكون بمبدأ عنك ، فنطلقك منه ، اذا دعت الحاجة ، ونود معاً الى جبل ارارط . وامر هذه الرحلة ماتروك لك ، فان شئت جعلناه سرياً ، وان شئت أعلنه للجميع . واذا أعلنه فسيكون لك مبعث مجد وفخار . انك لا تهتمين مطلقاً بمجادك ، فلا بد من ان اقوم عنك بهذه المهمة . ولكن في وسعنا ان نخطط سفرنا بالكتّان ، فقد قتت بعشر



رحلات عسل في حياتي ، فما عرف احدٌ عنها شيئاً . وفضل الذهاب الى المنفى والقيام بالأشغال الشاقة مدى الحياة ، على ان افشي بسر امرأة احببتها . واعلمي اخيراً اني اقترح عليك مشروعاً لا يمكن رفضه ، ولا نجد بين الذرائع الخلقية والاجتماعية وغيرها ما يحظر علينا تنفيذه . لا ريب في اننا سنلتقي باناس سخفاء يقولون لي : « انت ، يا رجل ، مخلوق سافل قدر » . إلا اني ساجيبهم : « لست مخلوقاً قذراً . اني روح ترفرف في الهواء . والحقيقة الساطعة اني لست من جبلتكم وطبيعتكم ، الخ ... » واعلمي ايضاً ان على من يريد ادخال السرور الى قلب شخص ما ان لا ينظر بعيناً ، وان لا يهتم بالعواقب والذبول . اذا اراد المرم ان 'يسر' احداً ، فكأنه يضع مؤلفاً ادبياً ، ومن واجبه ان يعمل عمله دون ان يبالي باحد ، لانه اذا فكّر كثيراً بما يعمل فقد يحجم عن العمل ... وشرد برهة في تفكيره ، وهو يحلم بان يرى معها جمال العالم ، وان يكشف لها عن هذا الجمال ، وان يصبح وحدةً متماسكة معها ومع هذا الجمال . ثم تفكك حله ، وخفق قليلاً ، وسار على طريق جديدة . وتذكر انه احب يوماً ان يقوم بهذه الرحلة ، ولكنه اراد السفر وحده . ولم يكن بين البلدان الجميلة التي راودت خياله بلد لم يزره مرتين : مرة وحده ، ومرة مع امرأة محبوبة . وكلما اراد ان يبعث في نفسه صور هذه البلدان ليعلم بها فنّه في الكتابة تراوت له المشاهد التي كانت فيها وحده ، ووجد فيها ما تنوق اليه نفسه من القوة ، والشعر ، والفعالية .

لا يستطيع الرجل ان يكون وحيداً بكل معنى الكلمة اذا كانت الى جانبه امرأة . هذه شريعة عظيمة خالدة . واذا كان الله قد قال : « الويل للرجل الوحيد ! » فلأنه يخشى الرجل الوحيد . وقد جعله « زوجاً » ليضعفه ويجعله تحت رحمته .

ولكن كوستال نفى من ذهنه التفكير بالانفراد والعزلة ، وهو يقول

في نفسه : « منها يكن من الأمر فكل ما قد عمله بسولانج سيكون لاجلها . وليس قليلاً ان يُسعد المرء مخلوقة جديدة بالسعادة ... »  
وجرّها الى تحت قنطرة باب كبير حيث وقف ينظر الى وجهها باهتمام  
باحثاً فيه عن المكان الافضل ليطبع عليه قبلة ، ثم لم احدى عينيها بلطف  
وخشوع ، وأبقى شفنيه طويلاً ملتصقتين يحفنها .  
وعندما تمّ بالافتراق قال لها :

.. أتدري اني سأضع في احد كتبي صورة جاءني منك ، من  
اسنانك ؟ سأشبهها بأسنان خروف ذبيح .  
.. يا للظاعة !

.. هذه هي الحقيقة ، ولا بد من قولها . ولكن ألا يزعجك ان  
« استعملك » في مؤلفاتي ؟  
- لا ، بل يسرني ان اكون مفيدة لمؤلفائك .

- هذا قول حسن ... ولست الاولى في قوله ... اجل ، انه قول  
حسن ... وهكذا استطيع ان احبك اكثر بما احبك الآن .  
والقى عليها نظرة تشع بالمطف ، فالتحذت ملاعبها طابع جدّ بايغ  
التعبير ، فبدت اقل حسناً مما كانت . وفكر كوستال بأنه اذا استمر  
على هذا النوال الى نهاية المطاف ، واذا اقترن بها اخيراً ، فلن يكون  
اقتارانه إلا رحمة لها . فساوره الخوف من الرحمة .

ولما عاد الى مخدعه وطلق يرتب سريره ، رأى على الشرفف بقعتين  
مستطيلتين من الدم . ففكر بان هذا الشرفف سيرسل الى المسالة لينظف .  
ولر انه تلوّث هكذا منذ خمس عشرة سنة ، لاحتفظ به كما هو تذكراً  
للحادث الجلل .

واعتلجت في صدره غصة موجعة ، اذ تبادر الى ذهنه انه لا يعطي  
سولانج بقدر ما تستحق . ولكي يموت عليها ، استلقى على السرير ، ثم  
رفع الشرفف الملوّث ، ووضع دمه على قلبه ، وغرق في النوم وهو

يشعر بأنه في حاية ما يكنُّ لها من المودة .  
وفي الايام التالية ، انتظر اشارة من اندريه تبثه بانها ما تزال في  
قيد الحياة : رسالة ، او برقية ، او زيارة ... وجنّد البوابين ، والخدم ،  
وجميع الذين يلوذون به ليقطعوا عليها طريق بيته ، فكان في حذره  
سخيفاً مضحكاً ...  
اواه ! ليتسه يستطيع نفيها الى جزيرة الكلاب ، بالقرب من  
القسطنطينية ، او الى بلد بعيد من هذا النوع !  
إلا انه لم يتلق من اخبارها شيئاً .  
أتراها انتحرت ؟  
ما كادت هذه الفكرة تخطر في باله حتى اسبغت عليه ارياحاً عميقاً .



من العادات المستهجنة ، لدى جميع الفتيات تقريباً ، رغبتهم في تعريف  
 ذويهن الى الرجل الذي يحببته ، حتى ولو كان ذووهن بلهاء ، تأفهن ،  
 يُنفقرون منهن هذا الرجل الحبيب . وعلى هذا فقد كان لا بد من دعوة  
 كوستال الى تناول الغداء في بيت دندير .

وكان ظهور العائلة امامه يثير في نفسه ثلاث عواطف : الخوف  
 من الـ « هيبوغريف » المهدد ، فيقول في نفسه : « ها هم يباشرون الحصار » ؛  
 والشعور بالسخافة ، لان فكرة السخافة مقترنة في ذهنه بفكرة العائلة ؛  
 والنفور الشديد ، لانه لا يستطيع إلا ان يكره الالـه ، ما دام من المحتمل  
 ان يصبحوا يوماً اعداء .

وقد اجتمعت هذه العواطف الثلاث في نفسه حيال دعوته الى بيت  
 دندير ، فساوره مزيج من الالـه والنفور ، فيه شعور بالمجازفة ، وبالتجربة  
 التي لا بد من بذل الجهد لاجتيازها .

وكانت سولانج قد ارادت تشويقه وتحريك رغبته بقولها له : « سترى  
 انـ اهـلي لطفاء ، جذابون » ، فراح يفكر قائلاً في نفسه : « جذابون  
 بالنسبة الى من ؟ بالنسبة اليها ؟ هذا امر لا يهمني . بالنسبة اليّ ؟ ما  
 يدريها ؟ »

وتذكر اولئك الناس الذين يكتبون على بطاقات دعواتهم انواع الطعام  
 التي يقدمونها في حفلاتهم ، ليشجعوا المدعوين على تلبية الدعوة : « شاي ،  
 بورتو ... »

يا لتهديب الالـهيين ما اغلظه اذا قيس بتهديب المتوحشين : كالصينيين ،

الخ ...

وما كاد كوستال يرى السيدة دنديو حتى بدت له بقامتها كأنها حصان ، وبقيافتها من رجال الدرك . كانت اطول من زوجها ومن كوستال بمقدار الرأس ، فهاه الكاتب ان يرى فيها صورة كاريكاتورية لابنتها : الانف ذاته ، إلا انه مشوه ؛ والشفتان نفسها ، إلا انها كاللحان لا لون لهما ؛ النظرة ذاتها ، إلا انها مثقلة بعبء السنين . واذا لم يكن هذا المشهد مريعاً ، لانه من الامور الطبيعية ، فكان بالغ التأثير ، على كل حال .

وجعل كوستال يخاطب نفسه قائلاً : « في الخمسين من العمر ، ستصبح خليلي في هذه البشاعة . وبعد خمس عشرة سنة ، ستكون كتلة ضخمة من الشحم واللحم . هذا انذار من السماء : لا يجوز لنا ان نضيع دقيقة واحدة من حياتنا » .

وتألم في اعماق نفسه اذ درى ان السيدة دنديو على علم بالعلاقة القائمة بينه وبين سولانج ، وانها قد تكون أملت على ابنتها ما يجب عمله في بعض المناسبات . وكان تفكيره بان سولانج لا تستطيع الكذب يرهقه كيوم شديد القیظ .

اما السيد دنديو فكان ، بخلاف زوجته ، وسيماً ، وفي وسامته نبل ، حتى ان من يراه لا يحسبه فرليسياً . وكان حليق الوجه ، يكسو رأسه شعر كثيف ك شعر الشبان ، ولكن الشيب بيّض اكثره ، فبدا كأنه طبيب حنون ، كاولئك الاطباء الذين نرى صورهم في اعلانات العقاقير . وكانت ابتسامته مشرقة جذابة ، تكشف عن اسنان سليمة ناصعة البياض . إلا ان جميع قسّمات وجهه كانت متوترة من شدة الألم ، تدل بوضوح على دمة مرض عضال . ولما جلس الجميع الى مائدة الطعام ، لم يفهم السيد دنديو إلا بكلمات قليلة على سبيل المجاملة .

لا شيء يلبىء بحقيقة المرء كنزله . هذا ما يردده الناس في اغلب

الاحيان . وكان منزل اسرة دنديتو يدل على فقدان الذوق الفني في ترتيبه ، على الرغم من وجود هذه الاسرة في محيط اجتماعي راقٍ ، وفي باريس . فكانت هناك اشياء جميلة جداً الى جانب قذارات رخيصة تدل على الادعاء والغرور . ولم يكن لأحد عذر في عرض هذه القشور ، لانها كانت معروضة على سبيل التبرج والمباهاة .

لو رضي رجل اعزب بمثل هذا البيت ، لكثرة اشغاله ، او لعدم مبالاته بالمظاهر الخارجية ، لوجد له كوستال عدلاً . اما ان ترضى به اسرة محافظة ، وفيها فتاة كسولانج ، وان تجمعهم هذه الفتاة عن اجبار ذوبها على جعل منزلهم لائقاً ، وان تحتل هذا الاثاث الذي يؤذي العين ، فأمر لا يطاق ... وقد اعتبره كوستال كافياً لادانة سولانج . فلا ريب ان فيها شيئاً من القبح يرتاح الى الإقامة بين ما يحيط بها من سقط المتاع . وبدا له الامر في غاية الخطورة لانها لم تتردد في اطلاقه على هذه الاشياء ، ولم تفكر بالصدمة التي تسببها له ، ولا بما قد يستتجج ضدها من هذه الصدمة .

وبدأت السيدة دنديتو تتحدث عن ابلتها كأنها تعرض بضاعة للبيع ، فقالت انت سولانج لم 'نصب قط بمرض ، وانها لا تحب العطور ، ولا الحلي . ولما اجابها كوستال بانه لا يحب هذه الاشياء ، قالت بدلال واضح المعنى : « هذه نقطة تشابه جديدة بينكما » . وقال كوستال في نفسه : « يا للمصيبة !... انها تعتبرنا خطيين منذ الآن » .

وتحدثت السيدة دنديتو عن زوجها كي لا يظن كوستال انها تزوجت بجنة ، فقالت انه مؤسس الحركة الرياضية في فرنسا ، وانه تولى ادارة الجمعيات الرياضية ، وشجع الفتيان على الاهتمام بالحياة الرياضية ، وكان « رجل عمل » . فكبت كوستال نفسه ، وبلغ ما كان يريد قوله من ان هذا العمل ضرب من الجرب يسبب الحكمة لا اكثر ولا اقل ، وان العمل الوحيد الجدير بهذا الاسم هو العمل الداخلي ؛ وان كل

رجل عمل يستطيع تبرير عمله اذا جودل فيه ، لان الدفاع عن العمل مستحيل ، الخ ...

وكانت سولانج 'مطرقة تنظر الى صحفها ، ولا تقوه بكلمة ، فقد تضايقت الى اقصى حد لوجود كوستال بين ذويها ، فتصلب وجهها ، وبدأت خبيثة وشريرة .

فيا اينها الحياة المائلية ، هذه احدى ضرباتك ! انك تشوهين ملاك اللطف والدمائة باعطائه وجه امرأة شريرة مأكرة . فمن يرى سولانج للمرة الاولى كما كانت في تلك اللحظة لا يستطيع إلا ان يقول في نفسه : « انها خلاصة الحب ، فالحذر الحذر ! »

وظل كوستال والسيدة دنديو يتحدثان عن لا شيء ساعة كاملة . فكانت السيدة دنديو تردد ، بعد فترة مناسبة من الوقت ، ما سبق ان قاله كوستال ، كي لا تقول حماقات ، ولتكون واثقة من ان حديثها يعجب . فاذا قال لدى تناول المقبلات على المائدة : « ان مزاوله الصحافة لا تمنع الكاتب الحقيقي من مواصلة عمله الادبي » ، أعلنت لدى تناول القهوة ، بلهجة واثقة كأنها تريد اقناع كوستال بصدق ما تقول : « لا شيء يمنع الكاتب من وضع المؤلفات الادبية والكتابة في الصحف » . وكان كوستال يحس انه في موقف زري يزداد سخفاً والمخطاطاً ، لان وجوده في ذلك البيت بصفة « خطيب ممكن » ، كان يبدو له شائناً يحط من قدره !

خطيب ! « صر » ا على الرغم من جميع الجهود التي بذلها لم يستطع ان ينفض عنه الشعور بهذا الذل .

وراح ينظر الى السيدة دنديو وزوجها ، ويحتقرهما لقلة حرصها على ابنتها قائلاً في نفسه : « سواء أكان تصرفها ناجماً عن غرور ، ام عن مناورة ، ام عن جهل ، فالنتيجة واحدة : تركا سولانج تخرج مع رجل مثلي . ويصعب عليّ التسليم بانها لا يعلمان اني اضاجعها . ربما كانا يظنان اني سأقترن بها ، ولكنها لا يعلمان شيئاً مما يحول في خاطري . ما

ووجدت سولانج إلا لتكون فتاة حقيقية ، فقد كانت فيها نواة حقيقة ،  
فما دافعا عنها ضد نفسها ، فتبا لها من قذرين الا دين لها ، ولا تقاليد ،  
ولا ثقافة ، ولا كرامة ، ولا درع تقيها صروف الحداث . ان مهمتي هي  
الهجوم ، وعلى المجتمع ان يدافع عن نفسه ! ولكن الواقع اني كلما  
حاولت الاستيلاء على الاجساد ، او اشاعة الاضطراب في العقول والنفوس ،  
لا اجد اقل مقاومة ، لا اجد إلا جبهة طرية . اني ألعب لعبتي ،  
والناس يتقاعسون عن لعب لعبتهم .

ومنذ ذلك الحين ، بدأ يفترض انه قد 'يستدرج بطريقة ما الى الاقتران  
بسولانج ، وبدأت فكرة تقرئه الى ابويها الخاليين من الذوق تعمل في  
نفسه ضد مشروع الزواج .

ولا بد من الملاحظة ، في هذه المناسبة ، ان ارضاء كوستال امر عسير ،  
فلو كان دنديتو وزوجته مهذبين ، حريصين على التمسك باصول الآداب ،  
ولو لم يسمحا لابنتها بالخروج معه وحدها ، لنقم عليها وعليها ،  
ولأتهمهم جميعا بكل فرية ، ولصرف الفتاة عند قائلا : « لا اعرف شيئا  
في العالم اقبح من الصون والحشمة » .

واذا به يدين بمنطق عجيب فيحتقرهما اذا كانا مهذبين ، ويحتقرهما  
اذا كانا قليلي التهذيب ، فيجعل من احتقاره نكسة يقبض بفكيها عليها كما  
يقبض على سولانج . واصبح في وسعه ان يطبق عليها نكسته هذه ساعة  
يشاء ، ساعة يزول حب الفتاة من نفسه . فقد اصبحت الآلة التي أعدها  
على اتم الاستعداد للعمل .

وبعد الغداء وحل اناس في زيارة تقليدية ، فاستقبلتهم السيدة دنديو  
وسولانج في ردهة الاستقبال ، ودعا السيد دنديو كوستال الى مكتبه .  
وشرع كوستال يفكر بما قد يدور من حديث بينه وبين مضيفه ،  
فقال في نفسه : « اذا قال لي : اني اضع مصير سولانج بين يديك » ،  
( واحسن بنصته من التأثير العميق والمطف تقبض على عنقه ) فساجبيه :



« انها ستكون لي بثابة اخي الصغيرة » . وهذه عبارة سهلة ، لا تنطوي على اقل وعد . فخليقتي ، بالنسبة اليّ ، لا تختلف عن الاخت الصغيرة .

ولما وصل السيد دنديو الى مكتبه ، ارقى على مقعد واطىء عميق ، فبدأ صغيراً كذبابية تنطوي على نفسها اذ تموت . وارتسمت صورة ساقيه الهزيلتين تحت البنطلون كأنها ساقا هيكل عظمي . ولا تصيفُ المكتب لأننا نعلم ان القراء يقفزون من فوق الوصف حين يطالعون رواية .

وافتح السيد دنديو الحديث قائلاً :

— يا سيد كوستال ، لستُ كالصورة التي رسمتها عني في ذهنك . اذا كنتُ قد لُزمت الصمت على المائدة ، فلأني اتناول طعامي كل يوم مع السيدة دنديو منذ احدى وثلاثين سنة ، فلم يبق ما يقوله احدنا للآخر . اجل ، فقدت عادة الكلام ، او بالحري تمودتُ غاطبةً نفسي وانا وحيد في غرفتي . اما انت فقد احببت ان احاطبك على انفراد ، لاني اود ان اتحدث اليك جدياً . ولكني اجد فيك ناحية غامضة تحملني على التردد ، واشتهي ان افرغ جميعتي قبل ان اتحدث عن نفسي ، أفلمسمع لي بان اكلمك بصراحة مطلقة ؟

اجاب كوستال :

— حاول ، ولا حرج عليك ، فسأرى ما سيكون .

واحسن كوستال بانفاس الـ « هيبوغريف » تعصف بنقرته .

فقال السيد دنديو مبتسماً ، ومتظاهراً بأنه يحسب كوستال مازحاً :

— هيا بنا ، اذ لا سبيل الى التردد ، فمن يكتب مثل هذا الكتاب

الضخم ( وأشار الى احد مؤلفات كوستال على الطاولة المجاورة ) جدير

بان نكون معه صريحين الى اقصى حدود الصراحة . اذاً ، اليك ما اريد

قوله : لماذا تحمل هذه ؟

ودلّ بأصبعه على الشارة الحمراء في عروة كوستال اليسرى .  
فاجاب كوستال :

- لا احب الشذوذ عن المألوف . فلو رفضت هذا الوسام ...  
وكان ينوي ان يكمل جوابه قائلاً : « ... لكان تصرفي على مذهب :  
خالف تعرف » ، ولكنه توقف مدركاً انه قد يرتكب هفوة .  
فقال دنديو :

... حسناً ، وما عليك لو رفضت ؟ اود ان اطلعك على شيء .  
ونهض والد سولانج ، فتناول ملفاً من احدى الخزانات ، وانتزع منه  
قصاصة جريدة قدمها الى كوستال ، فاذا هي تحتوي خبراً منشوراً في  
جريدة « احرار مدينة رت ... » بتاريخ تموز ١٩٢٣ ، تحت عنوان :  
« مواطننا شارل دنديو رفض وسام جوقة الشرف » . وقد نشرت  
الجريدة نص الرسالة التي وجهها دنديو الى الوزير صاحب العلاقة ،  
وهو التالي :

سيدي الوزير ا

علمت انك تنوي اقتراح منحي وسام جوقة الشرف ، فاعلم اني كرسيت  
حياتي للشبيبة الفرنسية بعميداً عن اضاء الشهرة ، ولم افعل ما فعلت  
للحصول على مكافأة لا بد لي من اقتسامها مع ايّ كان .

ثم اني بلغت السابعة والخمسين من العمر . فامض لي ، يا سيدي الوزير ،  
بالاعراب عن امنية : على الحكومة ، في المستقبل ، ان تعتمد على عشرين  
أكفأ ، عندما يكون الامر متعلقاً بمعرفة الاشخاص الذين عسواوا شيئاً  
لخدمة الوطن .

وتفضل ، يا سيدي الوزير ، الخ ...

لم يجد كوستال في هذه الرسالة إلا نعمة رجل يعتبر عن خيئته لانه  
لم يمنح الوسام وهو في الثلاثين من العمر ، فقال في نفسه : « لا يأس  
بهذه الرسالة من حيث كونها شكراً بارعاً موجهاً الى وزير خامرته فكرة

القيام ببادرة لطيفة . اما وان السيد دنديو اعطى رسالته للنشر في جريدة « احرار ن ... » فالمسألة فيها نظر ...

وتحدث السيد دنديو بعدئذ ، فالقى محاضرة في « العفة » . وكانت كوستال يعرف هذه المحاضرة ، ويلقيها على الناس في بعض المناسبات . اما رأيه الحقيقي في شارات الشرف فكان شبيهاً برأي « ابيكتيت »<sup>١</sup> القائل ان هذه الشارات « اشياء لا يبالي بها » . ولكن الرسالة المنشورة في « احرار ن ... » تدل دلالة واضحة على ان السيد دنديو يقيم وزناً كبيراً لهذه الاعتبارات الشرفية .

وبينا كان دنديو يبحث في احد ملفاته ،لقى كوستال على كتابه نظرة مؤلف : فالكتاب يرمقون اسماء المطبوعة على مؤلفاتهم كما ترمق المرأة النساء الجليات ، او اللواتي يحسبن نفوسهن جميلات ، فرأى ان ذلك « الكتاب الضخم » لم يفتح منه الا حوالى عشر صفحات . والحق يقال ان قراءة عشر صفحات فقط تكفي لمعرفة الكاتب ، ولتكوين فكرة عن مستواه الادبي .

ولما فرغ السيد دنديو من محاضراته في « العفة » سأل كوستال قائلاً : -- ألم تخبرك سولانج باي مريض ولا امل لي بالشفاء ؟ ليس من الثابت ان الأمل مقطوع ، لكنني اعتقد ان لا سبيل الى الرجاء .

— لم تقل لي الآنسة دنديو شيئاً في هذا الموضوع .

— ساموت بعد شهر . والموت نهاية الاوهام !

— اما انا فارى ان الموت نهاية الحقائق .

— ولكنه نهاية الاوهام بالنسبة اليّ . ساموت في الحادية والستين من

العمر . وهذا اخفاق ذريع بالنظر الى رجل مثلي ، عاش منذ ثلاثين

---

١ - فيلسوف رواق عاش في القرن الاول للميلاد . اقام في روما وكان عبداً رقيقاً يملكه عبد حرة نيرون يدعى إبيافروديت . جمعت احاديثه الفلسفية في كتاب عنوانه : « كتاب ابيكتيت » .

سنة على بعض مبادئ الحياة الطبيعية التي كان من المنتظر ان تضمن له عمراً طويلاً . ان الحادية والستين هي العمر الذي يموت فيه الجميع . ولكن تصوّر الجهود التي بذلتها : منذ اكثر من ثلاثين سنة وانا اناهم في غرفة مفتوحة النوافذ ، لا اتناول شرباً كحولياً ، ولا ادخن ؛ منذ اكثر من ثلاثين سنة لم تلامس وجهي او جسمي قطرة واحدة من الماء الساخن او الفاتر ، حتى لو كنت متوسعكاً ؛ منذ اكثر من ثلاثين سنة ، وانا انهض من النوم كل يوم في الساعة السادسة صباحاً ، وامارس الرياضة البدنية عارياً ؛ ومنذ سنة واحدة ، كنت انصب خيمي في الجبل ، وامشي مسافة اربعين كيلومتراً كل يوم ، وكيسي على ظهري ، كالشاب ، ورأسي مكشوف للشمس او للمطر . واذا كان وجهي متخذداً الآن ، فان جسمي كان منذ شهر واحد كجسم رجل في ريعان الشباب . وحتى في هذه الساعة ، لا تحسني أكرش ...

قالها مشيراً الى بطنه ، ثم استطرد :

— اني اشد خصري برفار قطني يبدو كأنه كرش . فقامتي رقيقة ، هيفاء . والخلصة ان حياقي كانت «طبيعية» . واعتقد انك تزن كلمة «طبيعية» بدقة ، وتقدرها حتى قدرها ... بذلت هذا الجهد كله لأموت في الحادية والستين ، اي على عتبة الشيخوخة . وحين افكر بان هناك اناساً يعيشون في الرخاء ، والاستهتار ، والانغماس في الملذات ، ويتجاوزون السبعين والثمانين ، ارى اني بذلت جهودي جزافاً ، واني سئدعت فكنت خاسراً .

ورأى كوسنال ان دندبر على حق ، وان اتعابه ذهبت سدى ، فتذكر قول الكتاب المقدس : « ما دمت سائتي الى مصير الجاهل ، فلماذا كنت حكيماً ؟ » ثم قال :

— المهم ان نعلم أصعباً عليك كانت امتناعك عن الخمر والتدخين وغيرهما ؟

— بلى ، كان صعباً عليّ في اغلب الاحيان ، ولا سيما النهوض من الفراش في الساعة السادسة صباحاً . ولكنني كنت اريد ان اقهر نفسي . لو اني كافحت في سبيل رغيفي ورغيف ولديّ لقلت في نفسي : لم يذهب تعبي سدى . ولكنني عشت من عائدات املاكي ، ولم اكفح إلا ضد نفسي ، فكان كفاحي ضرباً من البذخ . وها انا اقول في نفسي اليوم : « اتعبت نفسي للاشيء » . واعلم ، يا سيد كوستال ، انه ليس من الواجب ان يكون المرء شجاعاً في الحياة ، فلا فائدة من الشجاعة . اما انا فمضطر الي المثابرة . يجب ان اتابع طريقي حتى النهاية .

وبحركة من رأسه ردّ خصلة من شعره تدلّت على جبينه ، فكانت حركته شبيهة بحركات الاولاد الطوال الشعر .  
قال كوستال :

— ولم تصرّ على مواصلة الطريق حتى النهاية ؟  
— أريدني ان اكفر بمثل أعلى آمنتُ به اثنتين وثلاثين سنة ؟ وان افرض على نفسي هذا التّكذيب القاسي لكل ما كنت اعتقده ؟ اعرف اناساً قد يسخرون مني بطيبة خاطر ، اعني بلؤم السمات . فقد جعلت الذين عرفوني عن كذب يكوّنون عني فكرة معيّنة ، كأني نوع خاص من الرجال . وعليّ ان احافظ على هذه الفكرة في اذهانهم الى النهاية ، ولو كنت مخطئاً . وها انا امامك الآن ، وقد انطفأت عينايا ، وانطفأ قلبي ، وانطفأت روحي . واعلم حق العلم ان جرعة من الشبانيا تمنعني ، وتعيد اليّ شيئاً من الحيوية والنشاط . ولكن كيف يجوز لي ان اطلب هذه الجرعة ؟ لو فعلت لكنت كمن يهدم في لحظة ما بناء طيلة حياته . لا ، لن افرّ من الميدان .

قال كوستال في نفسه : ما اغرب هذا الانحراف العقلي ا هكذا يصبح المرء « رجلاً اكذوباً » وهو يحسب نفسه « نقياً » .  
واستطرد دندنيّ قائلاً :

- ساموت قريباً . واذا لم تحت الى مصيري تليحاً ، زعموا اني خائف  
احب التحويل ، ولكن صمتاً ...

وسمعت حركة في الغرفة المجاورة ، ثم قال دنديتو بصوت خسافت :  
« انت للجدران آذاناً » . وكانت ملاحه كملامح ولد قبض عليه وهو  
يرتكب خطيئة . ولما زالت الضجة ، استأنف حديثه قائلاً :

- اجل ، ساموت قريباً ، ويجب عليّ ان امزح ! يجب ان انظاهر  
باني لا اعلم الحقيقة ، ولا ارى شبح الموت ، لتستطيع عائلتي ان ترح  
خالية الذهن من القلق . وعندما أشرف على الاحتضار ، يجب ان اقول كلمة  
تشرّفني ليردها الأهل مفاخرين بها الناس . وانت ما رأيك ؟ أقول  
كلمة تاريخية متى رأيت نفسك على فراش الاحتضار ؟

- اعلى الأمل بالمحافظة على وضع لائق ، ساعة احتضاري ، اعني  
اني سأحذر التقوّة بكلمات تاريخية . واذا اضطررت الى قول شيء ، فاعتقد  
اني سألتبس الصفح من القراء لاني لم اعتبر عا في نفسي تعبيراً افضل  
مما فعلت ...

- انت رجل عومي ، تكتب للجميع ويهتم بك الجميع . وحالك مختلف  
عن حالي ، فانا كنت اعتقد ان لي ملء الحق في ان اضع حداً لهذه المهزلة  
المستمرة منذ ثلاثين سنة ، وان لي ملء الحق في ان اعيش ثلاثة اسابيع  
من الصدق والصراحة قبل ان اغادر هذا العالم . ولكن لا ! فالمعكس  
هو الواقع ، والمهزلة مستمرة . انها الآن في بدايتها . امس ، جاءني  
الطبيب ، وكان عليه ان يجري لي عملية مؤلمة ، فرحت اتحرّق توقاً الى  
التوجع والشكوى ، لا شيء إلا ليطلبوا الي ان اتشجع واقارم آلامي ،  
فيلتسني لي ان اصبح بهم : « المقاومة ؟ علام المقاومة ؟ اذا كان لي الآن  
رمق من اللشاط ، لاني بذلت نشاطي ، في ما مضى ، دون حساب ، أفيجب  
عليّ ان اهرق هذا الرمح اكراماً لعيونكم الفاتنة ؟ أيجب ان تمشي جنني  
مشية موقمة ، كأنها جندي في عرض ، وان تسير صابرة على ما تعاني

من الآلام ، لتكونوا مسرورين ، وكيلا تحتقروني ؟ إيه ! احتقروني ما طاب لكم ! فما يعني احتقاركم في المكان الذي انا ذاهب اليه ؟ » هذا ما كنت اود ان اصيح به . ولكن عوضاً عن تحقيق هذه الرغبة مثلت بالتصلب الروماني ، وتظاهرت بأني رجل من البروتز ، فما اشرت الى اني اعرف حقيقة داني ، ولو اشارة مبهمه ، عابرة ، ولا شكوت ، ولا توجعت . وبينما كانوا يعجبون بي ( اقول هذا على سبيل الافتراض ) كنت احتقر نفسي لقيامي بتمثيل هذا الدور السخيف ، المضحك ، من مظاهر البطولة .

— انت اذاً تكذب على نفسك . واخطر ما في الامر انك تكذب لمسايرة آراء الناس .

— آراء الناس ! لو 'قدّرت الامثلة التي اعطيتها لهان الامر ، ولكني رجل غريب الاطوار في نظر اكثريه الذين اعرّفهم . فهم يتحدثون عني متندرين فيقولون : « ان دنديو لا يأكل معلّبات لأنها ليست طعاماً طبيعياً ... اذا رأيت دنديو فازرع الوشاح عن رقبتك لئلا يلقي عليك محاضرة . أتدري ؟ انه يحطم الجليد على وجه الماء ليفتسل في ايام الشتاء » . ان زوجتي تهزأ بي علانية . وتتظاهر سولانج بالقاء نظرة جدية على آرائي ، ولكني اعلم انها تسارني لطفاً منها . وكان ابني يعمل عمداً كل ما يناقض مبادئ ليضايقي . اذاً ، فنتيجة حياتي سلبية في جميع مراحلها . ولم يقتصر اخفاقي على اني قدمت قدوة لم تكن لها قيمة القدوة ، بل من المحتمل ان تكون القدوة التي قدمتها غير جدية بان 'تحتذى ، وكان من الممكن ان تكون الحال غير ما هي الآن ، لو كانت لي مؤلفات مثل مؤلفاتك ... آه ! هنئناً لك ، انك مرتاح !

قال كوستال في نفسه : « سيمتد الناس ان السيد دنديو مات بداء السرطان . وربما كانت الحقيقة انه مات بداء آخر هو : انه لم ينل التقدير الذي كان يستبهره حقاً له . فكما تحتاج المصابيح الى بتول ، يحتاج الرجال

الى تغذية نفوسهم بكمية معينة من اعجاب الناس بهم . واذا لم يجدوا من  
يعجب بهم كفاية لاقوا حتفهم . والوسيلة الوحيدة التي كانت صالحة لتهنئة  
آلام السيد دنديو في ايامه الاخيرة هي امتداح غروره .

وتأثر كوستال بكون المعجوز يحسده ، بسذاجة ، او ببسِل ، على  
انتاجه الادبي ، وهو ما يزال في الرابعة والثلاثين من العمر ، فتصور  
فضاعة المأساة الرهيبة التي يعانيها المعجوزون عن التعبير عما في نفوسهم .  
وتحدث دنديو بلهجة الصديق عن « مستقبل » كوستال ، فقال له :  
« ستنال من دنياك كل ما تريد ، النح... » ولكن الحديث كان  
يدور على فكرة اخرى هي : « على الرغم من مواهبك ونجاحك لم تحتل  
بعد في الرأي العام المقام اللائق بك . ولا ادري اذا كنت قد لاحظت  
هذا الاجحاف ... »

قال كوستال في نفسه : « هذا الرجل متشائم وناقم . وها هو يحاول  
اقناعي بان لدي اسبابا كافية لتجعلني مثله متشائما وناقما ، ويحد في نجاح  
محاولته هذه نوعا من التمزية ، مع ان الظاهر فيه انه يريد لي الخير .  
ولكن لا يجوز ان نطالب الناس بالكثير » . وبدت له هذه الحال عذبة  
سائفة لاقتناعه التام بان السيد دنديو لم يقرأ قط من مؤلفاته اكثر من  
عشر صفحات .

واستأنف كوستال الحديث قائلا :

« لا تظن ، يا سيدي العزيز ، ان امثولتك ذهبت سدى . فقد القيت  
عليّ الآن امثلة تعزز طريقي في معالجة الحياة . فانا اعتقد انه من  
الجنون ان يكسب المرء نفسه ويماند رغباته دون اسباب في منتهى  
الوجاهة .

وكانت في السيد دنديو - على الرغم من حالته اليائسة - بقية من  
الحوية قنمه من تكذيب نفسه والتنكّر لما كان يعتبره لباب الحياة ،  
فلم يعجبه استللاج كوستال ، فرد عليه بقوة قائلا :



— كل ما في العالم من خير هو وليد كبت النفس ومقاومة الرغبات .  
فاجاب كوستال بنزق :

— لا اصدق شيئاً من هذا !

ثم قال في نفسه : « هذا نموذج من الآراء المتبذلة التي تحاول الانسانية  
المسكينة ان تبرر بها متاعبها » .  
وقال السيد دنديو :

— دعني اتمتع ، فكرياً على الأقل ، باني على صواب . واذا كان ما  
عملته باطلاً ، فيلحق لي يقيني باني بذلت منتهى جهدي لاحقق فكرة  
حسبتها صالحة .

فادرك كوستال عندئذ كم كان هذا المعجوز مغلوباً على امره ،  
فاشفق عليه من اعماق قلبه .

وتذكر ان سنيك<sup>١</sup> كتب شيئاً شبيهاً بالآراء التي ابداهها السيد دنديو ،  
فلفته الى هذا الامر . إلا ان المعجوز تميز غيظاً لدى سماعه اسم سنيك ،  
وقال :

— لا اريد ان اسمع شيئاً من اقوال هؤلاء الدجاجلة ! فقد ملأت  
دفاتر عديدة بآراء علماء الاخلاق ، واقوالهم ، ونصائحهم ... ولن اموت  
قبل ان احرقها واجعل من نارها شعلة ابتهاج وسرور . لم اعصد اذكرك  
اين قرأت منذ ايام هذه العبارة : « زبالة فلسفة »<sup>٢</sup> ، فما رأيك ؟ انت يا  
سيد كوستال رجل قلم . ولا ريب في انك تعلم ، بهذه الصفة ، ان  
ضاربة على الآلة الكاتبة تنقل كتاباتك بكلام واقفان افضل لسك من  
نظرية جديدة في ماهية الكون . تباً لهم من مشعوذين ! اني احب الحياة ،

---

١ - فيلسوف روماني ( ٢ - ٦٠ ) وضع مؤلفاً ضخماً في الاخلاق مستوسى من  
فلسفة زينون الداعية الى شدة الطبع والعزم للتغلب على الحزن والألم . وتمزى  
اليه تمثيلات عديدة اهمها : ميدي ، والطرواديات ، واغاثون ، وفيدر .

٢ - بنائيت استراتي . - المؤلف .

ولا اجد فيها غير المسرات ، ومع ذلك يريدون اقتناعي بأنه يجب علي ان اعتبر مغادرتها الى الأبد شيئاً سائغاً يفرح القلب ايدخلون السبر في جسدي ، ومن واجبي ان اجد الألم لذيقاً ! عرفت شيئاً كانوا يتحدثون عن نهايتهم القريبة بطلاقة وهدوء ، ويواصلون ادارة اعمالهم كأنهم في أمان ، على الرغم من معرفتهم بأن موتهم على مسافة بضعة خطوات منهم . ولا اغالي اذا قلت لك ان جميع هؤلاء حقى ، بلهاء . فلاذكياء يخافون ، يشلمهم الخوف . اما الفلاسفة الاوغاد ، فالى الحجر ، اذا كانوا يؤمنون حقاً بما يقولون . اما اذا كانوا يهزأون بي ، فليسقط هزؤهم نصلاً قاطعاً على اعناقهم . انه ليأخذني العجب كلما فكرت بأن البشرية لم تنجب امبراطوراً يبيد طغمة هؤلاء الفلاسفة جملةً كما كان اباطرة روما يبيدون المسيحيين .

قال كوستال في نفسه : « ان السيد دنديو متحمس اكثر من اللزوم بالنسبة الى كونه على وشك الوفاة . ولكن ربما كانت الامور تجري هكذا في مثل حاله » . ثم خاطب العجوز قائلاً ، كي لا يقطع الحديث : — اراك لست ان اكثر الفلاسفة هلكوا على ايدي الملوك والامراء الذين يثاؤون اداة العدالة الفورية الحاسمة .

فأغض السيد دنديو عليه ، وقد بدت على قسبات وجهه معاني العياء كافة ، فخاطب كوستال نفسه قائلاً : « هذه نتيجة السير مسافة اربعين كيلومتراً في الستين من العمر . فالنشاط لا يبذل عبثاً ، لأن له ثمناً باهظاً ، ولكن هذه الحقيقة لا تقال . فلنأزم الصمت ، ولنحترم خبرة الكبار » .

ورفع السيد دنديو ذراعيه ، ثم القاهما على مسندي المقعد بحركة فيها ابلغ تعبير عن الاذعان والكتابة ، وظل مغمض العينين ، ثم قال : — اود ان انام ، ان اظل نائماً ، ولكن السيدة دنديو وسولانج نوقطاني دائماً لتعطياتي بعض العقاقير ، مع ان العقاقير عديمة الفائدة ، والنوم عذب مريح . ولكن لا اهمية لراحي . يجب حرمانى النوم لاجل العقاقير ...

يجب ان نتصرف حتى النهاية حسب المؤلف ، لا بموجب ما تقتضيه الحقيقة .

كان كوستال قد حسب هذه الدعوة الى الغداء شركاً أعدت له فيه اصفاد الزواج ، وتبادر الى ذهنه ان السيد دنديو دعاه الى مكتبه ليحدثه ، على حدة ، عن حسنات سولانج ، وفضائلها ... فكم كانت دهشته كبيرة لما رأى العجوز لا يأتي على ذكرها ، ولا يعتبره خطيباً بمكناً ، ولا بحسبه من جملة « ذوي » الذين تكلم عنهم كلاماً لا يدل على المحبة والصدافة .

وبدا كوستال يعتقد ان السيدة دنديو وحدها مطلعة على ما يجري بينه وبين سولانج ، فإما ان تكون مسرورة بهذا الامر ، لأنها تجد فيه مجالاً للافتخار ، دون ان تنظر الى النتائج البعيدة ، وفي مثل هذه الحال تكون على جانب كبير من الغرابة ؛ وإما ان تكون غايتها الفناء ستر « الخطبة » على هذه العلاقة لانقاذ المظاهر ، فيبقى مشروع الخطبة مظهرًا ، لا حقيقة . وربما كانت السيدة دنديو مصممة على متابعة هذه القضية لبلوغ المآرب الذي تطمح اليه . ومهما يكن من الامر ، فقد اتضح ان السيد دنديو كان شخصية مهمة ، لا شأن له في هذا الموضوع . وهذا امر بديهي لأن وفاته كانت منتظرة بين يوم وآخر ، حتى بات يُعتبر كأنه في عداد الاموات .

وفتح السيد دنديو عيليه ، وبدا كأنه يشير ، بحركة مبهمه من يده ، الى كل ما في الغرفة من اشياء ، ثم قال :

— هذه الاشياء كلها ، ماذا تفيدني ؟ انها حماقات ، سخافات ، يستعين بها الناس على قتل الوقت . بدأت الآن ارى بوضوح ... هذه الاشياء كلها تكذب . الساعة المعلقة بالحائط مخطئة ، تدل على غير الساعة التي نحن فيها ، انها معطلة ؛ ميزان الجو مختل ، لوحة « كورو »<sup>١</sup> المعلقة الى جانب الساعة

١ - رسام فرلسي ( ١٧٩٦-١٨٧٥ ) اشتهر برسم المشاهد الطبيعية ، وبرع في اغداق \*

مزيفة . اما الكتب فالكسوت عنها افضل . كل ما ارى دجل ونفاق .  
وقد عشنا في هذا الجو حتى ألقناه ، وغدونا منه وفيه . فلو تسقى لنا  
يوماً ان نكتشف هذا النفاق هلكننا كالمدينين على الخدرات الذين يموتون  
اذا حرموها .

وهب جالساً بقوة كأنه يتصلب ، ثم خاطب كوستال قائلاً :  
- اني اشكرك على شيئين : اولاً على انك لم تحاول التميويه علي  
بخصوص حالتي الصحية ، وثانياً على انك لم تبذل جهودك لتعزيني . فلو  
كانت ثمة فكرة تستطيع تمزيق لوددت ان تكون فكرة الموت الطبيعي ،  
لا فكرة الموت في سبيل « قضية » ...

ولزم كوستال الصمت ، فاستطرد السيد دندبر قائلاً :  
- ومن المحتمل ان اموت ميتة اخرى غير طبيعية .  
واشار الى الحزانة وهو يقول :  
- لديّ هنا ما يستعجل النهاية اذا اشتدت آلامي : قارورتان من  
الفيرونال ، اذوّب محتوئهما في الماء واشربه ، ويلتهي الامر .  
- اجل ، ولكن اذا كانت الكمية غير كافية ، وعاد اليك  
وعيك ، فما عساه يكون رأي عيلتك فيك !

فابتسم دندبر ابتسامة ضيقة كابتسامة الاطفال واجاب :  
- أنظن ؟ لا ! اذا شربت الفيرونال فلا أمل لي مطلقاً بعودة الوعي اليّ .  
- لماذا لا تستعمل المسدس ؟  
ثم استطرد مزججراً :  
- لأنك تخشى ان تقع الشبهة على عائلتك ! ؟  
- نعم ، لأجل سولانج . ولكن المسدس خطير ، فمن المحتمل ان تنحرف

---

= الاضواء على لوحاته ، وفي ابراز جمال العمران . من اشهر لوحاته : ثيفولي ، ومشهد  
الكروليه . وفي لوحاته ايضاً مشاهد شمعية بما فيها من الوان النور المتدفق ، ار  
ظلال الضباب .

فوهته ، فتخطيء الرصاصة هدفها .

— ما عليك إلا ان تسدد الفوهة الى العظمة الكائنة فوق الصدغ . فاذا فعلت فلا خطر من الاخفاق إلا اذا تعطل المسدس . اني اعرف ذلك . تباً للاسلحة النارية ! افطع ما فيها انها لا تضمن لصاحبها إلا سلامة ومية . اذا اراد المرء ان يقتل احداً ، فدونه المديّة القاطمة . لم يجد الانسان بعد افضل منها .

— وبما اني لا استطيع الانتحار بالمديّة ، فلا غنى لي عن الفيروناك .  
أتظن ان من يلتحر جبان ؟  
— ان الرعايد الذين يعجزون عن الانتحار لشدة جبنهم هم الذين يزعمون ان من يلتحر جبان .  
— هذا هو رأيي تماماً .

وساد صمت ثقيل كان كلاّ منهما ادرك انها فرغا من الموضوع الذي كان مطروحاً على بساط البحث . ثم قال السيد دندير :  
— صرفت اربعين عاماً من حياتي للقيام بأعمال كلفتني تضحيات جمة ، ولم أكن مكرهاً على القيام بها . ففي ايام الشباب ، اذبلتُ زهرة العمر مكباً على كتب القوانين بذاكرة ضعيفة لا تقوى على الاستيعاب ، مع ان جميع افراد عائلتي كانوا يملكون ، كما كنتُ اعلم ، اني لن اكون محامياً إلا للمحافظة على المظاهر مدة سنة او سلتين . تزوجت دون حب ، ودون غاية نفعية ، ودون رغبة في الزواج . انجبت اولاداً لأن زوجتي ارادت ان يكون لنا اولاد . واستطيع ان ابوح لك بانني لم افرح بولادة سولانج . أقمت في باريس ، مع اني احب الطبيعة والعزلة . وأكهرت نفسي على القبول بما لا تحب ، عملاً بقول الناس : « هذا واجب ... وهذا لا بد منه ... » . وثابرت زمناً طويلاً على الذهاب كل سنة الى الاماكن الشهيرة بينابيع المياه المعدنية ، على الرغم من كوني خبرتها عن كثب ، عاماً بعد عام ، فافقنت انها لا تعود عليّ بأقل فائدة .

قمت بجميع هذه الاعمال دون سبب ، لان الذين عاشرتهم كانوا يقومون بها ، او لانهم كانوا يقولون لي انه يجب عليّ ان اعملها . وها انا على وشك الموت ، ولا ادري لماذا رضيت بحياة لم تعجبني ، مع اني كنت قادراً ان اعيش عيشة حافلة بالمسرات . أفليس هذا امراً في منتهى الغرابة ؟

— لا غرابة مطلقاً في ما تقول . فالانسان ينقاد للتيار الذي هو فيه : هذه هي القاعدة . والانسان يعيش على الصدق : هذه هي القاعدة . وفجأة ، فُتح الباب ، ودخلت السيدة دنديو ، فخطبت زوجها قائلة :  
— جئت اسألك هل انت بحاجة الى شيء .  
— اشكرك ، لا اريد شيئاً .  
— ألا تريد ان افتح لك النافذة اكثر ؟  
— لا ، فضجة الشارع تتعبني .  
— ارى ان زجاجة الكولونيا فارغة . فسأشترى لك زجاجة جديدة .  
— لا ، فالكولونيا باردة ، لا اطيعها ...  
— ألسخن لك الكولونيا ؟ عذراً ، اني ادعكم لخلوئكما .  
ولزم كوستال والسيد دنديو الصمت فترة من الوقت . ولا ريب في ان السيدة دنديو وقفت وراء الباب قبل ان تدخل ، وسمعت القسم الاخير من الحديث الذي كان يدور بينهما .  
قال السيد دنديو بصوت خافت :

— آه ! كم اود ان اذهب الى احد المستشفيات ! كم اود ان ارى ، قبل ان اموت ، جواً جديداً ، وعيظاً جديداً ، ووجوهاً جديدة غير التي اراها منذ ثلاثين عاماً ! ولكن هذه امنية احلم بها ، ولكنها محظورة عليّ . أتدري ما هو العمل الوحيد الذي استطيع احتماله وانا في هذه الحال التي انتهت اليها ؟ انه حرق ما لدي من الرسائل . خمس واربعون سنة من الرسائل . فلو جمعت الساعات التي صرفتها في كتابة الرسائل وقراءتها ،

وفي اعمال اخرى من هذا النوع عديمة الفائدة ، لرأيت اني اضعت من حياتي سنين عديدة . وبما انك لا تزال شاباً يطيب لي ان اسدي اليك بنصيحة : لا تجب عن الرسائل التي تتلقاها ، او اجب عنها في ما ندر . ولا تحش أن يؤدي استنكافك عن المراسلة الى ما يؤذيك ، لان الناس لن يؤاخذوك على هذه المقاطعة : يكفي ان تعودهم شيئاً ليالفوه ويعتبروه طبيعياً . وانا ، حين احرق ما لديّ من الرسائل ، اعبر عن انكاري لكل ما كان حياتي ، فاغتم بعض السرور . ويسرني ايضاً ان احرم السيدة دنديو المتعة التي قد تجدها بالبحث في شؤوني الخاصة . ومن العجيب حقاً ان اخاطبك ، انت الذي لا اعرفه ، بهذه الصراحة .

كان العجوز يتكلم كمن يود لو يطرح سرّه في هوة سحيقة القرار . فتذكر كوستال انه كثيراً ما لجأ ، هو ايضاً ، الى هذه الوسيلة للتنفيس عن كربه ، وراح لسولانج بما في نفسه ، فاذا بالسيد دنديو يعامله بالمثل ، دون ان يدري ما بينه وبين ابنته ، ويفتح له صدره بلا تحفظ ، ويطلعه على ما يعتلج في اعماقه بثقة مطلقة كذلك التي وضعها الكاتب في سولانج ... وحيال هذا التجاوب العجيب بين شعور الرجلين ، لزم كوستال الصمت ، وغاص في تفكير عميق .

واستأنف السيد دنديو حديثه قائلاً :

— ان شعور زوجتي الديني كشعور السواد الاعظم من الفرنسيين المتوسطي الحال ، فهي لا تمارس الشعائر كلها ، ولا تتقبل الاسرار المقدسة ، إلا انها تحضر القداس يوم الاحد . وتزعم سولانج انها غير مؤمنة ، ولكنها تحضر القداس مع امها ، وتساء اذا حدث لها ما يحول دون ذهابها الى الكنيسة يوم الاحد . ولكن سولانج لا تعرف شيئاً ... ولا ريب انك خبرتها ، فهي لا تزال برعماً . اما انا فقد عشت وثلياً طيلة حياتي . لا يستطيع احد ان يحب الطبيعة كما احببتها . وقد احببت ايضاً يسوع المسيح . ولديّ البرهان الساطع على ان الديانة المسيحية

مقتصرة عن بلوغ التعم الفلسفية التي بلغت الوثنية . وهذا البرهان مائل في انتصار المسيحية على الوثنية . ونحن نعلم نوع الاشياء والاشخاص الذين ينتصرون في هذا العالم .

وقضت وجهه تغضناً يدل على مرارة الحيرة ، ثم قال :  
.. لا اعني بهذا القول اني غير معجب بتعاليم المسيح ، فكل ديانة ،  
مها تكن ، تستطيع انقاذ نفسها من السخافة المضحكة بدعوة الناس الى الاحسان . ولكن القديس بولس اساء التصرف . من ابرز معتقدي اني لا اريد ان ارى كاهناً الى جانب فراشي ساعة موتي . وما يزال هذا الاعتقاد راسخاً في ذهني حتى الآن ، ولكن ، بعد التقلبات التي جرت في نفسي منذ حين ، بدأت ادرك ان هذا « الاعتقاد » خسر كثيراً من المعنى الذي كنت اجد فيه . وانت ، يا سيد كوستال ،  
أسمح لي بان اسألك اين انت من العقائد الدينية ؟

.. اني مسيحي عتيق ، مسيحي عتيق من ذوي « الدم الازرق » .  
ولكن من البديهي اني لا اؤمن ، ولا امارس الشعائر الدينية .  
- آه ! هذا ما يسرني . لا استطيع ان اصافح بصراحة وصدق رجلاً يؤمن بديانة مها تكن عقائدها . هات اعطني يدك .

وصافحه بقوة ، ثم قال :  
وعلى الرغم من كل شيء ، أفلا تريد ان يقام لك مأتم بحسب الطقوس الدينية ؟

.. اود ان تنقل بجثتي رأساً من فراش الموت الى الحفرة العمومية ،  
وان لا تدفن في مكان عميق لتتمكن الكلاب من نهبها وأكلها .

- هذا هو الصواب . ولكن ما رأيك في الكاهن ؟ ألا تريد ان ترى كاهناً وانت على فراش الموت ؟

- هذه مسألة منوطة بالحالة التي اكون فيها . فاذا كنت بين ذوي رحبت بحضور الكاهن لسببين : أولاً لارضي اهلي دون ان اتكلف شيئاً ،



لانهم يرغبون بجمرة في ان اتم واجباتي الدينية ، وثانياً لارتاح من إلحاحهم في ارشادي لانقاذ روحي من الهلاك . فاصرار الناس على تعذيبك وارهاق اعصابك في هذه الساعة التي لا تتوق فيها الى غير الراحة ، انما هو ضرب رهيب من الضراوة الفاشمة . أتريد رأيي كاملاً في هذه المراسم الدينية ؟ لا اهمية لها مطلقاً . ولا شك في اننا نخلع عليها اهمية لا تستحقها عندما نتصلب في التنكر لها . اما اذا مت بعيداً عن اهلي — وهذا ما اتوق اليه بكل قواي — واذا لم يحدثني احد عن الكاهن ، فلن اطلب حضوره .

— انك لعلی حق : « لا اهمية مطلقاً للمراسم الدينية » ، هذا الرأي هو فصل الخطاب . وما خلا ذلك ، فانظر الى هذه الغرفة : كل ما فيها مرتب ، مصنف ، معنون ، مبوب ، تستطيع ان تجد فيها ما تشاء بسرعة وسهولة . فلو كان الامر على عكس ما ترى ، وكنت فوضوياً لا اعرف النظام والترتيب ، فما الفرق بين الحالين بالنسبة اليّ في هذه الساعة ؟ واليك بمثل آخر : حرصت دائماً ، عملاً بمبدأ اعتنقه ، على ان لا اشترى من السلع إلا أجودها . ولكن تبين لي ان الثوب الكامل يرث ويهترئ بعد عدد معين من الشهور ، سواء أكان ثمنه ألفاً وخمسمائة فرنك او سبعمائة فرنك . ولا بد من استبداله بعد مدة معينة . وهذا يعني حتماً ان لا اهمية للثوب ، أجيداً كان صنفه ام رديئاً . ولهذا السبب ، لا فرق بين الرجل الصالح والرجل الشرير .

ورفع السيد دنديو يده الى جبينه ، وبسط كفه فوق عينيه كأنه يحمي نظره من النور الذي يتعبه ، مع ان النوافذ كانت مغلقة تقريباً ، لا يتسرب منها إلا القليل من الضوء ، ثم استرخت يد المعجوز على خده ، وبقي فترة في هذا الوضع ، وهو يقول :

— احببت الشمس حتى العبادة . ظنلتها تشفي من جميع الامراض : من الاحتقان في الرئتين ، من القرحة في المعدة ، من الكسر في الساق .

وكنيت اعتقد انه يكفي ان يستلقي المريض في نور الشمس ليشفى .  
 أجل ، كان هذا اعتقادي الوطيد ، الراسخ في اعماقي . كان ضرباً من  
 الوثنية الهمجية . وادهى ما في الامر ، اني بشرت بصحة هذا الاعتقاد  
 ودعوت اليه مئات الشبان . اما الآن فاذا كانت السماء صافية قليلاً ،  
 ضايقتي نورها ، وغدوت عاجزاً عن احتاله . واذا خرجت من البيت ،  
 فاني ألبأ الى الاماكن الظليلة ، وما كنت اطيع رؤية السماء الغائمة .  
 فهل هناك حقيقة للاحياء ، وحقيقة اخرى للشرفين على الموت ؟ لقد  
 انتشيت بجمال العالم وجمال الخواقات ، واستطيع اعلان هذه الحقيقة بصدق  
 واخلاص ، لاني ما سميت قبل وراء النساء والمذات الجسدية . اما الآن  
 فكل ما هو حيّ يؤذيني كأنه اهانة موجهة اليّ ، واراني مستعداً لمقابلته  
 بالبغض الشديد . لم أقرأ الصحف ، ولا يهمني شيء من شؤون الحياة ،  
 لاني مزعم على مفادرتها . تحاول زوجتي احياناً ان تأخذني في زهرة  
 بالسيارة الى غابة بولونيا ، فارفض . لا اريد ان ارى جمال العالم ، لاني  
 بعد قليل سأصبح عاجزاً عن التمتع به . ف رؤية هذا الجمال تؤلني ، ولا  
 اريد ان أتا لم .

من العجب ان تأثير النور فيك هو عكس ما حدث لغوته .  
 وهو على فراش الموت .

احباب السيد دندير بلهجة من ضاق صدره :

دعني من هذه الاسماء الكبيرة التي تحب ترددها ! ما يهمني غوته ؟  
 ليمت كما يطيب له ان يموت . لم يبق لأحد قدرة تجمله قدوة لي . لقد

---

١ - اديب ومفكر الماني ( ١٧٤٩ ... ١٨٣٢ ) ومن كبار عباقرة العالم . جمع بين  
 عمق الفكر والخيال الواسع الخلاق ، فاستطاع الابداع والتفوق في مختلف الفنون  
 الادبية . من اشهر مؤلفاته : فرور ، رافيجاني ، وفارست ، وهرمن ودروتي ،  
 رغرور . عالج ادق المسائل الفلسفية فاجاد في تحليلها وعرضها . وضع مؤلفات  
 فلسفية كبيرة الامة ، منها : « الحقيقة والوهم » . وكان شاعراً مجيداً ومن  
 كبار العلماء .

بدأ غوته يدرس علم الطبيعيات وهو في الخامسة والسبعين من العمر ،  
ومن البديهي ان يُعتبر هذه البادرة جديرة بالاعجاب . اما انا فأردد قول  
مونثيني<sup>١</sup> : « من الحاققة ان يصبح العجوز تلميذاً ابتداءً ! »  
فأشأز كوستال من هذه الملاحظة لأنه كان قد اقنع نفسه بان غوته  
من عباقرة تاريخ الفكر البشري ، إلا انه كان يعتقد في قرارة نفسه ان  
شهرة هذا الكاتب الكبير مبالغ فيها مبالغة تكاد تكون فضيحة .  
وفي هذه اللحظة دخلت سولانج ، لان الزائرة التي كانت عندها  
ذهبت ، فساور كوستال شعور غريب هو الانزعاج من حضور شخص  
محبوب .

ولما لزم السيد دنديو الصمت ولم يقل كلمة ليصرف ابنته من مكتبه ،  
استأذن كوستال وخرج . وفي البهو التقى السيدة دنديو فبادرت قائلة :  
— لا ادري ما حلّ بزوجي . فهو يئن اذا نزل من سريره ، ويئن  
اذ لبس بنطلونه ، حتى ليتبادر الى الذهن انه يعتمد هذا التصرف ، مع  
انه لم يفقد طيبة حياته ما كان يتحلى به من قوة الارادة ورباطة الجأش .  
— ألا تدرين ما به ؟ كل ما به انه يموت ، يا سيدتي .

— لا بد من الملاحظة ، والحمد لله ، ان موته ليس اكيداً في وقت  
قريب . ثم ، اذا افترضنا انه يمتنر نفسه مهتداً بالموت ، أفليست  
هذه فرصة سالحة لظهار قوة ارادته ، وقدرته على التجلد ؟ متى يُظهر  
ما فيه من المزايا الكبيرة ان لم يظهرها في مواجهة التجارب القاسية ؟  
انه يتصرف على نقيض ما يجب ان يفعل . أتدري ما قال للطبيب امس ؟  
قال له : « دكتور ، لا توجعي ! » اجابه الطبيب : « لا تخف ، فالمسألة

---

١ - عالم اخلاق فرنسي ( ١٥٣٣ - ١٥٩٢ ) امضى حياته في وضع مؤلفه القيم :  
« محاولات » . وصف فيه نفسه وصفاً يجعله خالداً . تبسط في عجز اللسان  
عن ادراك الحقيقة المطلقة والعدالة . قام برحلة طويلة في البلدان الأوروبية ،  
وعاد منها مؤمناً بالنسبية في كل شيء . وهو يقول : « ات فن الحياة قائم على  
الحكمة والحد والذوق والتساهل » .

في غاية البساطة ... » فقال حانقا : « نعم ، نعم ، اعرف طريقة الاطباء في تطمين مرضاهم . لذلك اقول لك ، واصر على ان تفهم ما اقول : « لا اريد ان اتوجع ! ليرض الآخرون باحتمال الاوجاع اذا طاب لهم الألم . اما انا فارفض الوجع رفضاً باتاً » . انه ليؤسف الذين يحبونه ان يسموه يتفقوه بمثل هذا الكلام امام الناس .

فاجاب كوستال بكلمات مبتذلة من وحي الحديث ، وخرج ، وهو يقول في نفسه : « اذاً ، فقد استدعاني ليروح لي بما في صدره ، وكذب ! سيموت بعد شهر ، وهو يكذب ! يا للعجب ! ما اغرب اطوار الناس جميعاً ! »



من  
اندرية هابو  
كابورغ  
الى  
بيار كوستال  
باريس

٣٠ حزيران ١٩٢٧

اقراء او لا تقرأ ، فهذه آخر رسالة اوجهها اليك ، وما كتبتها إلا لتدرك اني اعلم .

بعد ان حطمتني تحطيماً ، انتابني الحزن ، وبلغت الدرجة التاسعة والثلاثين - وهي ناجمة عن الكتابة وشدة الأسى لا غير ١ - فغدوت مهددة بمرض عضال ، او بالجنون ، واضطرت الى تغيير المناخ فوراً ، فجنحت الى كابورغ ، واقت عند احدي صديقاتي . وفي الكازينو تعرفت الى جماعة من النساء الكاتبات والشاعرات ، بينهن البارونة فليشيا .

قالت هذه البارونة علناً :

- أتسألن عن كوستال ؟ لا يقتصر شذوذه على انه لم يعانق امرأة في حياته ، بل انه لم يشته في حياته امرأة ، وهو الذي اعترف لي بهذه الحقيقة ٢ .

---

١ - اختراع محض ، لم تصب بالحى . لكن فساداً في الدم سبب لها دملاً في فخذها .  
- المؤلف .

٢ - ليدرك القارئ معنى هذه النبذة وما يليها ، يجب ان يعود الى ما كتبه ٣

وجرى الحديث عن بروست<sup>١</sup> ، فانقضضت على مؤلفاته ، لاني لم أكن قد قرأت له شيئاً بعد . فما افطع ما اكتشفت ! لقد انجذب ستار الوهم عن عيني ، ، وكاد النور يعميني : فالسيد دي شارلوس هو انت<sup>٢</sup> ! كل ما فيه يدل عليك ، وكل ما فيك يدل عليه . انك مثله ، تحب القوة ؛ ومثله تحب ان تمشي مسافات طويلة ؛ ومثله لا تضع خواتم في اصابعك ؛ فجميع الادلة تتناسق وتتوافق لتدل بقوة عليك . وعندما التقيت في مخدعك منذ حين ، كنت ترتدي قميصاً ذا طوق مفتوح على طريقة دانتون<sup>٣</sup> . ونبهتني ذات يوم الى انك تلتعل حذاء كبيراً انكليزياً لا ينتعل مثله احد في باريس . وحدثتني عن رجليلك لتقول لي انها مرهفتا الاحساس<sup>٤</sup> ! واها انا اكتشف الحقيقة الآن : ما كان تظاهرك بالرجولة إلا

كروستال ، في احدى رسائله ، الى صديقه « بابليس » ، في الحلقة الاولى من هذه السلسلة ، عن الحادثة التي جرت له مع البارونة فليشاه التي عرّضت عليه نفسها بوقاحة ، وهي التي تجاوزت الخمسين من العمر ، فاضطر الى اتيانها بانها لا يستشي النساء ليتخلص منها ، وقال لها انه لم يوافق امرأة في حياته . واما كان شديد التكم في ما يختص بملاقاته الجنسية ، فقد راج خبر شذوذه ووجد بين الناس من يصدقه ، ومنهم اندريه التي ظلت مخدوعة بضعة ايام . - المؤلف .

١ - مرسيل بروست ( ١٨٧١ - ١٩٢٢ ) كاتب فرنسي ، ألف رواية طويلة عنوانها : « البحث عن الوقت الضائع » . وهي صكناية عن سرد ذكرياته الشخصية ، وقد حلل فيها بدقة وعمق مشاعره ومشاعر الذين عاشهم ، واشتهر بدرس الشذوذ الجنسي .

٢ - بطل رواية بروست ' ومثال الخنث المنغمس في الشذوذ ، وقد احدث وصفه تأثيراً كبيراً في فرنسا ومختلف انحاء العالم حتى أصبح اكمل نموذج لمحب الذكر للذكر .

٣ - جورج جاك دنتون ( ١٧٥٩ - ١٧٩٤ ) محام وثائر وخطيب فرنسي . اسس نادي الكورديلياه ايام الثورة الفرنسية ، وكان عضواً في مجلس « كوفغلسيون » . اشتهر بالبلاغة وقوة الحجّة . اتهم بالخيانة وقطع رأسه في عهد روبسبيار . كان يرتدي دائماً قميصاً مفتوح الطوق ، فعرف هذا القميص باسمه .

٤ - اممنت اندريه هاكبو في سرد هذه الصفات التي لمستها في كروستال لانها شبيهة بصفات شارلوس ، بطل رواية مرسيل بروست ، ومثال الخنث الذي لا يرغب له شفاء .

خداعاً ، وذرة رماد في العيون .

ما معنى ما لمستُ من التناقض بين مختلف مواقفك مني ؟ انه الارتباك الذي يقع فيه السيد دي شارلوس . وما رأيك في ما يتوالى على تصرفاتك من السمو والحقارة ؟ لقد ذكر بروس سمو شارلوس وحقارته ، فقال : « عرفت حتى سموه وحقارته في العلاقات التي قامت بيننا » .

قلت لي يوماً ، في شارع مارسو : « أترين كم اثق بك ؟ اني اخاطبك كما اخاطب رجلاً » . طبعاً لا عجب اذا كانت ثقتك بالرجال كبيرة ...

وكم سمعتك تقول : « رقة الشعور التي يتناز بها الرجال ... » ويستطيع عارفوك ان ينفوا عنك كل شيء ، ما عدا رقة الشعور .

وقلت لي مرة ان الشبان بلهاء . وهذا ما يقوله شارلوس حرفياً ! وصف بروس بطله شارلوس قائلاً : « ... اننا لنعجب بها في وجه هذا الرجل من اللطف الشديد التأثير ، ومن الملاحظة والبساطة الطبيعية في التعجب ... » وانا ، كم قلتُ فيك : « انه لطيف ، حسن الوجه ، بسيط التودد ، طبعي التصرف ! »

كم كنتُ حقاها ! وما افطم الهبوط الى هذه الجحيم ! لقد بدّل هذا الاكتشاف نظرتي الى العالم .

واني لأذكر اليوم قولك في روايتك « الوهن » : « لقد تحولت الى كريستين » ، عندما تحدثت عن هذه الفتاة . وفي كتاب بروس اعترافات جزئية من هذا النوع ادلى بها شارلوس في بعض المناسبات ! وكثيراً ما كنتُ تردد قول فلوبيير<sup>١</sup> : « السيدة بوفاري هي انا » .

١ - غوستاف فلوبيير ( ١٨٢١ - ١٨٨٠ ) كاتب فرنسي شهير ، من مؤلفاته : السيدة بوفاري ، وسلمبو ، وتوقيف الاحساس ، وتجارب القديس النطونيوس ، وجموعة قصص . مؤسس مدرسة الفن للفن ، وقد اعطى في مؤلفاته ابرز مثال على اتقان

ولكن فلو بير كان لواطاً ، ولا ريب ، بدليل بقائه عازباً ، ووجود امرأة واحدة في حياته كلها ، وما رواه في كتابه « سامبو »<sup>١</sup> عن ان « الصداقات » التي كانت تربط بين بعض الجنود القرطاجيين جعلتهم شجعاناً لا يهابون الموت . وإذا كان هذا هو ثمن الشجاعة ، فإني أفضل جيشاً جباناً يلوذ بالقرار .

ولا أستطيع ان أنسى ما قلت لي مراراً عن قلة شعورك بالغيرة ، وكنت تسمي هذا النقص : « رشاداً يكاد يبلغ ذروة السمو » . فليست هذه من صفات الرجال ، والغيرة ميزة أساسية من ميزات الذكر .

فهمت الآن لماذا رأيته غير جديرة باهتمامك ، ولماذا عجزت عن إثارة شهوتك ! وكنت غيبية في ما عانيت من عذاب ، وفي وقوفي امام المرأة ابحت في وجهي عن سبب اعراضك عني ! اجل ، فهمت الآن لماذا لم تكن بحاجة الي ... فشعور المرأة في جسدك لا يشتهي إلا الرجال .

انت ، يا كوستال ، مارك ، لا ماليك ! مسيطر عليك ، لا مسيطر ! تبحث في الحب عن الذل الذي لسمي اليه نحن النساء ! انك تثير في نفسي الاشمزاز والقرف ، وتلطمخ في نظري وجه العالم ، بعد ان ملأته جمالاً واضواء .

وإذا كنت لا اعرف شيئاً عن هذا الشذوذ ، فقد حاولت ان افهم ، فتبين لي ان النساء اللواتي تمرقت اليهن في الكازينو لم يكن اوسع مني اطلاعاً . وهذا ما لمسته في ما تبادلن من الاسئلة التي بقيت كلها بلا جواب . فتعلمت على اشمزازي ، وبحثت في معجم طبي وجدته عند

---

= الانشاء . وسأزل ان يكون واقعياً في الوصف ، فلم يلتجئ من الاسترسال احياناً في رحاب الخيال الروماني .

١ - احد مؤلفات فلو بير ، وصف فيه الحرب الضارية التي نشبت بين القرطاجيين وجيوش المرتقة في شمال افريقيا ، فاستطاع بعث المشاهد التاريخية بقوة لم يماره فيها احد .



صديقي، هو معجم «لابارث»، ورأيت ان لافراد هذه الفئة الملعونة «بشرة متبرجة»؛ ثم رحت ابحت لافهم اكثر مما فهمت، فنذكرت بشرتك الدائمة النضارة، المشرقة الروتق... وفكرت بانك تستطيع ان تتجول في الشوارع، وفي يدك «محرمة» او زهرة، او قطعة قماش للتطريز بالابرة»، كما يقول معجم «لابارث»... ومن غرائب الصدف اني جلّدت كتابك «الوهن» باللون الاخضر. وما انا اكتشف ان هذا اللون هو شعار هذه المخلوقات القادرة، المتتهكة، وعلامة التعارف فيما بينها!

لا! هذا منتهى الفظاعة! أكاد اختنق من هولها، اكاد اموت. اطبقت المعجم، ولم أشأ ان اطلب المزيد من المعلومات. وعلى الرغم من ان الوصف الذي وجدته فيه لا يخلو من الترمويه المقصود، فقد اكتفيت به وصدقته. لك ان تقول ان النساء يعشن الى جانب الحقيقة، وانهن لا يفضلن شيئاً على وضع رأسهن تحت جناحين، الخ... لك ان تقول ما تشاء. اما انا فارى المسألة في غاية البساطة: ارى ان في العالم اشياء مريعة لا اريد ان اعرفها. فكرامة المرأة في، وكرامة الزوجة والام التي قد احصل عليها، تحظر علي معرفة هذا النار، لان لوئته تلطخني الى الابد. ليكون العالم كما يشاء؛ اما انا فلي الحق في ان اجعل ما يطيب لي جهله.

منذ خمس سنوات، ما برحت تمنعني من الزواج. لقد ضاع شبابي وضاعت حياتي برمتها بيجريرتك، لأن لا قيمة في حياة المرأة إلا أيام الشباب.

ولأجل من اضع حياتي؟ لأجل مخلوق شقي حقير هو انت! ألا تتصور مأساة امرأة توهمت ان من تحب هو الرجل النموذجي، ثم اكتشفت انه من هذه المخلوقات الدنسة؟ وليس لك حق وفخر، الابتكار والتفرد، لان امثالك كثر. واكثر من الكثير. وما انت إلا

متأنتق سطحي يحرفه التيار في غمرة المخطاط نثن ؛ ما انت إلا من الصغار بين اتباع امثال « جيد »<sup>١</sup> وبروست ، ومن لفّ لفهم من المهترئين في الاجهاد الجنسي ، والعقم ، وادعاء الفن ، عوضاً عن ان يكونوا رجالاً يخدمون ابناء جنسهم ووطنهم ، الخ ...

ولا تقتصر مصيبي بك على اني احببت مخلوقاً من هذا النوع ، بل احببت مؤلفاته ايضاً او بما ان جميع مواقفك مني ومن المجتمع ليست إلا مكرراً ونفاقاً ، فلا ريب ان مؤلفاتك من هذا النوع . لم يبق في وسمي ان اصدق كلمة واحدة من كل ما كتبت . وليست كتاباتك إلا بياناً متنعفاً وصكلاً من الانتاج الرديء . اذا كانت فيك بقية من الشرف بمقدار ذرة واحدة ، فحطم قلبك . لم يبق عليك إلا ان تدفن نفسك ، وان تلزم الصمت تحت لعنات الرجال الطبيعيين والنساء الخاليات من الفساد .

اعطيت<sup>٢</sup> حبي لسواك . لم يكن لك فيه حق . فالمرء لا يقبل حباً يفوقه سمواً ، لانه يعلم انه غير جدير بهذا الحب . وفي مثل هذه الحال ، لا يجوز له استغلال صداقة فتاة طاهرة ، نقية ، خصوصاً اذا كان هو ... ان رسائي اليك موجهة الى رجل تصورته في خيالي وحسبته انت . فاعدها الي<sup>٣</sup> . اني اصر على استعادتها . فقد وقعت خطأ بين يديك . انها تخجلني ، ان من احببت هو رجل مؤلفاتك ، رجل اكاذيبك . يخيّل الي اني منحت جسدي في ظلام الليل لرجل ظننت اني اعرفه ، فلما بزغ الفجر تبين لي اني كنت فريسة شيء لا ادري ما هو ؛ مخلوق ، نصف مخلوق ، غثت قبيح ... أتدري ان الوقوع في مثل هذه الفظاظة يدفع الى الانتحار ؟ ألا تعلم هذا ؟

١ - اندريه جيد ( ١٨٦٩ - ١٩٥١ ) كاتب فرنسي ، اخلص في البحث عن السعادة والحقيقة ، وتغلب على المبادئ الاخلاقية المألوفة ، وانغمس في الشذوذ الجنسي . اشتهر مؤلفاته : الاغذية الارضية ، اقبية اللاتيكات ، سمولنية الرعاة ، مزيفو النقد ، اذا لم تمت المحبة ، وهي مذكرات وصف فيها شذوذه بصراحة مطلقة .

ولكن لي في هذه المأساة تعزية اجدتها في التفكير بهول العار الذي  
نجوت منه ! وعندما افكر... عندما افكر بأنه كان من المحتمل ان  
تسني ، بينما انا لا ارضى اليوم بان تلامس اطراف اصابعي ، حتى لو  
كانت يدك في قفاز ، ادرك مدى الخطر الذي نجوت منه .  
اني احتقرك .



## الاربعة

لا اريد ان تعتدني قصيرة النظر ينطلي عليّ الخداع ، كما لا اريد  
ان تحسبني شريرة احب الاذى . اود ان تقرأ ما كتبت اليك امس ،  
ولكنني لا احب ألا يبقى لك مني إلا ذكرى هذه الرسالة .  
اكتب اليك بكتابة لامتناهية . ولكنني اليوم لست بمحزنة على نفسي ،  
بل عليك ، لان الامور قد تبدلت الآن . فطالما رثيت لحالي في ما  
مضى ، وما قد جاء دوري لارثي لحالك . لنفترض انك احببتني كأني  
اختك ؛ فما انا استطيع اليوم ان احبك بجنان الام ورأفتها ، فتكسبني  
هذه المحبة طمأنينة وارتياحاً .

اجل ، ما اتمس الانسان اذا كان مسخاً ! ان قلبي ليتفطر امس عليك .  
اتوسل اليك ان تخرج من هذه البؤرة ، اذا كانت فرصة النجاة لم تفنك  
بعد . انك شقي بائس ، ولا ريب في انك لجأت الى الانغماس في الرذيلة  
والتفنن بها هرباً من البؤس والشقاء . قد يكون شقاؤك الآن مزدوجاً ،  
ولكنك لست مذنباً . أسألك باسم كل ما هو مقدس في العالم ، باسم  
ذكرياتنا ( لانك احببتني ، ولاشك ، ولكنك لم تستطع المضي في حبك الى  
النهاية لسبب وجيه ... ) ، ان تخرج من الطريق التي تسير عليها . اذا  
كنت قد وجدت في رسائلي الماضية شيئاً من العذوبة ، وكانت هذه الرسائل قد

شدّدت عزيمتك ، واتاحت لك مجالاً للتفكير ، فاقرأ هذه بانتباه ، واعتبرها رجاءً وإتبالاً . تشجع واخرج من هذه الهوة . عد الى الانسانية الحقيقية . عد رجلاً من جديد .

اذا كنت لا تبالي بالكرامة ، فعد الى رشدك ضناً بمواهبك الادبية . وما دمت « لم تعانق امرأة في حياتك » ، فكيف لا تشعر بما فيك من نقص ، وبأن جميع نظراتك الى الكون والحياة مختلفة وخاطئة ، وبأن فنك آخذ بالهزال والانهيار ؟

اذا اصيب المرء بمرض يبادر فوراً الى معالجة نفسه منه . ولا بد له من ان يريد الشفاء . فلتكن لك هذه الارادة .

منذ هذا الصباح ، استشرتُ احد الاطباء هنا ، فقال لي ان لديه علاجات مادية ومعنوية لأمثال شارلوس . وقد ارسلت اليك مع هذه الرسالة لائحة بأسماء بعض الاطباء النفسانيين في باريس ، وهم من الذين سبق لهم ان عالجوا مرضى من هذا النوع . ضع نفسك بين يدي احدهم . وقبل بدء العلاج ، ردّد لنفسك ، واحياناً بصوت مرتفع ، بعد ان تتنفس ببطء ملء صدرك ، العبارة التالية : « اريد ان اصبح رجلاً » . ان الحوادث الاخيرة ، التي حطمتني ، ردّتي الى الدين . فالله لا يخدع احداً . انك تعلم ، ولا شك ، اني تخلّيت في ما مضى عن ممارسة جميع الشعائر الدينية . ومنذ خمسة ايام عدت اذهب كل يوم الى الكنيسة ، لأصلّي فيها قائلة ، كما كنت اقول من قبل : « يا إلهي اجعلني سعيدة » ، بل لأصلّي لاجلك انت . وسأظل أصلي لأجلك حتى ين الله عليك بالخلاص . الوداع . اني اصفح عنك . تقبّل رحمتي اللامتناهية . لك . أ . هـ

من  
بيار موستال  
باديس  
الى  
ارمان بايلهيس  
تولوز

٢ قوز ١٩٢٧

صديقي العزيز ا  
خلاصة هذه الرسالة : قول الكتاب المقدس : « إيش حب المرأة اكثر  
من بغض الرجل ! »  
غاية هذه الرسالة : غضب الرجال يفور عنفاً . وغضب النساء يفور  
حماقة . وهذا ما سأحاول تبيينه .  
اني مرسل اليك بالبريد المضمون وثيقة اعتبرها جديرة بالانتباه .  
وارجو ان تميدها اليّ بعد عشرة ايام ، عندما ألتقيك في تولوز .  
وخلاصة القصة ان امرأة منهوذة ، لانها لا تعجيب احداً ، تلقت بحارارة ،  
من عجوز مجنونة ، خبزا ملفقا عن الرجل الذي رفضها فأهانها . فقد  
توهمت انها وجدت في هذا الخبر ما ينصفها ، لأنه يقنعها بانها لم تنبذ  
بسبب دماستها ، ويثار لها باظهار من نبذها وأهانها بصورة « وغد قدر » .  
أطلعوها على صورة شخص لا يشبه غريمها بشيء ، اللهم إلا بان لكل من  
الاثنتين أنفاً وعينين ، الخ . . . ولنسلّم بان لون شعرهما واحد . ولكن  
المنهوذة رأت غريمها في الصورة التي أطلعوها عليها ، لأن شهوتها الخائبة

كانت قد اعتمها . ولو كانت امسام قاضي التحقيق لأقسمت انه هو . ولكنها لم تكتفِ باحتقار هذا الغريم ، بل ارادت ان تجود بالرحمة ، فمن الواجب ان تشفق بدورها ، فاذا بها 'تحيل احتقارها الى رحمة . وبما انها ظلت تحب ، على الرغم من كل شيء ، وبما ان الحقيقة القاسية خيبت رجاءها وطرحتها على السفح الآخر من الحياة : السفح المظلم الذي غابت عنه الشمس ، راحت تصلّي لاجل غريمها ، ظناً منها ان الصلاة تتوج انتصارها ، وتليح لها الادعاء بسمو النفس ، وربما اتاحت لها ايضاً مواصلة علاقتها بالغريم دون ان 'تتفّر' كبرياؤها ، فتعود الى مراسلته ، والى الكتابة اليه رسالتين في الاسبوع لا تقل كل منها عن اثني عشرة صفحة ، لتحدث عن نفسها بذريعة التحدث عن النائن اللامتناهي . ولا عجب ، ففي اللوحات المعلقة على اقفاص حديقة الحيوانات 'يُشار الى الذكور بسهم يعني ان الذكر يثقب قلب الانثى ، ويشار الى الانثى بصليب يعني ان الانثى تلجأ الى المصاب وتختفي به .

وحالة اندريه هذه تسارعى الانتباه ، لأن اندريه امرأة متوقّدة الذكاء ، ولا ريب في انها شخصية مرموقة .

انك تعلم رأيي في آلية تفاعل ردود الفعل لدى المرأة . فجميع ردود الفعل الواردة في رسالة اندريه مصنّفة وموصوفة منذ زمن بعيد . فردّة الفعل التي تنشأ في نفس المنبوذة ، وتدفعها الى اتهام غريمها بانسه السيد شارلوس ، هي الردّة ذات الرقم ١٧٤ . والردة التي تحاول المرأة فيها اقناع الرجل الذي تحبه بانه شقي بائس هي الردّة ذات الرقم ٢٢٧ المكرر . والردة التي تدفع المرأة البائسة الى ممارسة الشماثر الدينية هي الردّة ٨٩ . والردة التي تزعم فيها المرأة انها مريضة ، قياماً منها بمحاولة اخيرة

---

١ - كتب المؤلف كلمة « الكائن » Etre بجاءاً اولها حرفاً كبيراً وهي في مثل هذه الحال تعني « الله » ، وقد عمد الى هذه الطريقة للتدليل على انه يقصد الرجل ويمتدّه في مستوى الالهية بالنسبة الى المرأة .

لتبعث في نفس صديقها تلك الـ « رحة للنساء » التي تستنكرها وتسعى إليها معاً ، هي الردة ٢١٤ ؛ وهي ما تزال حتى الآن عند اندريه في بداية تكوينها . ولا بد من الملاحظة ان الردة النموذجية ، بين جميع هذه الردات ، هي الردة ١٧٥ التي تتم فيها المرأة المنبوذة غريماً بالعجز الجلسي ، وهي لم تظهر في اندريه بعد . وعلى الرغم من هذا النقص في تطور حالة اندريه ، فان مراحل ردات الفعل فيها تؤلف سلسلة تقليدية متتالية الحلقات بكل انضباط وانتظام ، حتى يمكن القول انها كاملة - كاملة في صغارتها وابتذالها - - يجني منها الفكر المراقب ارتياحاً كاملاً ، فيه من لذة الشعور ما يتذوقه علماء الفلك عندما يروث الكواكب تتحرك في مدارات كشف الحساب اتجاهاتها وعرف مداها . وأرى نفسي أيضاً كعالم كيميائي وضع نوعين من المادة في بوتقة ، وجلس يراقب تفاعلاتها المتوالية قبل الانفجار ، وهو يعلم النتيجة مسبقاً ، بينما الجاهل لا يدري من هذه العملية شيئاً ، وكل ما فيها جديد وغير منتظر بالنسبة اليه . واخيراً تسفر التفاعلات عن مادة لها الشكل واللون والوزن التي تتخذها عندما تتكوّن في الاحوال الطبيعية المعروفة . والأجل من كل هذا ان تطوّر حالة اندريه تقليدي وعجيب معاً ، فيه ما يذهل وما هو متوقّع ؛ وهو بهذا التناقض طبيعي كأنه الطبيعة بالذات .

لم تحشّ اندريه ان تكتب ان اكتشافها لشخصيتي في السيد شارلوس قد « بدّل رؤياها للكون » . واستطيع القول ان رؤياي انا للكون - اذا افترضنا جدلاً ان لي رؤيا - لو مرّت بأقل مما مرّت به رؤيا اندريه ، لتبدلت هي أيضاً .

ولكي نبقى في نطاق هذا البحث ، وبما ان الكون هو الموضوع الذي نعالجه ، اقول ان كتاب اندريه المرسل اليّ من كايبرغ يحملني على الاعتقاد ان في الكون ارتباطاً متناسقاً بين جميع عناصره واجزائه ، وهذا ما

كنت اجد اسباباً كثيرة للشك فيه على الرغم من الكهنة ، وعلى الرغم من فولتير<sup>١</sup> .

وربما نجد في هذه المسألة ما يدعونا الى القاء نظرة على افتقار النساء الى تفهم الشؤون النفسانية ، وهو افتقار طالما استرعى انتباهي . فالقسم الاكبر من النساء يعيش الى جانب الحقيقة . واذا درسنا حالة اندريه في مختلف مواقفها ، نرى انها تخطئ خطأ ذريعاً في كل شيء ، وبمناورة مدهشة تثير العجب : فهي تعتقد انها حسنة ، وتعتقد اني احبها ، وتعتقد ان ليس لي ولد ، وتعتقد اني السيد شارلوس ، وتعتقد اني شقي بائس ، الخ... وهذا ضرب من العناد الغريب في التشبث بالخطأ . ومرة اخرى اقول لك ان اندريه فتاة ذكية ، وتكاد تكون استثنائية على هذا الصعيد .

قد تقول لي : « ليست المرأة هي التي تفتقر الى تفهم الشؤون النفسانية ، انما المرأة المحبة وحدها تصاب بهذا الافتقار » ، فاجيبك فوراً : « ألسن كلهن عاشقات ؟ »

والمرأة التي تخطئ في ادراك ماهية الرجل تخطئ كذلك في العمل للاستيلاء عليه . فهي تزعجك حتى اثاره غضبك بدخولها عليك في اثناء عملك ، او باجتهادها في تقديم هداياها الصغيرة لك ، او بمطاردتك في اغلب الاحيان اكثر مما تحب ، او يجمعك الى اصداقائها وهم ليسوا اصداقك . وقد تكون علاقتك بها وثيقة ، تسمح لك بان تبوح بما في نفسك ، فتصارحها بان هذه التصرفات تزعجك ، فتكف عنها بعض الوقت ، ثم تعود اليها .

١ - كاتب وشاعر ومؤرخ فرنسي (١٦٩٤ - ١٧٧٨) صادق الملك وراسلمهم ، وحارب الاكليروس بلا هوادة ، وكان عاملاً من اقوى عوامل الثورة الفرنسية . اشهر مؤلفاته : رسائل فلسفية ، مجموعة رسائل لا تقل عن ١٢ الف رسالة ، تاريخ لويس الرابع عشر ، شارل الثاني ، تحليلات عديدة منها : زئير ، وموت قيصر ، وعهد ، وميرور .



تعجبك امرأة بعدما عن الفنج والدلال ، فتعبر لها عن اعجابك بها ،  
وتشرح اسبابه بكل طريقة وفي مختلف المناسبات ، وتنتقد امامها  
بقساوة جميع النساء التأنقات ، المسترسلات في الفنج والدلال . وبعد وقت  
طويل او قصير تصبح هذه المرأة مغناجاً ، وتضع في دوامة التأنق والدلال .  
وجميع النساء يفقدن ما كان لهن من الاعتبار في نفسك بالخاص في  
طلب المال ، ثم يأتي يومٌ يفسدن فيه منابع المتعة التي تجنيها منها ،  
فتضطر الى القطيعة .

ولو لم يطلبن شيئاً لحصلن على كل شيء ، لأن احجامهن عن الطلب  
يحدث في نفس الرجل اثرأ يدفعه الى العطاء بلا حساب .  
ولكن لا افرغتهن في الطلب اقوى من ارادتهن ، فكان فيهن حافزاً  
لا يقهر ، يدفعهن الى انتهاز سبيل الرعونة .  
وكما تخطيء المرأة مع رجلها ، تخطيء كذلك مع ابنها ، سواء أكان  
فتى ام فتاة ، وتخطيء اكثر اذا كان فتى .

كثيراً ما يحطم الناس اعصابنا باخبارهم عن « خوارق » حب الام  
الذي يرى الغيب ويبتدع المعجزات ان هذا دجل ونفاق . فالام لا تدري  
ما في نفس ابنها ، ولا تعلم ما يجب عمله لأجله . استطيع ان اضع كتاباً  
ضخماً في هذا الموضوع ، لا يحتوي سوى حوادث حقيقية ، اطلعني على بعضها  
امي لانها شذت عن هذه القاعدة .

يعترف بهذا الواقع جميع الرجال الذين يجرأون على النظر الى الحياة  
وجهاً الى وجه ، سواء أكانوا علماء اخلاقيين ، او أطباء ، او مربين  
( اكليزيكيين او علمانيين ) ، او اطباء نفسانيين . ولكنهم يحرصون  
اعترافهم في حديث خاص ، ولا يعلنون آراءهم للمرأة ، او في تصريحات  
علنية ، ولا يطبعونها في نشرة او كتاب ، لانهم يخشون الرأي العام المنحاز  
الى النساء . وحتى تولستوي الكبير<sup>١</sup> ، أتدري ما قال لغوركي ؟<sup>١</sup>

---

١ - ليون تولستوي ( ١٨٢٨ - ١٩١٠ ) كاتب روسي عالمي الشهرة . اعظم =

قال له : « عندما يصبح نصفي في القبر ، سأعلن لسلا رأيي في النساء ، ثم بقي على نفسي بلاطة الضريح ا » ولا اعرف رجلاً أقدم على الجهر بالحقيقة في هذا الصدد غير هورث سبنسر<sup>١</sup> الذي قال : « ان تدخل الام في شؤون ابنها لأشد ضرراً به من استنكافها عن الاهتمام بأموره » .

والابناء الكبار يعرفون أكاذيب امهاتهم ، فهي نتيجة المعجز التام عن الادراك . ولكن هؤلاء الابناء لا يقولون شيئاً ، ولا يبجسون بما يعلمون إلا لنفوسهم ؛ انهم يرحمون امهاتهم . وهذا مظهر آخر من مظاهر ال « الرحمة للنساء » .

اما انا فلي ابن هو أعز ما لدي في الحياة . اردت ان اصونه من وجود امه الى جانبه ، فاتخذت التدابير اللازمة كيلا يكون لهذه الام اقل حق عليه ، وعهدت بالسهر عليه الى امرأة ليست امه ، فمنحته حظاً كبيراً بالتجاح في الحياة .

انت تعلم ان بين القطط ايضاً امهات ، وارت العطف الحارق الذي يمتلك في القططة الام لا يمنحها دائماً من افتراس جراتها . وهذا رمز عظيم المغزى . وقد اكون حيث ولدي من الافتراس .

تلك هي ، يا صديقي العزيز ، ردات الفعل التي احدثتها في نفسي رسالة اندريه على الصعيد العام . اما على الصعيد الشخصي فقد جعلتني هذه الرسالة في حالة من المرح الطلق تتجاوز المحزون . واني احسن بحمية تلهب ذهني وخيالي للتعليق على رسالة اندريه كلها بهذه اللهجة التي بدأت بها

---

= مؤلفاته : الحرب والسلام ، آنا كارينين ، البعث . برع في وصف الاخلاق والنفس الروسية . بحث في اللاهوت والاخلاق لاكتشاف المحبة في الدين المسيحي القديم . مكسيم غوركي ( ١٨٦٨ - ١٩٣٦ ) كاتب روسي واقصي النظرة ، بروليتاري النزعة . اهم مؤلفاته : حيالي في ايام الحداثة ، المشردون ، الام .

١ - فيلسوف انكليزي ( ١٨٢٠ - ١٩٠٣ ) مؤسس مذهب التطور في الفلسفة الحديثة .

رسالتي ؛ مثلاً : قالت اندريه انها عندما احببتي اخطأت ادراك غاية الحب . وهذا خطأ دارج واسع الزواج ، فانت تقبّل هراً في بعض الاحيان ، وتمتدك انك قبّلت هراً ، ولكنك اذا دقت في الامر رأيت انك قبّلت برغوثاً ، الخ ...

ومن البديهي ان اوهم اندريه سرية الزوال ، يبددها عك الواقع ، ولكنها تحمسي الى اقصى حد ، لانت ما في هذه القصة من السخافة المضحكة يسكرني طرباً .

لم اؤمن قط ايماناً وطيداً بصداقة اندريه لي لعلمي انها تحبني . فكنت اظاهر باني اصدقها ، كما اظاهر ، بصفة كوني كاتباً ، بتصديقي مظاهر الصداقة التي يغمرني بها بعض الزملاء ، وانا اعلم ما يضمرون لي من الحقد الخبيث العميق .

والآن ، كيف ستكون تصرفاتي مع اندريه ؟ ربما كنت ، في ما مضى ، مستعداً لقبول شتائمها : فبين شخصياتي واحدة يروقها ان تتلقى الشتائم ككلب البحر الذي حدثنا عنه ألان جيربو<sup>٢</sup> انه كان يجد لذة خاصة في ان تمزقه الاسماك وتفترسه .

لا اطيع اندريه في البلاءه . احب البلاءه واجلّتها اجلاً شبيهاً بالتقوى اذا تجلّست في النساء الجميلات ، شريطة ان تكون المرأة البلاءه دمنة الخلق ، مطواعاً في الاستسلام . اما اذا كانت البلاءه معريدة جاهلة ، وصدرت عن امرأة دميمة ، فالوداع .

ألم تلاحظ ان بلاءه اندريه الناجمة عن احتدام غضبها افقدتها صوابها

١ - قال سان سيمون : « ان احترامني لنفسي كلّ يزداد دائماً بقدر ما أسيء الى جميعي » . - المؤلف .

٢ - بحار فرنسي ( ١٨٩٣ - ١٩٤١ ) اجتاز المحيط الاطلنطي عام ١٩٢٣ وهو رحيد عل زروق صغير . ومن سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٢٩ قام وحده ايضاً وعل زورقه الصغير بدورة كاملة حول العالم .

وجعلتها ترتكب اخطاء لغوية وتستهمل كلمات غريبة الاشتقاق<sup>١</sup>، وهي التي كانت تكتب دائماً بسهولة وقوة لا غبار عليها ؟ وكما كانت منتشية طرياً لما كتبت كلمة : لواط افلا ريب في انها تعلمتها في اليوم السابق ، فاردت ان تتباهى بانها تعرف ... وهكذا كان « برونيه »<sup>٢</sup> في السنة الرابعة من عمره ، اذا تعلم كلمة جديدة تروقه ، راح يرددها بهاراً كاملاً .

سأوجه بدوري الى اندريه رسالة ضارية من خمس عشرة صفحة ، اصارحها فيها برأيي فيها منذ بداية تعارفنا .

ليست هذه الحادثة حماقة كلها . فلو كنت في الثامنة عشرة من العمر ، وكانت اندريه المرأة الاولى في حياتي الجنسية ، لكان من المحتمل ان اقول في نفسي : « لا ريب في ان الحب يجب ان يكون هكذا . ولا بد له من التحول اوتوماتياً الى قذارة : هذه سنته المحتمة ، ولا مناص له منها » . اما اليوم فلا يمكن ان يخامرني تفكير من هذا النوع ، لاني عرفت نساء وفتيات كثيرات عانين الحمية ، والهجران ، والخيانة ، واحتفظن بكل ما كان فيهن من النسل والاباء ، ناهيك بنظرتهم الواقعية الى مجرى الامور ، وكثيرات منهن ما اردن غير الخير والهناء لمن كانت سبب شقاؤهن . واذاً ، فلا مغفرة لاندريه . وعلى كل حال كنت انوي التخلص منها قبل ان تكتب اليّ رسالتها الاخيرة .

هذه القصة توجي اليّ بثلاث ملاحظات :

الاولى : اني لم اثلق قط اقل اهانة من امرأة حسناء ، وما شتمتني

١ - استعملت اندريه في رسالتها كلمة Decadentisme التي لا وجود لها في اللغة الفرنسية للتعبير عن التادي في الانحطاط ، وكتبت Abime - اي هوة - جاعة سرقتها الاول كبيراً كأنها اسم علم . وهذا غير جائز .

٢ - ابن كوستال غير الشرعي . راجع الحلقة الاولى من هذه السلسلة : « المصبايا » . - المؤلف .

إلا الدميات . وكنت اذا تلقيت رسالة شتائم من امرأة اجهلها ، أدركت فوراً انها دمية .

الثانية : يبدو لي ان اندريه السامية الخلق ما وجدت إلا لتكون ناقدة ادبية ، اعني ناقدة ادبية في باريس عام ١٩٢٧ . فالطريقة التي اعتمدتها لتثبت اني وشارلوس صنوان هي من نوع المنطق الذي يثبت ان الشيء الاسود ، الاسود كالحجر ، هو شيء ابيض ، ابيض كالطبشورة . وهذا دليل ساحط على حسن الاستعداد للنقد الادبي في هذه الايام . ولا عجب اذا كتبت هذه الفتاة مقالات لتبرهن ان هذه الرواية العاطفية الشعرية الحماسية هي في حقيقتها العميقة واقعية ، وان هذا الكاتب المرح الماخن هو في جوهره شديد القلق والاضطراب . وقد تبين لي كيف كان بول موران<sup>١</sup> بودليزياً ، وجيرودو<sup>٢</sup> كاتباً شعبياً ، الخ . . . وقد تصبغ شهيرة ومحترمة في باريس عام ١٩٢٧ ، لان المهم ان يكتب المرء اشياء لم يسبق الى كتابتها احد من الزملاء بعد ، لا ان يكتب اشياء صحيحة ؛ وليس المطلوب ان يحكم الناقد حكماً سديداً عادلاً ، بل ان يكتب اشياء غريبة لتناقضها الصحف .

الثالثة : انك تعلم كم احب التكتسم ، وكما احرص على ازالة آثار علاقائي واعمالاي . فالعرب الذين يحذقون هذا النوع من الرياضة يزعمون ان الأسد يحجو آثاره بذيله عندما ينتقل من مكان الى آخر ؛ ويقال ان احد سلاطينهم كان ينعل جواده بنعال مقلوقة كي لا تدل آثاره على اتجاهه الصحيح ؛ وثمة مثل مصري يقول : « خبتيء حياتك كما تطعم

١ - اديب وديبلوماسي فرنسي معاصر ، اشتهر ببراعة الاداء وجمال الوصف والتغلت من الاساليب التقليدية . من مؤلفاته : « مقفل ليل » و « مفتوح ليل » .

٢ - جان جيرودو ( ١٨٨٢ - ١٩٤٤ ) كاتب فرنسي احتل المرتبة الاولى في التأليف المسرحي بين انشاء عصره . اهم مسرحياته : امفيثيون ، انترميزر ، حرب طروادة لن تلتب ، إلكتّر ، اندين . وله روايات عديدة اهمها : سوزان والمحيط المادي . وقد امتاز باناقة البيان وسحر الافكار .

القطعة سلاحها » ؛ ولنوضح هذا الامر اقول : ان التكتّم الذي احبه ليس كالذي يمارسه الناس ، انما هو التكتّم الذي امعن فيه عمقا بقدر ما ابوح به ، وبقدر ما ينتشر . فبعد المتعة الارستقراطية الناجمة عن إغاطة الناس وإثارة استنكارهم ، وهي المتعة التي اغنمها دون تحفظ ، نجد متعة اخرى في ان يعتبرك الناس غير ما انت ، شريطة ان يحط هذا الاعتبار من قدرك قليلا في نظر قادريك . ولست ادري أ تكون هذه المتعة ارستقراطية ام لا ، الا انها تدغدغ شعوري دغدغة لذيدة .

ومها يكن من الامر ، فان بطلة ساف ليونار اوحث اليّ بفكرة جديدة ، فليس من المستبعد ان اضيف الى اقنعتي الجديدة في الحياة فناع شارلوس . فلا شيء اسهل من ذلك : يكفي ان أذم النساء فكريباً ، ليستنتج الناس اني احتقرهن جنسياً ، لان الناس غلاظ الاذهان ، بن فيهم رجال الفكر ، ويحاولون دائماً العلاقات المستترة . وعندئذ ... يتسع افقي ، اذ يخف حذر الآباء والامهات على بناتهن من محاولاتي ، وتصبح معاركي سهلة اذا اعتقد الاغبياء اني « رجل لا يحب النساء » . الحق يقال ان اندريه عززت حياتي بمحنة جديدة من السعادة . فهذه المرأة التي نبذتها ستكون سبباً لحصولي على عشرين امرأة جديدة . وأود من صميم القلب ان تكتشف ، يوماً ، هذه الحقيقة !

تصوّر اني ارى نفسي ، منذ الآن ، خاوِجاً مع « برونيه » ، والناس لا يدرون ان لي ابناً ، فالى اين تقودهم تخيلاتهم يا ترى ؟ ما اعظم هذا الاتساع في افق نشاطي !

---

١ - استعمل المؤلف هنا كلمة غنمها وركبها على هواه ، هي : Parthenomachie ، روضع لها حاشية فسرها فيها كالي : كلمة يونانية الاصل ، مركبة من Parthos ، ومعناها : عدراء ، ومن Maché ، ومعناها : معركة . فيكون معنى اللفظة بمرمتها : « الصراع في سبيل الصبايا » . و اضاف بين هلالين قوله : هذه الملاحظة خاصة بشبان الجيل الطالع من الفرنسيين .

اصافحك ، يا صديقي ، واختم هذه الرسالة ببيت من الشعر  
لجوفنال<sup>١</sup> هو :

« ان بغض المرأة لا يرحم اذا نخس الذل حقدها » .



### لا فرق عندي ا

فطوال خمس عشرة سنة تخللني قوة النساء كما يتخلل الهواء  
الارغن<sup>٢</sup> ، فما تغنيت إلا بهن ؛ واسفاري ، وتغللاني ذهاباً واياباً ، وفترات  
تواري الطويلة بانقطاعي عن الكتابة ، وكل ما كان غامضاً لا تفسير له  
في حياتي - تلك الامور كلها لم يكن لها سبب إلا شغب النساء المتواتر  
بلا انقطاع . وكمر مرة رفضت من الكون بأسره كل ما هو غير الحب ،  
وضحيت بكل شيء ، ما عدا فني ، في سبيل حياتي الخاصة ، ولم تكن  
هذه الحياة مكوّنة إلا من الحب . ونصف العذابات التي حلت بي كان  
ناجماً عن العذاب الذي اضطررت الى انزاله بالنساء ، او بالحري بالفتيات ،  
لأن كل مغامرة مع فتاة لا تؤدي الى الزواج تلتها حتماً بالعذاب  
والشقاء ؛ ورضيت بأن ارى حياتي كلها مرتبكة ، متمبة ، ضعيفة ،  
بطيئة ، لاهتمامي الدائم بعدم الحاق الضرر بالنساء ؛ ولم استطع مرة واحدة  
ان أقرأ عبارة « فتاة صغيرة » من غير ان أشعر بقوة في صدري تدفعني  
الى ذرف الدموع ؛ ولم أسمع بان فتاة أجعلها سقطت في امتحان  
البكالوريا إلا أحسست بميل شديد الى عبادتها ؛ ولم يقع نظري على غلطة  
املاء في رسالة فتاة لا اعرفها ولم ألتئم هذه الغلطة على الورقة .  
فكم هو غريب ، بعد هذا كله ، ان تهمني امرأة باني شارلوس ، وان

---

١ - شاعر لاتيني لاذع اللسان (حوالي ٦٥ - ١٢٨) ، انتقد الانحلال الخلقي في  
عهود القيصرية الرومان بقصائد تميزت بالحرارة والعنف .

تكون هذه المرأة ذكية ، كاتبة ، نيرة العقل ، تعرف مؤلفاتي عن ظهر قلب ! لاحظ ، يا صديقي ، أن شارلوس لا يخيفني . قال مونتييني : « يعتبر الناس مضاداً للطبيعة كل ما هو مضاد لعاداتهم المألوفة » . وهذه هي الحقيقة ، فالمضاد للطبيعة هو الطبيعة ، كما ان السفينة المضادة لقاذفة الرعادات هي أيضاً قاذفة رعادات مكتملة الاوصاف . وقد حدثني ، يا لها من حقا ! عن « هوتي العميقة » : ان هواتنا في مكان آخر .

لا ، ان ما يخيفني هو الظلام الذي تبقى فيه النفس في نظرتها الى نفس اخرى . لم تفهم اندريه مني شيئاً ، على الرغم من كل ما كان فيها من مظاهر الفهم ، لانها استطاعت ان تخطيء بشأني الى هذا الحد ؛ وانا ايضاً لم افهم منها شيئاً ، لانه لم يخطر في بالي قط انه من المحتمل ان تخطيء الى هذا الحد . وقد احسن بودلير حيث قال : لا شيء في هذه الحياة إلا وهو قائم على سوء التفاهم .

كنت اعلم هذا ، ولكن ما هو الشيء الذي لا ينسأ المرء ، او بالحري لا ينسأ الفكر ؟ فالنسيان واقع اساسي في الحياة ، حتى ان الفكر يستطيع القول : « اني أنسى ، اذاً انا كائن »<sup>١</sup> .

---

١ - في هذا القول ممارسة للمذهب ديكرت الفلسفي القائل : « اني الفكر ، اذاً انا كائن » . وهو المذهب المعروف بالروحاني ، لان الروح هي كل شيء في اعتقاد اصحابه .



من  
 بيار كوستال  
 باريس  
 الى  
 اندريه هاجو  
 سان ليونار

٣ تموز ١٩٢٧

اذأ ، يا آنسقي العزيزة ، فقد وجهت اليّ رسالة عرمرمية ا فلا  
 بأس ! لما أكتنه لك من عرفان الجميل هو الاقوى : فالرجل الذي  
 يحترف درس القلب البشري لا يستطيع إلا ان يغتبط لان فرصة كهذه  
 لم تفته . اعطيتني صداقتك طوال خمس سنوات . وها ان عطائك يستمر  
 بانثزاع هذه الصداقة مني .

اعتقد أن ليس لاحدي منا ما يقوله للآخر في الوقت الحاضر . ولكنني  
 اعرفك : فستعودين اليّ يوماً ؟ واعرف نفسي : فستقبلك ، ولا ريب ،  
 كأن شيئاً لم يكن بيننا . وعلى كل حال ، فلا لزوم للاستعجال . فانت ،  
 ولا شك ، بحاجة الى الراحة بعض الوقت .

تقي ، يا آنسقي العزيزة ، باني احفظ منك اطيب الذكريات . واني  
 اتابعك باهتمام في مختلف احوالك .

ملاحظة : ارسلت اليك بالبريد كتاباً عن كوزيما فاغنر ، ألم تقولي لي  
 مرةً ، في احدي رسائلك ، خلال الشتاء الماضي ، انك ترغبين في  
 مطالعته ؟ حظيت به صدفةً في احدي مكنتبات رصيف النهر .

من  
السيدة بلانشمانييل  
الفرانش ( مانش )  
الى  
السيد بيار كوستال  
باريس

٢ قوز ١٩٢٧

ان اسمي لا يعني شيئاً بالنسبة اليك ، اما اسم تيريز بانتفان فقد  
يذكرك بشيء .

أتذكر هذه الجمل : « أيجوز لي ان اعمل هذه الصيحات ؟ ان قلبي لا  
يطاوعني ... وربما كانت فيك قوى جدية بانت تكرّس ... ؟ ثم :  
« سأشفق عليك السبت ، الساعة السادسة مساءً » . وبعدئذ ساد الصمت  
شراً . واغلب الظن انك لم تُعر هذا الامر اقل انتباه : فما هي اهمية  
تيريز بانتفان في نظرك ؟ ان رسائلك اليها لم تكن إلا تسلية . ولكن  
يجب ان تعلم نتيجة هذه التسلية ، وسبب هذا الصمت : فمئذ ثلاثة اسابيع  
تُحجر على ابنة عمي الشقية في مستشفى الجانين ، بأفرانش . أفيمكن لها  
ان تخرج منه يوماً ؟

ان تيريز بانتفان ابنة مزارع ميسور ، وقد كانت منذ حداثتها وحشية  
العجرفة ، تحبب نفسها نابغة لانها تحمل شهادة تكميلية .  
وانا ايضاً احمل شهادة تكميلية ، فلا يملكك الظن على اني احسدها .  
أتراني استطيع ان احسد مجنونة شقية ؟

كانت تبرز كسولاً ، تحتقر الاشغال اليدوية ، وتقبة حق التزمت ،  
ومدعية بالتفوق الفكري حق الفرور : فقد كانت تحتقروا !  
لزمت عزلتها في مزرعة ابوها ، وعاشت في الكبت الدائم ، ثم  
اكتشفت كتب كوستال : الرجل الوحيد ، الفريد ، الذي قد يستطيع  
فهمها .

قاطعت اصدقاءها ، وتلميذاتها ، وجميع الذين تعرفهم لتتصرف الى  
قراءة مؤلفاتك ، والتأمل فيها اياماً كاملة منزوية في غرفتها ، بحدة بهيام  
الى جميع صورك التي اقتطعتها من الصحف ، وقد وجدناها معها ...  
واخيراً كتبت اليك .

وانت الذي ما يزال في مقتبل العمر ، ولا يدرك شيئاً من شؤون  
الحياة ، على الرغم من جميع ادعاءاته ( لم اقرأ من مؤلفاتك إلا كتاباً  
واحداً ، لكنني وجدت فيه الكفاية لأكراهك ) ، انت الذي لا يمكن  
ان يكون اعمى الى حدٍ لا يدرك فيه حالة ابنة عمي من خلال رسائلها ،  
اعني الجنون ، فعوضاً عن ان يلقي برسائلها في سلة المهملات ، راح  
يحبب عنها ، وينفخ النار ليزيدها ضراماً ! فعلت ذلك عن غطرسة ،  
عن نزعة فيك الى السادية ، وإلا فما هي العاطفة التي دفعتك الى هذا  
العمل ؟

كنت في نجوة من كل خطر . وكنت تعلم ان هذه الفتاة الريفية  
المسكينة ، المشدودة الشعر الى الصدغين ( وقد ارسلت اليك صورتها ) ،  
لن تغادر حقلها البعيد لتلحق بك الى منازلك الفخمة المترفة ، ولو فعلت  
مدفوعة بالواقحة ، لما صعب عليك ان تأمر خدامك بطردها .

في شهر نيسان ، غادرت بيتها لتركب القطار الى باريس . فامسكت  
امها بها قبل فوات الاوان وحجرت عليها . وفي شهر نوار هربت من  
جديد ، فقبضنا عليها في بلدة « فير » على يد رجال الدرك ، فراحت  
تجتو على ركبتيها وتقول للذين قبضوا عليها : « دعوني اراه خمس دقائق

فقط ، ثم اعتقلوني ! » واضطرتنا الى ابقائها ليلاً في السجن ، بانتظار مجيء ذويها لاعادتها الى المزرعة . وفي حزيران انتابتها نوبة هستيرية ... تلك كانت عاقبة تصرفائك ، يا سيدي .

لن احدثك عن امّ تبكي ، وقد باعت مزرعتها منذ قليل لتدفع ما يترتب من أجرٍ على ابتها المجنونة في المستشفى . وعلى الرغم من ان هذه الام تجاوزت الستين من العمر ، فقد باشرت مطالعة مؤلفات بيار كوستال لتعلم من هو هذا الرجل الذي كان سبباً لشقاها وشقاء ابنتها .

والآن ، بعد ان ارغمتك ، يا سيدي الكاتب الكبير ( ١ ) ، على ادراك مسؤوليتك في هذه القضية ، فما الذي تنوي عمله ؟

اذا كان فيك شيء من الشعور الانساني ، وهذا ما ارتاب فيه ، فاني اخبرك بان راتب ضحيتك في الحجر هو خمسة عشر البف فرنك في السنة . فاذا رأيت ان من واجبك الاسهام في هذا المبلغ ، فيمكنك التهام معي مباشرة ، فاعطي ما ترسله اليّ للسيدة بانتقان التي لا تستطيع الاهتمام بهذه الامور لقلة خبرتها فيها . واذا فضّلت عدم الاجابة ، فلدينا رسائلك الموجهة الى تيريز بانتقان ، ونحن نعلم ما يلبغي لنا ان نعمل بها . انطوانيت بلانشمينيل

ملاحظات كتبها كوستال على صفحة بيضاء من هذه الرسالة :  
« لم تكن هذه الرسائل بالنسبة اليك إلا تسليّة » . أن اتسلى مع اندريه ، اجل ، في بعض الاحيان . اما مع ت . بانتقان ، فلا . بل عكس التسليّة . حذرتها من الخلط بين المقدس والدنيوي . بجافيتها لأنثى استمزازها مني . لم ادفعها الى الدير كيلا اتدخل في شؤونها الخاصة ، بل الى استشارة كاهن يستطيع ان يطلعها على قيمتها الحقيقية . جعلتها تشعر بانها شخصية ( وهي شخصية بالفعل ) . الرحمة وحدها كانت

مصدر كل ما علمت . اجل ، الرحمة على ابعد مدى ، ولا ذرة من الشر .  
الرحمة ، والعطف ، والتفهم ، والاحترام .

تهوّر؟ ليكن . ولكن كل احتكاك بمخلوق بشري هو تهوّر .  
اجل ، تهوّر السخاء . فكل عمل مصدره السخاء الصافي يتردد دائماً الى  
صاحبه كالهومرانيخ<sup>١</sup> الذي يرجع الى من اطلقه . وليس في هذا المجال  
اقل شذوذ عن القاعدة . فالذين يعملون بدافع السخاء يمكن تصنيفهم  
مسبقاً بين الضحايا .

واذاً ، فليست المأساة في ان قضية بانتفان سببت توجيه هذه الرسالة  
اليّ ، لأن هذه الرسالة ليست إلا النتيجة المنطقية للبواكير التي سبقتها .  
انما المأساة هي ان تيريز بانتفان ليست مجنونة مطلقاً . انها سجيئة ،  
— في الخامسة والعشرين من العمر — لانها كانت على علاقة بالمناطق  
العليا من الروح . اختلفت عن الناس فحسدوها ، اي ابغضوها . فتيريز  
بانتفان سجيئة ، سمج على محيطها لانها متفوقة عليه .

وما يهمني أعجنونة كانت او غير مجنونة ، ما دامت تتألم ؟  
لو كنت مؤمناً لصلّيت لاجلها .

---

١ - سلاح تستعمله بعض القبائل الاسترالياية مؤلف من شفرة خشبية قاسية ومعموفة ،  
تردد الى مطلقها اذا اخطأت الهدف . وتستعمل هذه الكلمة مجازاً للدلالة على  
ان فاعل الشر يشقى بفعلته ، وطابخ السم آكله ، ومن حفر حفرة لاشيئه  
وقع فيها .

من  
اندرية هابو  
سان ليونارد  
الى  
بيار كوستال  
باريس

٨ تموز ١٩٢٧

عزيزي كوستال ا.

لست ادري اين اصبحتُ معك ، ولم أعد اعلم من انت . وها انا  
اكتب اليك لاطلعتك على ما ينتابني من الحيرة ، على الرغم من شعوري  
باني اصغر في عينك بهذه « الرسائل الاخيرة »<sup>١</sup> التي لا تنتهي ، لم يكفني  
انك حطمتني في باريس ، فكان عليّ ان اتحطم من جديد بما علمته عنك  
في كابورغ . ثم ، اليك ما جرى : في غمرة حنقي المتزايد ، كتبت  
الى بضعة اشخاص اعرفهم في باريس ، وهم مطلعون على احوالك . كتبت اليهم  
اقول : « لماذا لم تتدروني بحقيقة كوستال ؟ » فاجابوني بان البارونة فليشا  
امرأة مجنونة ، وبانه « من السخف المضحك ان اصدق ما قالته عنك من

---

١ - في رسالتها السابقة كتبت اليه للمرة الرابعة : « الوداع » ، هذه رسالتي الاخيرة  
اليك ا . كما اعدت الكرة من قبل ، عادت هذه المرة ايضا الى مراسلته .  
وهذا ما كان يقوله لها في مختلف المناسبات : « انك ستعودين اليّ » ، شئت  
ام ابيت ا .

البذامة . . . وها انا حائرة ، لا ادري كيف افكر لاهتدي . فني بعض الاحيان اعتقد ان البارونة صادقة ؛ وربما كانت هذه الاحيان من الفترات التي تشتد فيها آلامي ؛ ثم يخامرني الشك . واظن ان هذا الشك يروق الرجل الذي كتب اليّ يوماً يقول انه لا يحب شيئاً اكثر من « الحدود المهمة التي تتداخل فيها الاشياء وتمتزج »<sup>١</sup> .

ولكنني غدت استمدّ القوة من حادث جديد يشدد عزمي : لم اعد فتاة عذراء في الثلاثين من العمر ، لم يقبض رجل قط على كتفيها ليقول لها : « يا ابنتي الصغيرة » . فلي الآن مسرّاتي وسعادتي ، انا ايضاً<sup>٢</sup> ، وهي لا تقلّ قدراً عن مسراتك وسعادتك مهما تكن ( كم انا شديدة التوق الى معرفة ماهيّة مسراتك وسعادتك ونوعها ! ... ) لي اصدقاء سواك ، وهم لا يدعونني الى مطاعم رخيصة افاياك ان تزدريني بعد اليوم . ولكن لعلم اني اذا تزوجت فستظل ليلة الغرام التي التمسيتها منك امينتي الكبرى في الحياة . لن تتحرك حياتي إلا اذا تحركت انت . اذا لم تكن ما حسبتك في كالورغ ، واذا تبين لك يوماً انك تريد الاحتفاظ بي ، وانك تشتهيني ، وتود ان اكون في حياتك روحاً وجسداً ، وان لا بديل لي لديك ، كما انه لا بديل لك لديّ ، واذا رأيت اني اسوي الاضطراب واهوم التي يسببها الحب لرجل يحب امرأة ويعتبرها جدية بان يعانني لاجلها ما يعانني ، اذا فاطلبي ، فاكون لك ، أيّاً كانت الرجل الذي جعلني في عصمته ، ومهما تكن العلاقات التي تربطني به .

الوداع لقد احببتك ، واحببتك حباً عظيماً ، وما برحت احبك حتى الآن . اما انت فلا شيء يستطيع منعك من الرضى بان تكون محبوباً . احس بانني لو سمعت احداً يهاجمك بهجر الكلام ، كما جرى منذ

١ - الرجل الذي تمنيه اندريه هو كوستال .

٢ - اختراع محض . فهذا « الرجل » الذي تسلّل الى حياة اندريه لا وجود له إلا في خياله . - المؤلف .

حين في كازينو كابورغ ، لما استطعت احتمال هذا الهجوم ، وقد اكون عاجزة عن احتماله في المستقبل ، أياً كانت النتيجة . ومهما يكن الجرح الذي احدثته في<sup>١</sup> بليغا ، فثمة اشياء مني لك ، ومنك لي ، لا يمكن ان تتعطل او ان تضع . ومن يدري ؟ فقد اترك بعدي اسماً تحمله شخصية تقتبسها عني في تلك الرواية التي وعدتني بها<sup>١</sup> .

أ . هـ

لا استطيع التفكير بانك ستزوج يوماً ! فاذا اقترنت بامرأة ثرية يهون الأمر ، لأنني اتعزى بالقول انها اعطتك ما اعجز عن عطائه ؛ اما اذا تزوجت بامرأة ليست أغنى مني ، فلا عجب اذا وجدت في هذه النكبة ما يفقدني الصواب .

( بقيت هذه الرسالة بلا جواب )

---

١ - اختراع محض . لم يمدحها كوستال بشيء من هذا النوع . - المؤلف .



ان في الادواء المتعضلة لشينفا من الالوية .

سان سيران<sup>١</sup>

تلقي كوستال كلمة من السيد دنديو قال له فيها انه يكون سعيداً اذا حظي بزيارته بعد غدٍ ، الساعة الرابعة بعد الظهر ؛ وقال في هذه الكلمة : « سنكون وحدنا » . وهكذا كتبت اليه يوماً ابنة دنديو تقول : « تعال ، سنكون وحدنا » . فاذا بالأب يكتب ايضاً : « تعال ، سنكون وحدنا » . فما اغرب شؤون هذه العيلة !

من عادة المحتضرين ان يكتبوا بخطٍ واضحٍ متقن ، لانهم يعتبرون السيطرة على اعصابهم من شروط صيانة السمعة والشرف . ولهذا السبب نرى السكران يعني بخطه عناية كبرى حين يكتب . اما خط السيد دنديو فكانت غريباً ، فوضوياً ، مبعثر الكلمات ، كأنه جثة خط انطرحت قبل الجثة الاخرى . وقد كتب رسالته بالقلم الرصاص .

وكان السيد دنديو قد لزم غرفته لا يفادرها مطلقاً . فلما دخل كوستال الى هذه الغرفة التقى بمرضاً يخرج منها ، وله سحنة لا يود احد ان يراها ليلاً في الغابة . والكلمة الاولى التي استقبل بها السيد دنديو

١ - ليس « سان سيران » قديماً كما يدعى اسمه الى الطن ، انما هو من اتباع الجالسينية في فرنسا ( هذه الملاحظة خاصة بالجيل الفرنسي الطالع ) . - المؤلف .  
وسان سيران لاهوتي فرنسي ( ١٥٨١ - ١٦٤٣ ) صادق جانسينيوس مؤسس « الجالسينية » ، وتولى رعاية النفوس في دير يور رريال حيث كان له نفوذ عظيم .

ضيقة كانت هذه :

— ألا تشم رائحة المرض في هذه الغرفة ؟ اني احرق ورق ارمينيا<sup>١</sup> .  
أتحب رائحته ؟ ... كن واثقاً ان الكرامة الوحيدة الجديرة بالاعتبار  
هي الصحة . والله يعلم كم كنت في حياتي الماضية رجلاً سليماً معافى ؛  
اما اليوم ...

وكان صوته قد اصبغ خافتاً ضعيفاً كصوت امرئ انقطع عن الكلام  
تقريباً ، او لا قدرة له عليه ، فاصبح عديم الاهتمام بنوع الصوت الخارج  
من بين شفتيه . وكانت عيناه تبدوان كأنها مجللتان بنشأ . ولم يكن  
قد خلق ذقنه ، فراح يشرح سبب هذا الاهمال قافلاً :

— عملت كثيراً لأجل هؤلاء الناس . كنت اخلق ذقني لاجلهم ، وأتعمد  
الطبية والاحسان لاجلهم ؛ وما انا ارى اليوم انه لا يجوز ان نحاول  
الاحسان الى الذين لا نجهم . لا شيء في الحياة يتطلب من العفوية  
والزعة الطبيعية الخالصة ما يتطلبه عمل الخير . وقد اخطأت في هذا  
المجال ايضاً بارهاق نفسي وتحميلها فوق طاقتها . ثم ان الخير الذي نعمله  
يفسد لسبب وجيه هو اننا اخطأنا في عمله .

وجعل كوستال يقول في نفسه : « لا يجوز ان نحاول الاحسان الى  
الذين لا نجهم » ، وهو يفكر باندرية .

وكان قد ادرك منذ مقابلة الاولى للسيد دنديتو ان هذا الرجل  
المحتضر لا يهتم إلا بنفسه . فاعجبته هذه الميزة ، واحس بأنه يعطف  
على المريض عطفاً صادقاً . ولكنه لاحظ ان دنديتو يزداد انطواءً على  
نفسه بقدر ما يقارب من الموت .

وكان كوستال يعتبر اثنائية الشيوخ امرأ طبيعياً ، لانها من صميم حركة  
الحياة . فكيف يستطيع المرء ان يحب العالم بعد ان يكون قد اختبره

١ - ورق تنبت منه رائحة عطرة اذا حرق كالند والبغور .

طليلة حياته ؟

قال السيد دنديو :

— ان الرجل الذي خرج من هذه الغرفة ، منذ لحظة ، هو اقدم  
اصدقائي . فالكلفة مرفوعة بينه وبينني منذ خمسين عاماً ، أفتدري ما هو  
الموضوع الذي كان مدار حديثنا ؟ في الربع الساعة الاولى حدثني عن  
مشروعات رحلاته الى مصر والهند وسيلان ، وكان منتشياً بحالات هذه  
الرحلات ؛ وفي الربع الساعة الثاني طلب اليّ رسائل توصية لابنه ؛ وفي  
الدقائق الخمس الاخيرة ، اي الدقائق الخمس الاخيرة من صداقتنا ، لاني  
ساموت قبل ان يعود من رحلته ، ما انفك يقسو علي ويهينني بلا هوادة  
لاني انا في غرفة مغلقة التوافذ . هذا ما قاله صديق لصديق له على  
فراش الموت ، مع ان عمر صداقتها نصف قرن .

وكان دنديو قد التقى بهذا الحديث فكرباً مع كوستال دون ان  
يدري ، فاجابه الكاتب :

— كل ما في الامر ان هذا الرجل خالٍ من الخيال .  
وكانت زقزقة السنونو تأتي متشابكة من اشجار الشارع كأنها  
اضاميم كثيفة من الاصوات ، فسأل كوستال المعجوز المحتضر قائلاً :

— واين الفيروثال ؟

— في مكانه وعلى أتم الاستعداد .  
— لن تأخذه ابدأ . كانت عندنا قديماً في البيت هرّ هرّ اصاب  
بقرح لا يندمل لأنه كان يحكه دائماً ، فاعطيناه قليلاً من السم . ولكن  
امي ندمت على فعلتها ، واحست بتبكيك الضمير ، فراحت تقول :  
« على الرغم من قرحه ، كان من المحتمل ان يعيش بضع ساعات طيبة » .  
وانت ستقول ، كلما همت باخذ الفيروثال : « ربما عشت بعد بضع  
ساعات طيبة » .

— اذا كنت لا اتناول السم ، فلأني لا اعاني ألماً شديداً . كل ما

احس به اني متعب ؛ اجل ، متعب ! أتدري ما الذي يجعلني متعباً ؟  
ككوني علمت كثيراً من الخير في حياتي ، وخدمت اناساً كثيرين . كنت  
منذ حين امزق ما لدي من الرسائل ، فوَقعتُ بينها على عشر او خمس  
عشرة وكلها طلبات مساعدة ، او شكر على خدمات سابقة . واذا  
سلمتَ بأن نصف الذين نخدمهم يشكرون ، عرفتَ عدد الذين  
مددت اليهم يد المساعدة . ولم هذا العذاب ، يا الله ؟ تذكر ، يا سيد  
كوستال ، دائماً هذا القول : ان الذين نساعدهم لا يستحقون قطعاً  
مساعدتنا .

— اني سعيد جداً بكوني لا اخدم احداً . فانا اذاً غير كفء للحكم  
على اعمالك . لكن كيف يتألم من نكران الجليل رجلٌ له ما لك من  
القدر والمكانة ؟ فالتمحي وحدهم يؤلمهم نكران الجليل . أليكون السخاء في  
نظرك ضرباً من الاعارة طمعاً بالاستمادة ؟

— لست متعباً من نكران الجليل . انما السخاء الذي بذلته هو الذي  
يرهقني . كان سخاء عديم الفائدة اوكم اضعفت في سبيله من اوقاتي اآه !  
كن انانياً ، يا سيد كوستال .

... اني اناني !

— اذاً ، فالحياة لك !

ثم قال السيد دنديو انه متعب للغاية ويود لو يموت . ثم جعل يشرح  
نظرية متشليكوف<sup>١</sup> كأنه واضعها ، فقال : لا يموت الانسان الا اذا اراد  
حقاً ان يموت .

واستطرد بصوت لا يخلو من القوة :

— اني اكره الذين يخافون الموت كباسكال ، الخ...

---

١ - عالم روسي ( ١٨٤٥ - ١٩١٦ ) تخصص في درس الحيوان والجرائم ، ركان  
من التابمين لباستور . وضع نظرية في وظيفة الخلايا في الجسم ، وخلص دراسته  
في كتاب عنوانه : « المناعة » .

فسر كوستال بهذا الاستعداد الذي يعفيه من التظاهر بالأسف والحزن . واستأنف السيد دندير حديثه قائلاً :

— وبعد ، فاني اسأل نفسي : لماذا عشت ؟

وكان جامد النظر . فاجاب كوستال بصفاقة :

— عشتَ لانه لم يكن في وسعك ان تعمل شيئاً آخر . فحياة كل رجل تقريباً تعاني التشويش بدافع من حاجة صاحبها الى تبرير وجودها . والنساء اقل تعرضاً لهذا النوع من الضعف .

. لو كنت سعيداً في حياتي لما حاولت تبرير وجودي ، لان هذا الوجود كان قد اكتفى بنفسه . ولكني لم انعم بالسعادة . وقد اكتشفت ان عدم تنعمي بالسعادة هو الذي سيسبب موتي في الحادية والستين من العمر ، عوضاً عن ان اموت في السبعين او في الخامسة والسبعين كما كان من المتوقع بالنظر الى المبادئ الصحية التي اتبعتها في حياتي . في وسعك ان تتصور حالي متى علمت اني عشت اربعين عاماً دون ان التقى في جواربي شخصاً ذكياً . اني لمتعب حتى العياء من الاشخاص الخالين من الذكاء ...

.. لكي تجد امرأ ذكياً يجب ان تبحث كثيراً ، كثيراً ...

.. ولما اشرقت على الموت التقيتك ا

.. هذا افضل لنا ، فلو تعارفنا قبل اليوم لما استطعنا الاتفاق

والالسمجاء .

فسأله السيد دندير بتواضع :

٢ لماذا ؟

.. لاني كنت سئمتك .

فقال السيد دندير ، وقد استولت عليه الدهشة :

.. كيف تستطيع ان تقول لي هذا القول ؟

.. اقول لك هذا القول لاني اعلم انك لن تفهم .

— اجل ، اني ابله ! ألا تعتقد اني ابله ؟ اجل ، اني 'مُبرم'  
ابعث الضجر .

وارتسمت على وجهه كتابة خفيفة فيها كل معاني المرارة والألم ،  
ثم قال :

— اجل ، اني ابعث البأس ، وكثيراً ما أفهمني الناس ذلك . ولكنني  
اود ان اعلم هل زوجتي تعتبرني احق عن يقين ، ام تتظاهر بهذا الاعتبار  
لتنظيمي ؟ والحق يقال اني اصبح احق بالفعل حين اكون معها .  
— ألم تصبح اشد ذكاء منذ ان حل بك المرض ؟  
— بلى ، غدوت افكر اكثر .

— عذراً ، لا اعتقد انك تفكر ، اعني التفكير بمعناه الاصيل . وانا  
ايضاً لا افكر . وقد حاولت مراراً ان ارى بوضوح كيف يكون  
التفكير ، ولكن الوقت كان ينقضي ، وانا حيث كنت ، لا افهم من هذا  
الامر شيئاً .

— ترى اني افكر تفكير هاوي ، أليس هذا ما تعنيه ؟ كانت عائلتي  
ايضاً تعتبرني هاوياً في كل ما اعمل . ولو كان لي عمل مستقر او وظيفة  
لاختلفت الحال . فمنذ عشر سنوات او اثلاثي عشرة سنة اصبح افراد  
عائلتي يعتبرون ما اقول عديم الاهمية . فتدحرجت على منحدر ، وغدوت  
عاجزاً عن التصعيد حتى لو كان امامي متسع من الوقت . ولو جاء  
الوزير شخصياً ليقولني وساماً وانا جالس على هذا المقعد لما ادرك احد  
من اهلي سبب هذا التكريم . أما أطلعك على الرسالة التي كتبتها الى  
الوزير لارفض وسام جوقة الشرف ؟

وتعمد لهجة الاحتقار وهو يذكر الوسام ، فاجاب كوستال :

— بلى ، اطلعني عليها .

— عذراً ، ان ذاكرتي ضعيفة .

وشرد نظره لحظة ، ثم قال :

— هل رويت لك قصة الرجل الذي فضل ان ينال وساماً من رتبة ضابط على ان يزيد عمره عشر سنوات ؟  
فحرك كوستال رأسه سلباً . فقال السيد دنديو :  
— لأحد اصدقائي اخ في الثانية والسبعين من العمر . وكان هذا الاخ كنيهاً لاعتقاده انه كان يجب ان ينال الوسام من رتبة ضابط منذ سنتين . فقال له صديقي مازحاً : « اظن انك تفضل ان تموت بعد سنة والوسام على صدرك » على ان تعيش عشر سنوات بلا وسام » .  
فاجاب الاخ : « بكل تأكيد » ، دون ان يبتسم . فما قولك ، أليست الحياة جميلة ؟

— بلى . لو خلقت انا العالم لما جعلته افضل مما هو .  
فابتسم السيد دنديو حاسباً ان كوستال يحدف . ولم يخطر في باله ان الكاتب يحب الكتلكة حباً جماً . ثم قطب حاجبيه ليستعيد نظره الشارد ، المتجول بين كل ما في المكتب من اشياء ، وجعل يحسّدق الى جارور خزانة صغيرة لحفظ الاوراق ، وهو يقول لكوستال :  
— أأفضل بسحب جارور هذه الخزانة ؟ ان فيه جميع الرسائل المتبادلة بيني وبين امي ، لما كنت شاباً اعزب ، واود ان اقدمها لك .  
وسنجعلها صرة . فاذا دخل احدهم الى هذه الغرفة وسألك عما تحتوي هذه الصرة ، فقل له ان فيها قصاصات جرائد عن الرياضة البدنية .  
ردد كوستال في نفسه كلمة : « احدهم » ، وهو متمعج من الطريقة التي كان السيد دنديو يتعمدها لاجتناب ذكر ابنته ، ولتجاهلها ، او لحل مخاطبة على الظن انها من الذين يزدرهم .  
وتذكر كوستال انه تضايق منذ ايام لما دخلت سولانج على ابها وهو يتحدث اليه ، واحس ان ذكرها يخفف من حرارة الحديث بينه وبين العجوز لقلة اهميتها بالنسبة الى الجو والمستوى اللذين يجري فيها هذا الحديث ؛ بل اكثر من ذلك : لقلة اهميتها بالنسبة الى

السيد دنديو .

قال كوستال :

— انك تراني للمرة الثانية ، وتريد ان تعطيني رسائل امك !

— وبين يستطيع المرء ان يثق ان لم يثق بالذين لا يعرفهم ؟

— تعطيني هذه الرسائل في يوم آخر .

— لن يكون لي «يوم آخر» ، على ما اظن .

— بلى ، لا تكن متشائماً .

— أنظن اني استطيع العيش بعد وقتاً ما ؟

طرح السيد دنديو هذا السؤال وقد اشرق وجهه ، ولعت عيناه ، على الرغم من قوله منذ قليل انه يود لو يموت ، وانه يرحب بالموت مسروراً .

وطلب السيد دنديو ورقاً وخطاً ، ثم جعل يصبر رسائله ورسائل امه ، فكانت تفلت من بين يديه ، ولا يستطيع القيام بحركة دون ان يقع شيء منه او حوله ، فراح يقول :

— كل شيء يقع ... كل شيء يقع ... فالاشياء تفر هاربة مني . انها تحس بانني على وشك ان اصبح جثة .

ولما دنا منه كوستال ليساعده بعمل الصرة قال له :

— اود ان تخبرني بصراحة أكرهية رائحة لهائي ؟ فقد تغيرت كثيراً منذ حلّ بي المرض . منذ ستة اشهر لم يكن وجهي هكذا ، وكان كل من يراني يحسني في الثانية والخمسين او الثالثة والخمسين من العمر . ولاحظ كوستال ان بين الرسائل قصاصات جرائد فيها اخبار المناسبات الاجتماعية منذ عام ١٨٩٠ ، وقد أثير فيها بخط احمر الى اسم السيد دنديو . لقد تنكر هذا الرجل لحياته الاجتماعية وما فيها من زيارات وحفلات حتى انه باع ثيابه الرسمية علناً للاعراب عن زهده بالمظاهر . ومع ذلك دفعه حب الظهور الى الاحتفاظ مدة اربعين سنة



هذه القصصات الزرية الحاملة اخبار حفلات ريفية ، لأن اسمه مطبوع فيها . لا شك في ان الطبيعة اخطأت حين ضنت على السيد دندير بموهبة التعبير عن خواطره ، فقد ولد ليكون من رجال القلم .

سأله كوستال :

— ما هي غايتك من اعطائي هذه الرسائل ؟ أتريد ان ائلفها ؟ أتريد ان احتفظ بها من غير ان اقرأها ؟ اذا كان الامر كذلك ، فما الفائدة من حفظها ؟ واذا كنت تريد ان اقرأها ، فبأي صفة يجوز لي التدخل في هذا الموضوع ؟

— اني اقدم هذه الرسائل للكاتب الروائي . اقرأها ، فقد تجد فيها اشياء لا تتخلو من الفائدة لرواياتك .

قال كوستال في نفسه : « ما اغرب هؤلاء الناس ! » وخامره شيء من العجب ، على الرغم من اطلاعه على اشياء كثيرة ادهشته في ذلك اليوم . ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : « كثيراً ما تلقيت من قارئات ، ما رأيتهن في حياتي قط ، دفاتر كاملة شرحن فيها تفاصيل حياتهن الزوجية الحميمة على أمل ان اجسد فيها « بعض الفائدة لرواياتي » ؛ اما ان يقدم رجل على عمل من هذا النوع ، فامر يدعو الى الاستغراب ! وما عساه يكون الدور الذي تقوم به المرحومة السيدة دندير الام في هذه الرواية ؟ أكان يسرها ان تعلم ان ابنها سيعطي رسائلها يوماً ما لرجل مجهول — فاني مجهول بالنسبة اليه — ليفيد منها ما يكتبه ؟ ما اغرب الانسانية ! انها حقاً خليط من اناس فاقدني الشعور .

ورفع السيد دندير يده الى جيبه وقال :

— هذه السنوات ، ما افزع ضجيجها ! فالسنونو ، والشمس ، وكل ما هو جيد وجميل يزعجني حتى الارهاق . منذ قليل كان احد العمال يغني على الدرج . ولا بد ان تكون لاحظت انهم يحمدون دهان الدرج . لا تستطيع ان تتصور كم كان صوت هذا العامل رخيماً وحسن الرقع .

فرحت اقول في نفسي : « انه في ثياب الشغل ، انه لا يغتسل ، انه غليظ ، ولكن صوته صافٍ جميل ... كأنه آتٍ من عالم آخر » .

— وهل كان يتعبك هذا الصوت ايضاً ؟

— لا .

— لما سمعت بداية جملتك ظننتك تريد مصارحتي بان غناء هذا العامل كان يزعجك كما تزعجك الاشياء الاخرى ...

— عذراً لم اعد اذكر كيف كانت بداية جلتي . ان ذاكرتي ضعيفة للغاية ...

وراح يعبث بقوارير ادوية كانت على طاولة صغيرة الى جانب مقعده ، فقال كوستال :

— وخلاصة القول انك لا تعلم أقاسية كانت اغنية العامل عليك ، أم سائفة ومفيدة ؟ وانت لا تدري ايضاً أبحي موتك في حينه ، كما قلت لي منذ قليل ، أم هو يربك كما يبدو لي من حركاتك واقولك ؟ فالمرت يربك وانت تتقبله ، والرعب والقبول يسيران جنباً الى جنب ، كما ان صوت العامل أتعبك واعجبك ، فصار تعبك وعجبك جنباً الى جنب .

فاجاب السيد دندير كتهليذ سأله معلمه عن اتجاه الغولف استريم<sup>١</sup> :

— لا ادري .

وقبل ان يتكلم كان قد شدّ قبضتيه بقوة ، حتى كادت اظافره تدمي راحتيه ، كأنه يبذل جهداً كبيراً ، ثم وضع قبضتيه على مسندي المقعد ، فاستطرد كوستال قائلاً ، وهو ينظر جانبيّاً الى صورة مرسومة على السجادة :

---

١ - مجرى مياه حارة يبيع في خليج الحسك ، ويتجه شرقاً بشال عبر المحيط الاطلنطي ، ويتفرع الى مجاري عديدة ، وله الفضل في تحسين المناخ في بلدان اوروبا الغربية والشمالية .

— كنت اسائل نفسي لماذا احببتك ؟ أما الآن فقد أدركت السبب .  
ذلك انك مثلي تماماً . وما اعطيتني رسائل امك إلا لأنك تعلم اني  
مثلك . هذا ما فهمته فجأةً في هذه اللحظة .

واخذ يتم بحمارة وابتهاال دون ان يرفع نظره عن السجادة : « يا  
لهي ، اجعله يعيش الى الأبد ! »  
فانتفض السيد دندير وقال :

— ماذا قلت ؟ انك ، اذاً ، تؤمن بالله !

فاجاب كوستال بلهجة تتم عن افطع معاني الاحتقار :

— انا ، اؤمن ؟

— في اجتماعنا الاخير قويتني على الالحاد . وها انت الآن تعيد النظر  
في موقفك ، وفي هذه الساعة بالذات ، وانا على ما ترى من الضعف ا  
فالناس ، كالشعوب ، لا يتوقفون عن الانحطاط منذ اليوم الذي يبدأون  
فيه بالاستماع الى احاديث عن الله . اذا كانت هناك حثالة خلقية في البشر  
لا تستطيع الاستغناء عن الدين ، فما حيلتي ؟ اما انت فاذا كان لك دين  
فاخجل به ، على الاقل ، واستره عن العيون .

— انك ستموت قريباً . أفلا تستطيع الاهتمام بشيء اهم من الله ؟  
قلت لي منذ قليل انك كنت رجلاً سليم الصحة . والرجل السليم الصحة  
لا يهتم بالله .

— ولكنك تزعم انك ملحد وتفكر دائماً بالله .

— ان ما تقوله سخيف مضحك . كنت انتظر منذ زمن بعيد هذه  
الافكار المبتذلة التي تلبس من الحالات النفسية الرخيصة .

فاجاب السيد دندير بصوت استعاد لطفه وعذوبته ، وقد امت في  
عينيه بوارق الصداقة :

— كم تحب ان تشتمني !

— اجل ، احب ان اكون غليظاً في تصرفي حيالك ، لأنك تقول

اشياء تعيظني في اغلب الاحيان . فانت على عتبة الموت تحاول ان تلباهي  
بنظرتك الى الحياة في لحظات معدودة ، كتلميذ يسارع الى القاء نظرة  
عجلى على برنامج البكالوريا قبل الامتحان بثلاثة ايام . ولكن لا تقلق .  
اذا كنت احب ان اشمك ، فهذا لا يؤثر في شعوري لمحك .

... لست قلقاً . انك لا تقلقي مطلقاً . أيدھشك قولي ؟ اخبرني بصراحة  
لماذا تحتقرني ؟

-- لي ملء الحق في ذلك ، ما دمت احتقر نفسي ، ولي ملء الحق في  
ان أقتل ، اذا كان لا يعني ان أقتل .

قال هذا مفكراً بحالة اضطراره ، يوماً ما ، الى قتل سولانج . فاجابه  
السيد دنديو :

-- لا تحتقر الطبيعة البشرية الى هذا الحد ، فانت تعلم ان فيها فضائل  
جديرة بالاعجاب .

— اني احتقرها بما فيها من فضائل .

— لم تبسّم ؟

— لانني ارى نفسي في المرأة .

وبالفعل ، كان كوستال في تلك اللحظة قد رأى صورته في المرأة  
فسرّها بها .

قال السيد دنديو وهو يبتسم بدوره :

— هذا امتحان البكالوريا بالنسبة اليّ . أتراني المنجح ام ارسب في  
امتحان الجنة ؟ مها يكن من الامر ، فانا الآن على ابواب الابدية . واعتقد  
انك لو كنت مؤمناً لسورك الحذر من ابدية ليست مفصلة على  
قياسك ... ومصنوعة خصيصاً لك :

وكان يتكلم عابثاً بالقوارير ، والانايب ، والحبوب ، ينقلها من مكان  
الى آخر ، فسقطت قارورة من يده ، بينما كان يقول :

— اتي احذر الابدية بحد ذاتها . فلو كان الله موجوداً ، لكان حتماً

ذكياً ، ولو كان ذكياً لما اوجد الحالات النهائية .

— هذا برهان جديد عن عدم وجود الله .

— كنت اعتقد ان « براهين » وجود الله هي منتهى البلاء البشرية ،  
لكني ارى الآن ان براهين عدم وجود الله تستطيع الذهاب في بلاتها  
الى مدى ابعد .

— لا بأس ، ولكنني احب برهانك .

— وانا افضل كأساً من البورتو الصرف .

قال هذا على أمل ان يقدم له كوستال كأساً . وكان العرق يسيل  
من جسده ، ويبلل قميصه ، ويتجمع قطرات كبيرة على وجهه ، كأنه خارج  
من نهر . فالحياسة كانت تخرج من جسده وقحةً بشكل هذه القطرات  
من الماء .

واستأنف المعجوز حديثه قائلاً :

— أصبح ما قلته ، يا سيد كوستال ؟ أصبح انت ما قلت  
لم يكن إلا اسلوباً في اطالة الحديث ؟

— اقسم لك بذلك . ولو شئت انت اشرح لك كل شيء لطال بنا

الامر ...

وكاد يقول له : « ستموت بعد ثلاثة اسابيع ، فما الفائدة من التعب  
لشرح بعض الامور لك ؟ وما الذي يهمني من هذه المسألة ؟ اني لا اهتم  
إلا بشهواتي » . ولكنه لم يقل شيئاً من هذا ، بل اشاح عنه كما كانت الآلهة  
اليونانية تشيح عن الجثث . إلا انه كان يشعر برغبة خفيفة تدفعه الى ان  
يحب في السيد دندير الناحية اليايسة ، الناحية التي فقدت آخر رجاء  
بالحياة .

وامسك السيد دندير يد كوستال باصابعه المتشنجة ، ثم قال له :

— قل لي انك لا تؤمن بشيء ا

— لا اؤمن بشيء ا وانا سعيد لاني لا اؤمن بشيء .

— هذه سعادة الانسان الذي لا يعرف الله ! شكراً لك .

قالها السيد دنديو وهو يحدق الى عيني كوستال بنظرات فيها كل معاني الامتنان وعرفان الجليل ، ثم استطرد قائلاً :

— هذه السنوات ا لماذا جاءت في تموز ؟ انها تتجمع في ايلول قبل ان ترحل . ولكن كل شيء مختلف ... ألا ترى هذا الاختلال ؟

وأصرّ قائلاً :

— ألا تتدبّر رأيي ؟ ليس للطبيعة ناموس يديرها . وهذه الفكرة تسبغ عليّ فيضاً من الراحة ا

وصمت ، فاذا بوجهه يعود الى التعبير عن القلق والاضطراب ، بعد ان كان قد صفا فترة وراى عليه الهدوء ا ثم ما لبث ان اكفهرّ واكتسى لوناً ازرق ضارباً الى السواد ، وقد تجلجل بالمرق . فقال له كوستال بصوت خافت :

— ماذا ارى ؟ هل بدأت تموت ؟

— لا ، ارجوك ان تروني بالجرس ... وبسرعة ا يجب ان اذهب الى المرحاض حالاً ... ان حاجة ملحة من هذا النوع تلتابني من حين الى آخر ... كل شيء فيّ ينحلّ ويرتخي ... اخرج من هنا ، اتوسّل اليك ان تخرج . ألتس منك الصفح ا ولا تلس الرسائل ...

فرنّ كوستال بالجرس ، وخرج ، ودعا الممرض ، ثم تسلل الى الخارج مسرعاً يقول في نفسه وهو مرهق الاعصاب أكثر من المعجوز المحتضر :

« متى يموت ، فيخفف هذا العذاب الذي يسببه لي ، واجد لنفسي عذراً بان أوان مساعدته قد فات ؟ »

وفي الشارع ، انطرح بعماء على احد البنوك ، وجعل يهوّي وجهه بقبعته . ثم أشعل سيكارة وقال : « لم يقدم لي دنديو سيكارة بحجة انه يموت » . وكانت السنوات فوقه تملأ الجو زرققة .

فكّ كدسة من الرسائل ، وقرأ العشر الأول منها ، وألقى نظرة

سريعة على الثلاثين التالية ، وكان عددها كلها اكثر من مائة ، وهي يحملتها نموذج من أقدس ما في العالم من العلاقات الواثقة الخنون بين ام ولدها ؛ نموذج من الحب ، من اصفى واصدق ما في الحب . ومع ذلك ، فقد كانت هذه الرسائل مثال التفاهة والبلاهة ؛ كانت لا شيء ، على الاطلاق .

وكانت هناك فوهة مفتوحة من فوهات الجهارير ، فلف كوستال كدسة الرسائل والقى في المجرور بجميع مراحل الحب التي توالى بين السيدة دندير ولدها .

وبعد ثمانية ايام ، في ١٥ تموز ، كان كوستال في تولوز ، فتلقي برقية من سولانج تنبئه بوفاة ابينا .

أتراه مات موتاً طبيعياً ، ام تناول حبوب الفيروئال ؟ لا ريب في انه مات موتاً طبيعياً . ولكن هذه المسألة قليلة الاهمية . فقد مات ، وانتهى الامر .

ومشى كوستال طويلاً في الشوارع ، على غير هدى ، وبقية سولانج في يده ، وهو يحس بارتخاء عام في جسمه ، وبمجزه عن القيام باقل رد فعل لو مرّ به احدهم ودفعه بكتفه او بيده . واغرورقت عيناه بالدموع ، فقال في نفسه : « ليس بين الناس من يراني الآن ولا يعتقد جازماً اني ابكي لأن امرأة خانتني ! »

واستأنف حديثه مع السيد دندير ، فقال له : « اني ابكيك ، انت الذي لم يبك احداً قط ، لما فيك من الانانية التي لمستها بيدي ... انت الذي كان يحاول ان يزّين لي المستقبل ، وهو يعلم انه لا يجوز له ان يعرف هذا المستقبل . »

وذهب الى المطعم ، فلم يستطع ان يأكل . وكان وجهه متجهماً كئيباً ، وقد عجز عن اخفاء حزنه وألمه ، فقال في نفسه : « سيظن الناس اني اعاني ازمة مالية . ولكنني هنا نفسه لوجوده في تولوز يوم

الدفن ، لأنه يأبى الاشتراك في هذه المهزلة من التصنع مها كلفه الأمر .  
ولما عاد الى الفندق ، اراد ان يكتب الى سولانج وأماها ، لكن يده  
كتبت على الغلاف ، دون ان ينتبه : « السيد ... » ، فتناول غلفاً آخر ،  
وكتب عليه : « السيد شارل دنديو » والعنوان كاملاً ، وجعله امامه ، وهو  
يقول في نفسه انه لن يتسنى له ، بعد اليوم ، ان يكتب هذا العنوان ...  
فاغروورقت عيناه بالدموع من جديد ، فقال في نفسه : « لماذا نبكي رجلاً  
بعد موته ؟ كان الاجدر بنا ان نبكيه في حياته » وان نبكي حياته . من  
الافضل للمرء ان يكون ميتاً من ان يعيش وهو ميت .

وتذكر الدموع التي ذرفها منذ بضع سنوات على كاتب كبير ، وكيف  
كانت تبدأ حيناً ، ثم تفور طوال ساعات متوالية ، كأنها تتجمع في يلبوعها  
لتندفق بغزارة ، حتى قالت له امه بشيء من الاستياء والتمب : « لم  
تبك اباك هكذا عندما وافاه الاجل ! » وفي هذه الفترة ، تذوق  
كوستال نكهة العبارة التالية التي خطرت في باله : « لن يكون لي  
اصدقاء لاني اعاني آلاماً مبرحة عندما افقدكم » . وكانت هذه العبارة  
من التي تقوها السيدات المهرمات عندما يموت كلبهن العزيز المدلل .  
ولكن كوستال راح يسائل نفسه هل كان السيد دنديو صديقه . ثم  
قرر ان يرسل برقية واحدة الى سولانج وأماها ، لانه لم يشك في صديق  
الاهتمام بها .

ولما استلقى على سريره تعذر عليه النوم ، فجعل يحرك ساقه فوق  
الغطاء حركة مستمرة ، كما تنعما ! وهي تموت منظرحة على الارض .  
ولشأ في نفسه شعور بوحدة الحال في الألم بينه وبين الخير التي تموت ،  
وامتدت منه سلسلة طويلة ، فاتصلت بالحيول التي تموت .

واخيراً تذكر جملة استرعت انكباها في احدى رسائل ابنه الذي  
كتب اليه على اثر وفاة احد رفقاءه بالتهاب السحايا ، قال : « اني حزين للغاية ،  
لكن يجب ان اعلى نفسي بانى سأعزى » . وعلل كوستال نفسه بأنه



هو ايضاً سيتمزى ، فقال في سرّه : « ان الطبيعة جرحتي . والطبيعة  
ستشفي من جراحي بالنسيان . وسيأتي يوم تصبح فيه وفاة السيد دندير  
في نظري عديمة الاهمية ، كما تصبح ذكرياتي عن ابنته من الامور التي لا  
ابالي بها . وبما ان السبب الذي يبكيني اليوم هو الذي يجعلني لا ابكي  
غداً ، فان بكائي اليوم لا يعدو كونه ضرباً من اللعب » .

واستيقظ كوستال في الساعة الرابعة صباحاً ، فخطب نفسه قائلاً :  
« ان فتاة تعيش وحيدة مع امها لا تشك بانها ستسقط حتماً ، والصبي  
كذلك ، لقلة تأثير الام على ابنائها ، اللهم إلا اذا كان تأثيراً شريعياً .  
ولكن سولانج سقطت وانتهى امرها . ومات السيد دندير للاشياء ،  
فيا للحياة !

قال هذا وغرق في النوم من جديد .



من  
سولانج دنديو  
باريس  
الى  
بيار كوستال  
شباك البريد  
تولوز

١٨ تموز ١٩٢٧

لم هذا السكوت ؟ لم نتلق منك إلا برقية موجهة الى امي . ألم  
تعديني لدى سفرك بأن تكتب اليّ بعد ثلاثة ايام ؟ ألا تشمر باني معلّمة  
بالبريد اليومي ساعة بعد ساعة ؟  
ان هذه الحياة التي لا تطاق مستمرة منذ خمسة ايام ، فاستعملك  
ان تضع حداً لهذه الحالة . واتوسل اليك ان تمد اليّ يد المساعدة . لقد  
فرغ صبري .  
وإلا فتكون قد سافرت نهائياً ، وتريد ان تهجرني . واذا كان الامر  
كذلك فصارحني بالحقيقة ، فهذا افضل من ان لا اعرف .  
لك  
اقبلك .

روز بورغ

ملاحظة : وضعت لك في هذه الرسالة غلافاً عليه عنواني وطابع  
بريد ، فاذا كانت الكتابة اليّ تزعجك ، فما عليك إلا ان تكتب اسمك  
على الورقة دون ان تريد كلمة ، فافهم انك لم تهجرني .

دفن ابي المسكين هذا الصباح . ما افطع الفراغ الذي خلقه لنا ا  
ماكتب اليك ثانية لاختبرك كيف مات . ابي وامي مسروران لأنه  
رضي بان يستقبل كاهننا قبيل وفاته .



## من مفكرة سكوتال

ها هي روزبورغ الباردة !  
 جلتُ رسالتها بيدي ورحمت اسير بين الناس مطرقاً ، اعض شفتي  
 من شدة التأثر .  
 ها هي بدورها ترسل صيحات كأنها حيوان ، ترسل صيحات كهر  
 سجين في سرب . لقد جنت بدورها . جنت اندريه بعد اربع سنوات .  
 وجنت ج . ر . بعد سنة . و اوندشتاين بعد ست سنوات . وكلير بعد  
 سنة . أما هي فقد اصبحت مجنونة بعد شهرين . ما افزع ان تكون  
 الفتاة هاذئة !  
 ما كاد ياس اندريه يبدأ حتى هبّ عليّ هذا اليأس الجديد . اني اسمع  
 دائماً عويل النساء ، فهذه الضجة من البكاء ترافقني طيلة حياتي .  
 ان تنقيط رسالتها مؤسف للغاية .  
 كالمندرب على السحر ، اطلقت هذا الحب البكر ، هذه القوة الطائشة  
 التي لا أسيطر عليها . في الاوبرا الهزلية <sup>١</sup> ، كانت ورائي . ثم تقدمت ،  
 مشيت بسرعة اكثر مني حتى وصلت اليّ ، وها هي الآن قد سبقني .  
 ويخيّل اليّ انها ستمضي عندما أصل .  
 أنكون هذه الرسالة على شيء من المبالغة ؟ أترأها كرسائل الغرام

---

١ - اشارة الى ان علاقته بها شبيهة بتمثيلية هزلية .

التي كنت اكتبها وانا في السادسة عشرة من العمر ، فاخطها في الساعة الرابعة بعد الظهر ، وأورخها الساعة الثانية بعد نصف الليل ؟ ان هذه الفورة المفاجئة مذهلة للغاية . فلو كانت سولانج اوضح تعبيراً عن شعورها في احاديثنا الماضية لما خامرني بصدقها هذا الشك . ومن المؤسف ان تدفع هذه الصغيرة المسكينة الآن ثمن تكتسها وتحفظها . وقد يكون هذا منتهى الجور . ولكن ما حيلتي ؟

اني اقبل حبها .

اقبل الدخول الى دنيا الواجبات .

وهي واجبات عذبة ، لاني احب سولانج . إلا انها واجبات على كل حال . ولم اكن قط من الناجحين في القيام بالواجب .

والخلاصة ، اني اقبل بهذا الحب ، بكل احترام ، وبكل وقار وجد ، بوقاري المتقطع ، ولكنه الناشط دائماً اذا دعت الحاجة ، حتى في اللحظة الاخيرة ، وب... لا تحضرني الكلمة اللازمة ؛ اود لو اشير الى ان حبها لا يزعجني ، والى اني اقلقه باكثر من القبول : اني استقبله مرحباً به .

والآن ، فلننظر الى شيء آخر ، الى لامبالاتها حيال وفاة ابها ا ما اقسى هذه الملاحظة في نهاية رسالتها . كل ما فيها من الرقة موجه اليّ وحدي . اني اخجل بها ، اخجل بها عن نفسي وعن سولانج . ومع ذلك ، فهي فتاة رائعة . ولا ريب في ان ابها لم يكن من النوع الذي يحبه ابنائه . هذه هي الطبيعة . وغداً ، سيكون برونه بكل لطفه وظرفه<sup>١</sup>... ولكن اعتياد الطبيعة لا يتم بلا ألم . يريد الناس ان لا نستشيط غيظاً إلا حيال الامور الاستثنائية ، مع ان الامور العادية

---

١ - توقف المؤلف ولم يلمح عن رأيه في ابنه ، إلا ان توقفه واضح الدلالة على التخوف من ان يصبح برونه بالنسبة اليه كسولانج بالنسبة الى ابها .

هي الخيفة .

كلما كنت ازور ارملة او يتيماً مات فقيدهما منذ قليل ، ولم يكن  
من الذين ابالي بهم ، كنت احس بانني اشد تأثراً -- بصدق واخلاص -  
مما كان يجب ان أتأثر ؛ كنت ابدو كأنني القى عليها درساً . وكانا  
دائماً البادئين بمواصلة الحديث وتغيير الموضوع .



من  
بيار كوستال  
تولوز  
الى  
سولانج دنديتو  
باديس

٢٠ غور ١٩٢٧

هدوءاً ، يا ابنتي . هدوءاً ، هدوءاً ، هدوءاً بلا نهاية للفتيات  
الصغيرات . ما هذا الهديان ؟ ان الخشوف يحافظ دائماً على رباطة  
جأشه .

طلبتِ الى الأمان ، فما انا اعطيكه . فهدوءاً يا ابنتي الصغيرة الحبيبة .  
هدوءاً في الحاضر . هدوءاً في المستقبل ، الى ابعد ما يطيب لك ان  
اكون في هذا المستقبل . هدوءاً كلياً ومطلقاً . المرح المرح ، وطلاقة الفكر  
في الثقة والهدوء .

ضممتك الى قلبي ، في ذروة عزلي ، وكنتِ هناك وحيدة ، مع انك كنت  
محاطة بي . وفي وسعك ان تبقي ها هنا ما طاب لك البقاء ، فلن اتركك .  
احبك ، والشيء الأندر من حيي اني احب تملقك بي . لن اتخلى عنك ،  
ما لم تتخلي انت عني .

سمعت انه يجب ان توضع كل امرأة في مثل حالك على محك التجربة .  
ولكنني لن اجرّب من احب .

وسمعت ان الرجل يخسر المرأة اذا احبها اكثر من اللزوم ، وان

التظاهر بالبرودة ، من حين الى آخر ، اكثر فائدة ، الى آخره . ولكني لن ألعب هذه اللعبة معك . لن ألعب معك مطلقاً . لست من الذين يعتبرون الحب حرباً . اني امقت هذا المفهوم بشدة . ليكون الحب حباً حقيقياً ، اعني ليكون هدوءاً او قليلٌل .

لم هذا الخوف من سكوتي ؟ ما الذي يستطيع وجودي ان يقدمه لك اكثر من هذا السكوت ؟ انت ها هنا ، يا حقا ، ألا تعلمين ذلك ؟ في النهار تلسابن الى جانبي بلطف كظلٍ صغير . وكل مساء ارقد وانت معي بين ذراعي .

وجسدي ايضاً يفكر بك . يستيقظ ليلاً ويهفو اليك ، كما يمد الكلب رأسه طالباً ان يشرب .

اردت ان اتابع تسلسل الاشياء التي تشغل بالك كما هي واردة في رسالتك ، فحدثتك أولاً عنك وعني ، وها انا اقول الآن كلمة في ابيك .

أكنت تحبين اباك ؟ لا ادري . اما انا فقد رأيت مرّتين فاحبته . أكنت تحترمين اباك ؟ لا ادري . اما انا فقد رأيت مرّتين فاحترمته . احسست بأنه شخصية تفوقك قدراً .

انك لا تفكرين إلا بي ، مع انك لا تعرفيني إلا معرفة زهيدة . فالطريقة اللامبالية التي تحدثت بها ، في رسالتك ، عن وفاة ابيك ، اثارت حنفي ، على الرغم من اني ادرك سببها . اجل ، اني ادرك سببها بكل تأكيد ، ومع ذلك فقد اثارت حنفي . انك « مغرمة » ، وهذه حقيقة لا جدال فيها . ولكن الحب ليس عذراً لك ، بل يزيد خطأك فداحة ، تماماً كحالة السكر التي يعتبرها القضاء المريض سبباً مخففاً ، وهي من اهم اسباب الادانة .

هل قدر لي ان أفهمك ما كان يتحلّى به ابوك من المزايا ؟ اريد ان تكوني ما يجب عليك ان تكوني . ولا يجوز ان تكوني



تماماً تلك التي كتبت رسالتها الاخيرة اليّ .  
دعينا من هذا . اني اقبلك ، يا ابنتي الصغيرة . قد يحبك رجال آخرون  
اكثراً مما احبك . اما انا فاحبك بقدر ما استطيع ان احبك . ليس في  
وسمي ان احبك اكثر .

ك

ملاحظة : ان تنقيط رسالتك مؤسف ، ولا عذر لك فيه .



من  
بيار موسنال  
اولور  
الى  
الانسة راجيل فيلي  
باريس

٢٠ غرل ١٩٢٧

عزيزتي غينيت !

انقضى شهران دون ان نلتقي ، ودون ان اكتب اليك !  
عندما التقيت الملاك الذي تعرفين ، ساورتني رغبة في التخلي عنك ،  
فالمسار الذي يحل في الثقب يطرد منه مساراً آخر . املت يميناً ويساراً  
نتف حي التي سكنت قد نارتها في كل مكان ، لأضمها كلها في الملاك ،  
ولاجعل من هذا الملاك شيئاً قوياً ، كما تجمع المدسة خيوط النور . لقد  
دهمتني هذه المغامرة ، فامتلت بها . لكن بمجرد الظن باحتمال اكتفائي بهذا  
الملاك هو جهل للطبيعة برمتها ، لا لطبيعتي وحسب . فالطبيعة تقوم بوظائف  
عديدة ومختلفة ، والرجل الموهوب يحذو حذوها ، ففيه ، كما في الطبيعة ،  
امكنة لكل شيء . فالملاك هو ما هو ، وانت شيء آخر ، وهذا وحده  
يكفي ليثير رغبتني في اخذك انت ايضاً . اني انتظر اذاً من جميل  
معروفك ان تفرحي باستعادة مركزك بين مسراتي .

تذكرين ، طبعاً ، اني كنت اتوقع هذه العودة ، ولكني كنت اظن  
انها ستم بعد ان اكون سئمت الملاك . ولكن العكس هو الذي حدث ،

فلم يخامرني قط ، في ما مضى ، ما يخامرني الآن من الشعور بالحب الجدي ،  
العميق ، المتين للملاك ، فعطفي عليه يقوم على ركنين وطيدتي الدعائم ، هما :  
الاحترام والشهوة . وفي هذا التيار الجارف الذي يدفعني اليه ، هذه الايام ،  
خصوصاً بعد ان تلقيت منه رسالة امس ، رجعت الى عبقرتي الخاصة  
في الحياة ، واعتصمت بالمبدأ الاعلى الذي يوجب عليّ ألا تكون في  
حياتي امرأة واحدة .

وفضلاً عن ذلك ، فاني احب الذكاء . ولهذا السبب ، مهما تكن  
مجموعة عشيقاتي لامعة ، يجب ان تكون لي فيها خلية يهودية ،  
فهي تساعدني على احتمال الاخريات .

سأكون في باريس في ٢٥ تموز . فتعالى الثلاثاء ، في ٢٦ ، يوم عيد  
القديس برنابا ، الساعة الثامنة مساءً ، الى بور رويال ، فنتعشى معاً ، ثم  
ترين ما سترين .

الى اللقاء ، يا عزيزتي . ادغدغ راحة يديك ، واقبلك ، لان شهوتي  
رقيقة ، كما تعلمين . وانت ايضاً امرأة طيبة ، ولهذا السبب كان عطفي  
عليك صادقاً وحقيقياً . ولكن استعدي من الآن لتجعليني سعيداً .  
عندما افكر بك تلتابني رعدة من السرور الدم ، شبيهة بحمىة  
المتصوفين ، او بنهاية الالهي .

واخيراً ، فبعد مرحلة طويلة من السمو غدوتُ أوثق الى حب غير  
مجرد من الغاية النفعية ، وحبك من هذا الطراز .

ك

من  
 بيار كوستال  
 تولوز  
 الى  
 الآنسة دي بيرون دي لارشان (١)  
 كان  
 « ومنها الى برونيه »

٢٠ تموز ١٩٢٧

يا هري الصغير !  
 لا اريد ان أناور في الشؤون المتعلقة بك على غير علم منك ؛ بل  
 اكثر من ذلك ؛ اني عاجز عن القيام بناورة من هذا النوع . فاعلم اني  
 كتبت الى الآنسة دي بيرون ، منذ خمسة ايام ، لاسألها هل أتيت عملاً  
 قبيحاً جداً ، ورجوت منها ان تقول لي الحقيقة ، فاجابني بان لا شيء  
 جديد في مجرى حقاقتك المألوفة .

واليك بسبب كتابتي اليها :

لا يمر بي يوم دون ان افكر بك طويلاً ، والفترة التي افكر خلالها  
 بك هي افضل فترات يومي ، مهما تكن الفترات الاخرى حافلة بالهناء .  
 ولكني هذه المرة رأيتك في الحلم . حلمت بانك رأيت خزانة الآنسة  
 دي بيرون غير مقفلة ، فاغتنمت هذه الفرصة ورحت تبحث فيها وتأخذ

---

١ - آنسة عجوز ، صديقة كوستال ، عهد اليها بالسهر على ولده . راجع الحلقة الاولى  
 من هذه السلسلة : « الصبايا » . - المؤلف .

منها بعض النقود . وقد كان هذا الحلم مدهشاً ، ومعقولا ، ومنسجماً من اوله الى آخره ، حتى اني ساءلت نفسي أليكون بمثابة انذار لي ، فكتبت فوراً الى الأتسة دي بيرون اسألها عن جليلة الحبر .

احدث هذا الحلم تأثيراً عيقاً في نفسي ، فاقلني وشوش افكاري ، فادركت بقوة لم اعهد لها من قبل كم تكون الصدمة قاسية ، والحياة مرة ، اذا غدوت لا استطيع احترامك .

ثم اشخاص عديدون اعطف عليهم . ولكن هذا العطف ، وإن يكن حقيقياً ، يصل الى حد معين ولا يتجاوزه ، كسيارة نعلم ان في جوفها كمية محدودة من الوقود . اما عطفني عليك ، فبخلاف ما ذكرت ، لا يصطدم بشيء ، ولا يقف مطلقاً عند حد معين . انه من نوع آخر بالغ القوة والسمو .

فالعطف الذي اكنته لبعض الاشخاص يحتمل التخلّي عنهم ، ولا يتأذى اذا ضايقتهم ، وحتى اذا جرحتهم ، فاستطيع ان اراهم في الضنك دون ان اتألم ، ودون ان اعمل شيئاً لانتقامهم . اما عطفني عليك فلا يحتمل شيئاً من هذا . لم يخطر لي مرة في حياتي ان احاول ازعاجك ، او ان اترو في حمايتك بما يزعجك اذا كنت قادراً على هذه الحماية ، او ان ادعك لتتظر السرور الذي استطيع ان اعطيكه فوراً . فعطفني عليك من نوع آخر بالغ القوة والسمو .

عندما اخرج من الجو الذي يخلقه حولي اولئك الاشخاص وادخل في جوّك ، يبدو لي كل شيء بسيطاً كما تبدو لي أنت . ذلك اني أحبك ، أنت ، حباً حقيقياً ، ولا شيء أبسط من الحب ، كما ان لا شيء يبسط الامور والاشياء كالحب .

ولكن العطف الذي اكنته لك ليس معصوماً من الاختلال . فعطفني على الاشخاص الآخرين مرهون بهم ، فقد يرتكبون خطأ يجعلهم غير جديرين به فالتزعزع منهم ، وهو مرهون ايضاً باحوالي النفسية ، بطبعي ،

بسأمي ، بضرورات عملي وحريري . اما عطفي عليك فمرون بمشيتك وحدك . اعني اذا قدر له ان يضعف ، فلن يكون ذلك إلا اذا غدت انت غير جدير به .

هناك نوع من المعجزة : فمذ خمس عشرة سنة ، او بالحري منذ ثمانى سنوات ، ابي منذ بلغت سن الفهم ، لم اجد فيك ما يحملي على توبيخك ، او الى لومك . لم تقم بعمل واحد يسيء الي . اني انظر الى هذا الواقع كما ينظر المرم الى الألعاب الخطرة التي يقوم بها بهوان ، فاخاطب نفسي قائلاً : « اللهم ان يستمر هكذا حتى النهاية ! » وما انا اقول لك الآن بكل ما أوتيت من القوة : تبدل ، لان كل شيء في الطبيعة يتبدل ، ولأن من كان في مثل سنك يستطيع التبدل في خمسة عشر يوماً ؛ تبدل ، ولكن في جوهرك ابق كما انت . لتكن في سديك نواة متينة ثابتة لا تحول ولا تزول ( اسأل الآتسة دي بيرون ان تشرح لك ما هو السديم ؛ كان في وسعي ان اشرحه لك ، ولكن الشرح يزعجني الى اقصى حد ) . انت تعلم ان هناك حقوقاً واسعة من الحماقات اسمح لك بان ترتع فيها ، وهذا ما لا يسمح به أب لابنه ، لاعتقادي ان هذه الحماقات لا تؤثر في ما هو جوهرى . فاحذر ان تمس الاشياء الجوهرية .

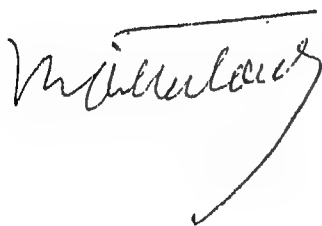
ان ما تهفو اليه نفسي بكل ما فيها من توق هو ان اصل الى حالة لا يخطر ببالي فيها انه من المحتمل ان يساورني قلق عليك ، في ما يتعلق بقيمتك ، فتكون لي الهدوء التام ، والأمان التام .

ان حالة كهذه يكون لي فيها شخص آخر غير نفسي الهدوء التام والأمان التام هي حالة استثنائية خارقة لا يستطيع ان اتصورها ، لأنها تكاد تكون من غير هذه الارض . ولكن ، لتكن لي هذه الحالة ، منك انت ، ومنك وحدك ، ولا حاجة بي الى الآخرين .

انت المخلوق الوحيد الذي يجعلني استقر ، انا العاجز عن الاستقرار على احد . والحقيقة هي اني لا احب سواك ، لان الحب لا يعني إلا

هذا العطف الذي يمضي الى اللانهاية ، والذي يمكن ان يُطلب اليه ما لا  
نهاية له دون اقل ارتباك ، كأن تطلب الى البحر قطرة ماء .  
اذا قدّر لهذه العاطفة التي أكتتها لك ان تنهار ، أو ان تُثلم ، فان  
وجودي برمته يُثلم وينهار فاصبح محطماً .  
عندما يجب المرء شخصاً لا يضطر الى مصارحته بحبه : لنترك هذا  
للأشياء الثانوية . وانت تعلم اني لا افتحك مطلقاً بحبي . ولكن هذا الحلم  
ارعبني ، فشعرت بحاجتي الى ان اضع لك بضع كلمات على الورق .  
فاحتفظ بهذه الورقة ( وربما كنت اطلب اليك الكثير ) ولننتقل الى  
حكاية درّاجتك الهوائية ١ :

. . . . .



---

١ - لا علاقة لبغية هذه الرسالة بسياق قصتنا . - المؤلف .

من  
الآنسة موسيل برياه  
شارع سليمان المقتول الصغيرة  
باريس  
الى  
السيد جاك بيكار (١)  
هند السيد بيار كوستال  
شارع هنري مارتان  
باريس

٢٠ تموز ١٩٢٧

سجاكو ا

ها انا وحيدة في المقهى ، كما كنت يوم الاحد الفائت ، لأنك  
هجرتني . اني انتظرك منذ ستة ايام . فما معنى سكوتك ، يا صغيري ؟  
اذا كنت لا تريد ان تراني ، فلماذا دعوتني ؟ قل لي ، أترك هزئت  
بي ؟ لا اقبل بقليلة من هذا النوع ، يا صديقي . يجب ان نلتقي ، أفهم  
ما اقول ؟ تعال الثلاثاء ، الساعة العاشرة مساء .

أتدري متى ادركت للمرة الاولى انك شبعت مني وغدوت تريد هجري ؟  
كان ذلك في الميتر ، ونحن عائدان من الحانة . اردت ان اقبلك ، فأشحت  
عني . قلت لك : « ألم تعد محبتي ؟ » فأجبت : « بلى ، ولكن لا تقبليني  
هكذا في الميتر ، فهذه قلة ادب » . قلت لك : « أخرجك هذا التصرف ؟ »  
قلت لي : « أجل ، انه يزعجني » . وكان موقفك في منتهى الوضوح .

١ - خادم كوستال . المؤلف .



اتوسل اليك ان تكون شهماً في تصرفك معي . اني ضحية جنوني في سبيلك . كنت اشتبه ان احبك ، ان اوجهك قليلاً في هذه الحياة . فاذنت في العشرين من العمر ، وانا في الخامسة والعشرين ، ولكن تجاربي وخبرتي اوسع بكثير من هذا الفرق في السن بيننا .

آه ارضيت بان أنمي لنفسي فكرة الزواج بك ، لانك لا تريده ، ولكن في وسعنا ان نبقي معاً ، او ان نلتقي يوم الاحد ، فهذا افضل من لا شيء . وما انت الآن لا تريد شيئاً . انت حراً ولكنك ستندم يوماً على هجري . كان من الممكن ان يكون شبابك سعادتي كلها . لكنك لم تفهمني . وتراني أقالم اليوم اكثر مما تأملت في حياتي كلها . فقلي يقطر دماً في عزلته ، وفي انتظاري الدائم ، وعجزي عن حملك على ان تفهمني . اسمع يا جاك : تعال مرة اخيرة ، فادعك بعدها حراً ، تعمل ما يطيع لك .

اذا كنت لا تستطيع ان تأتي غداً ، فساُتظرك طوال ايام الاسبوع حتى الاحد .

اطبع قبلة على عينيك اللتين احبها .

مرسيل

( بقيت هذه الرسالة بلا جواب )

تم كتاب «رأفة بالنساء» ويليهِ كتاب «شيطان الخير» .

منشورات عويدات ١٩٨٧/٨٥٤

# Montherlant      Pitié pour les femmes

Texte traduit en arabe  
par  
**Georges MASROUA**

**MARIANNE / OUEIDAT**  
Beyrouth



# Henry de Montherlant Pitié pour les femmes

 Bibliotheca Alexandrina



0351299

